

117

J TTV

النحوي، عدنان علي تقويسم نظرية الحداثة/ عدنان على رضا النحسوي . _

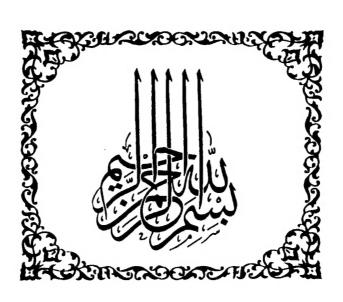
ط٢. ـ الريساض: دار النحسوي، ١٤١٤ آهـ/ ١٩٩٣م

۲۱۲ ص؛ ۱۷×۲۲ سم

ردمك ١٠- ١٩ - ١٨٧ - ١٩٦٠

١- الحداثة ٢- الإسلام دفسع مطاعس
 ٣- الادب العربي نقد العصسر الحديث أ العنسوان

رقم الإيداع ١٤/٠٦٣٥ ردمك ١٠ - ٩٠ - ١٨٧ - ١٩٦٠



جميع الحقوق محفوظة للمؤلف الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م الطبعة الثانية ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م



(۱۸۹۱) - الرياض (۱۸۹۱)

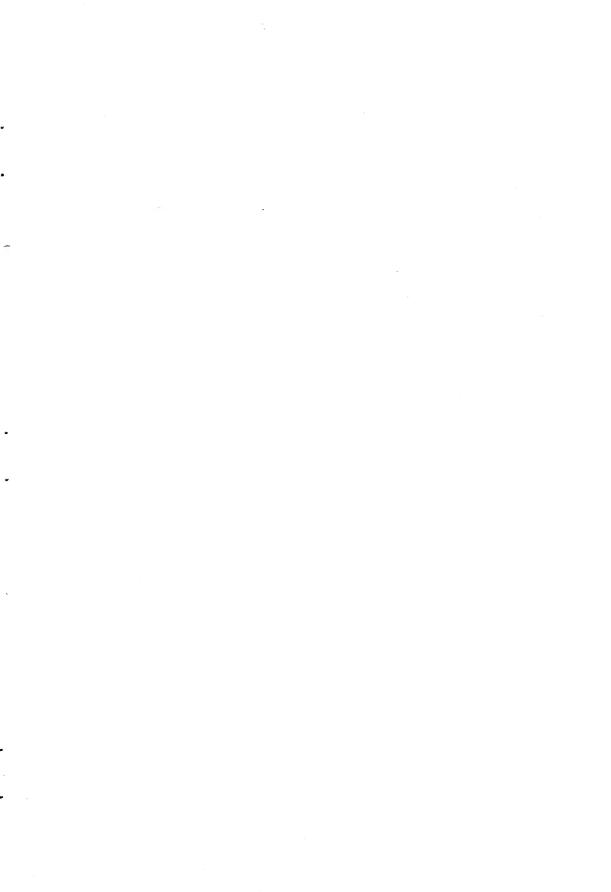
هاتف وفاكس : ٤٠١٠٢٥٧

المملكة العربية السعودية

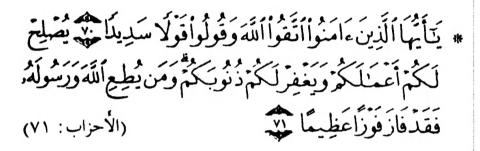


(دوک کراد

- إلى المؤمنين العاملين والدعاة الصادقين،
- وإلى المؤمنين المتفكرين المتدبرين ، لينظروا في الواقع فيجدوا العبرة والعظة ،
 - فيزدادوا إيهاناً وعلماً.
- وإلى أهل الحداثة لينظروا في الواقع كذلك وليروا ، ولنرى جميعنا ، أن في الإسلام بياناً
 - ريوب ومرق بيسب ت ي لكل طالب حق،
 - وغناءً لكل طالب حاجة،
 - وبلاغًا للعاملين .



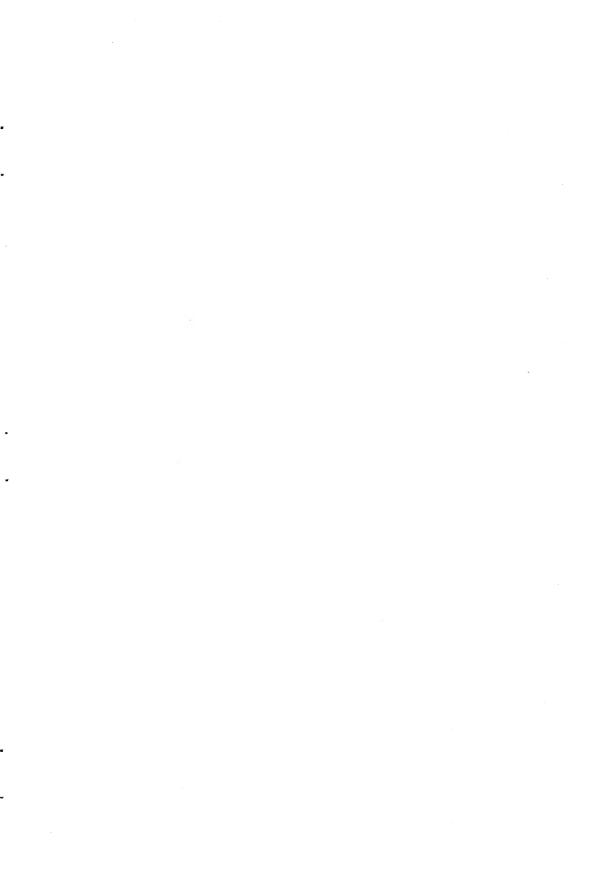
الافتتاع

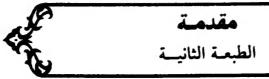


* يَنَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا النَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدِّوا تَقُوا اللَّهَ وَلَا تَكُونُوا لِعَدِّوا تَقَوَا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَيِرُ إِمَا تَعْمَلُونَ فَكُو وَلَا تَكُونُوا كَا لَكُونُوا كَا لَكُونُ اللَّهَ فَا اللَّهَ فَا اللَّهُ مَا الفَسَهُمُ أَوْلَا يَكُونُ اللَّهُ فَا اللَّهُ فَا اللَّهُ فَا اللَّهُ مَا الفَسَامُ مَ أَوْلَا يَكُونُ اللَّهُ فَا اللَّهُ فَاللَّهُ فَا اللَّهُ ال

* عن أبي هريرة رضي الله عنـه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم» . [رواه مسلم]

كتاب البر (٤٥)، باب (١٠) حديث ٢٥٦٤ ٣٤







مع هذه الطبعة الثانية لكتاب «تقويم نظرية الحداثة» تدخل تعديلات على الكتاب. وأول هذه التعديلات تغيير في الاسم ليصبح :

تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها

وسبب هذا التعديل إدخال باب جديد هو «موقف الأدب الإسلامي من الحداثة» وكان هذا الباب في أصله بحثاً قدمته «لمؤتمر الأدب الإسلامي» الذي قام على إعداده: رابطة الجامعات الإسلامية ورابطة الأدب الإسلامي وجامعة عين شمس في القاهرة. وقد تمت جلسة الافتتاح وجلسة الاختتام في قصر الزعفران ـ جامعة عين شمس، وسائر الجلسات في دار الهيئة الهندسية في مدينة نصر بالقاهرة. وامتد المؤتمر من (٢٣ ـ ٢٥) ربيع الثاني عدار الموافق (٢٠ ـ ٢٠) تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٩٧هـ.

لذلك كان لابد من إدخال بعض التعديلات في الأبواب والفصول الأخرى لتلافي التداخل والتكرار في موضوعات واحدة ضرورية للتقويم وضرورية لتحديد موقف الأدب الإسلامي. ويظل كتابي « الحداثة في منظور إيهاني» في طبعته الثالثة هو الكتاب الأول والمرجع لهذا الكتاب «تقويم نظرية الحداثة» ولبحث «موقف الأدب الإسلامي من الحداثة، ولقضية الحداثة بصورة عامة.

وقضية الحداثة تستحق، كما أعتقد، دراسات ومتابعة. فقد تسللت إلى العالم الإسلامي عن طريق الأدب لتقلب كل التصورات عن الحياة والموت والكون، ولتحمل تصورات العالم الغربي بتاريخها المضطرب المتحير التائه فتطرحها في أرض الإسلام،

بأساليب مختلفة كان الأدب أحد أبوابها الواسعة.

وقد استيقظت في السنوات العشر الآخيرة عزمة الأدب الإسلامي بصورة نشيطة بعد غفوة استغرقت زمناً ليس بالقصير. ولكنني أعتقد أن بوادر هذه اليقظة للأدب الإسلامي ظهرت قبل ذلك بزمن، مع اختلاف ظهور هذه البوادر من بلد إسلامي إلى بلد إسلامي آخر، حين أخذ المسلمون يشعرون بفداحة النكبات التي حملها لهم العدوان الغربي متخفياً حينا خلف الحركات التنصيرية، أو خلف الشركات التجارية، أو مجاهراً بعدوانه بالجيوش الزاحفة والسلاح الكاسح، ليمتد به الإجرام في الأرض والظلم والطغيان على صورة مذهلة. وكذلك حين أحس الأدب بهول التحدي الذي يلقاه مع انتشار القومية والاشتراكية والعلمانية والديمقراطية، متزينة بأجمل حُلاها وأغلى زخارفها، لتخدع فريقاً من الناس ويفيق فريق آخر.

وسيظل هذا الكتاب في طبعته الجديدة محتفظاً بقاعدته العظيمة الغنية ، ألا وهي رد الأمور إلى منهاج الله رداً أميناً ، حتى نحتفظ بأمانة الكلمة وعدالتها ، ونبتعد عن الظلم والافتراء ، ولنتحرى الحق الذي يرضي الله سبحانه وتعالى ، ولنترفع بذلك عن السفاسف ونرقى إلى وضاءة الفكر وشرف النهج .

عدنان على رضا النحوي

الرياض ١٤١٤/١/١١مـ ۱ /١٩٩٣/٧م

مقدمة الطبعة الأولى



أعد هذا البحث أولا للملتقى الدولي الأول للفن الإسلامي الذي عقد بقسنطينة في الجزائر، والذي دعت إليه «جامعة عبد القادر الإسلامية» في مدينة قسنطينة، وأشرف عليه «نادي ابن النفيس» في الجامعة خلال الفترة (١٣٠٨) جمادى الأولى سنة ١٤١١هـ الموافق (٣٠-٣٠) تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٩٠م.

وقد حدَّد الملتقى عنوان البحث: «تقويم نظرية الحداثة». ولقد كنت أعتبر أن كتابي: «الحداثة في منظور إيهاني» في طبعته الثالثة المزيدة والمنقحة يجيب على جوانب من هذا لموضوع، تقويم نظرية الحداثة، وإن كان لايطرقه مباشرة.

وأثناء إعداد البحث وجدت أن هنالك جوانب أخرى تحتاج إلى توضيح حتى تتكامل قواعد التقويم، فهنالك الأسس التي يجب أن يقوم عليها التقويم، وهنالك توضيح منطلق الحداثة وأسس نظريتها إن كان لها نظرية، وهنالك معنى النمو والتطور في التصور الإسلامي ومقارنته مع التطور والتغيير الذي تدعو إليه « الحداثة »، وغير ذلك.

لانستطيع أن ننكر أن «الحداثة» بكل أسسها ومفهوماتها العربية تسللت إلى واقع المسلمين خلال عشرات السنين تسللا خفياً مدروساً. ثم نمت وترعرعت كها ترعرعت سائر الأفكار الوافدة من شيوعية وديمقراطية وغيرهما، حتى احتلت مراكز وتصدرت مواقف في العالم الإسلامي .

لذلك أصبح من الضروري دراستها دراسة أمينة عادلة، حماية لأمتنا وديارنا من أي أفكار مضطربة تزحف مع زخارفها ومغرياتها. وإن أقوى حماية وصون هو الصدق والحق، وعرض الأمور على حقيقتها دون مغالاة يدفع إليها الهوى والحب أو البغض.

والحداثة ومصادرها الأصلية ونصوصها الثابتة لاتدع حاجة لأحد أن يفترى عليها. فقد

تحمل بعض النُّصوص غموضاً يوحي بأهمية النص، أو يثير الالتباس لدى بعض الناس، حتى تحسب أن وراء ذلك شيئاً. ولكنك إذا دققت وتمعنت يختلف الحال.

ولانفتري على أحدٍ من رجال الحداثة بظلم أبداً. ولكننا ندرس الحداثة ونقومها من نصوصها الثابتة ومصادرها الحقيقية، ونبذل الجهد الصادق الأمين، ونتحرى الحق لنقول الكلمة الأمينة الناصحة، لننصح أنفسنا فتتحرى الحق، ولننصح رجال الحداثة ليراجعوا فكرهم ونهجهم، أو كلمتهم ونصهم، فكل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، كما يقول رسول الله على ولايستنكف عن مراجعة نفسه إلا كل مستكبر من الناس. ولكن المسلم لايستكبر، ويعود إلى جوهر الفطرة وجلال الإيهان، وعظمة القرآن والسنة، فيرد إلى ذلك كله كلمته ورأيه وموقفه، فيرجع عن الخطأ أو الباطل، ويلتزم الحق واليقين. فالمسلم يتعلم من دعاء الرسول على مايعينه على بلوغ الحق إن شاء الله:

«اللهم أرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه» وفي كتاب الله آيات بينات تذكّر وتوقظ:

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّلغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَمُمُ الْبُشْرَيْ فَبَشِرْعِبَادِ ﴿ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهُ مُوا اللَّهِ عَلَى اللَّهِ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهِ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهِ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهِ اللَّهُ اللَّهُ وَاللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ الللَّهُ الللَّهُ الللَّهُ الللّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الللللَّا الللَّهُ الللَّهُ اللللَّهُ اللللَّا الللللللَّا الللَّلْمُ اللَّا الللَّلْمُ اللَّهُ الللللَّهُ الللللَّ الللّل

إننا كلنا مدعوون إلى أن نراجع كلماتنا وآراءنا ومواقفنا، لنردها إلى منهاج الله قرآنا وسنة، إلى الحق الذي نزل من عند الله، وحياً على نبيه وعبده محمد على الله الحق الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ليكون هو نبعنا الغني الذي يمد الإنسان دائماً بالنور والهدى، وليكون فيه غناؤنا، ونقدم به، نحن المسلمين، للغرب وللشرق، وللبشرية كلها، عظمة الفكر الإنساني في جمال الحق وجلال الإيهان ولنقدم عبقرية النصح، حتى يجد الإنسان حقيقة العزة والكرامة باليقين الحق والعبودية لله رب العالمين.

إننا نقدم بهذه الدراسة بحثاً علمياً بعيداً عن الظنون والأوهام، يعتمد النص الثابت

والمصدر الواضح. فلا نتهم أحداً بظلم إلا أن يدين الرجل نفسه بصريح نصه وبيانه، أو أن يقوم على ذلك من الله برهان.

لقد أعددت هذه الدراسة للملتقى الدولي الأول للفن الإسلامي الذي عقد في مدينة قسنطينة في الجزائر، كها ذكرت سابقاً. ولقد قدمت لهذا البحث عند إلقائه بكلمة أضمها لهذا لكتاب تحت عنوان الافتتاح والتمهيد. وكان من عون الله تعالى أن لاقى هذا البحث تقدير الملتقى ورجال الفكر والأدب الذين حضروه من مختلف أنحاء العالم العربي، وأشارت الصحف بعد ذلك إلى هذا التقدير.

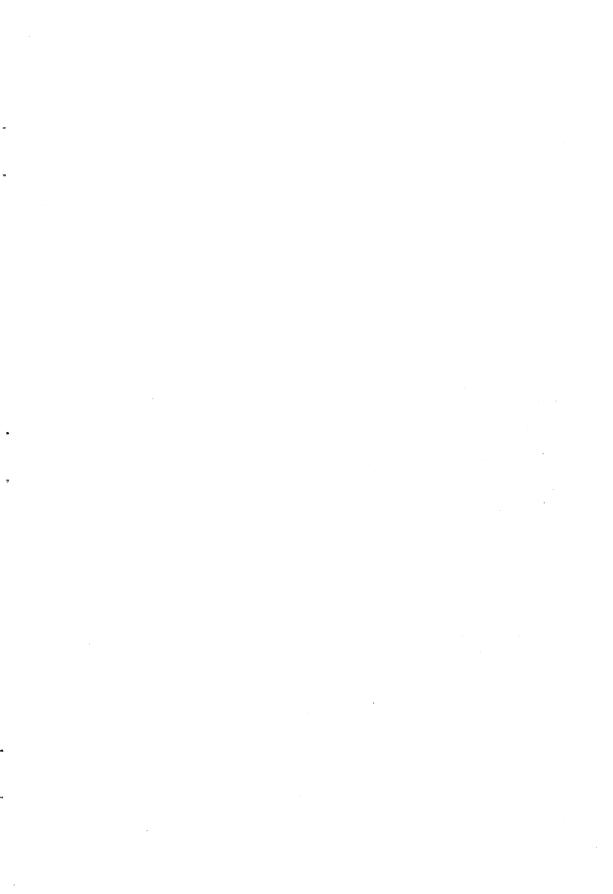
وأغتنم هذه المناسبة مع هذه المقدمة لأشير إلى قضية لغوية اختلط أمرها عند بعض الناس، حتى حاروا أي اللفظين أصح: التقويم أم التقييم. خسب ماتثبته معاجم اللغة العربية.

ففي معجم مقاييس اللغة: «قَوَّمْتُ الشيء تقويماً، وأصل القيمة الواو. وبلغنا أن أهل مكة يقولون استقمت المتاع أي قومته». وفي الصحاح: «والقيمة واحدة القيم. وأصله الواو لأنه يقوم مقام الشيء. يُقال قوّمت السلعة. وأهل مكة يقولون استقمتُ السلعة وهما بمعنى. وقومت الشيء فهو قويم أي مستقيم. » وكذلك في القاموس المحيط ولسان العرب وتاج العروس.

ندعو الله خاشعين له أن يتقبل منا عملنا نقياً من شوائب الدنيا وغرروها، وأن يهدينا سبيل الرشاد وكلمة السداد، والعمل الطيب والكلمة الطيبة. ونسأله سبحانه وتعالى أن يجنبنا مزالق الزلل، وأن يهبنا عزائم القوة، وأن يغفر لنا ويثبتنا على الحق، إنه هو السميع المجيب.

د. عدنان علي رضا النموي

الرياض: ٦/١٥/ ١٤١١هـ ١/ ١٩٩١/ م







الافتتاح والتمهيد

إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونسأله السداد والرشاد، والثبات على الحق، والمضي على الدرب، على الصراط المستقيم.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، علم آدم الأسباء كلها، وعلم القرآن، وعلم البيان، وهدى عباده المؤمنين إلى الطيب من القول وهداهم إلى صراط الحميد.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صل على عبدك ونبيك ورسولك محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة وترك الناس على محجة بيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك ، ترك الناس على منهاج الله _ قرآنا وسنة _ حكماً عربياً ، بلسان عربي مبين ، حتى يتأدب المؤمنون به ، وهو ذروة الأدب والبيان ، وجوهر الحجة والبرهان ، على مدى العصور والأجيال ، نوراً للمؤمنين ، وهدى للعالمين ، ونهجاً للصادقين .

من هنا، من هذا النبع الغني ينطلق الأدب الإسلامي، غير معزول عن ميادين الدعوة الإسلامية، غير مفصول عن مصادره التي تغنيه، ممتداً في حياة الإنسان في جميع ميادينها لتتكامل وتتناسق، ولتدفع الأدب الحق يحمل النية الصادقة والنهج الصادق، ويجلو الأهداف المشرقة في حياة الإنسان، كل ذلك في ساحة الإيهان والتوحيد، فلا شيء سواهما يجمع هذا الجمع ويدفع هذا الدفع

لا يعتبر الإسلام الأدب ميدان لهو واسترخاء ولاساحة تسلية وخدر، ولاباب تنافس على الدنيا وشهواتها. إنه ميدان جهاد وساحة ابتلاء وتمحيص، وباب قوة وعتاد، في ملحمة الإنسان، في ملحمة ماضية أبد الدهر. فعن أنس رضي الله عنه عن النبي على أنه قال:

« جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم» (١)

هكذا حدد رسول الله على مهمة الأدب ودوره في الحياة ـ وتبرز مهمة الأدب في واقعنا اليوم، وأمتنا تحيط بها الأخطار من كل جانب، ويموج المكر والكيد في كل ساح، حتى كأن اعداء الله يريدون اجتثاث دين الله من جذوره إن استطاعوا ولن يستطيعوا. فمنذ أن بعث الله محمداً على وحرب المشركين ممتدة، تبدأ من عندهم وتمتد بهم، وتجمع في ساحها أعداء الله كلهم: المشركين والمنافقين وأهل الكتاب. ولكن دين الله ماض في عزة الحق وإشراقته:

كيف تُخفَى إشراقةُ الحق مهناً : أطبقت فوقها يد الطغيان سرَقُوا الوَمْضَةَ الغنية لكن : أشرَقَت رُغم ذاك منها اليدان سرَقُوا العطرَ ثُمَ وَلُوا ولكن : نشرَته الخُطى بكلِّ مكان كُلها أوغل الجبانُ بِظُلم ٍ : جَعَل الله فرُجَةً من أمان (٢)

من هنا ينطلق الأدب في الإسلام ويتحدد دوره، دور الكلمة الطاهرة الغنية، ليساهم الأدب في أعظم مهمة إنسانية، مهمة بناء أمة التوحيد في الأرض، ليكون أدباً عزيزاً في أمة عزيزة، يحمل الحق والخير للناس جميعاً:

عزة فيه إنه أدب الإسلام، غرس الإيان، ري العهود شرف القول من هدى الحد : ق وسحر البيان بالتوحيد أدب يرتوي البيان لديه : من حديث، من الكتاب المجيد رف بالطيب عوده فتمنى : كل روض نداوة من عود هو رف الندى على الورق اليا : بس يهتز في ربيع جديد هو في الكون آية حوّم المجد : مد عليها فعادت روائعاً من نشيد أدب شع في الليالي مع العز : م زكا عطره دما من شهيد كم جلاه على الميادين فرسا : ن وغنته وثبة من صيد

⁽١) رواه أبو داود في سننه. كتاب الجهاد (٩) باب (١٨) حديث (٤. ٢٥).

⁽٢) د. عدنان علي رضا النحوي _ مجلة القافلة _ العدد (٩) المجلد (٣٧).

فانهضي ياروائع الشعر هذي : ساحة زغردي لها واعيدي أنت في ذروة البيان عطاء : زاخر بالهدى وأبحر جودِ^(۱)

أحاول في هذه الدراسة الموجزة أن أوضح موقف «الأدب الإسلامي» من «الحداثة». وبيان موقف الأدب الإسلامي يحتاج إلى أضعاف هذه الدراسة، مما لايتسع له المجال في هذه العجالة. فقد طرحت الحداثة قضايا عديدة في تاريخها، وأثارت جدلًا وخلافاً مازال محتدماً حتى اليوم، وإن خف أواره. لذلك أناقش ما أعتقد أنه الأولى والأهم، سواء في ذلك النظرات النقدية والفكرية وغيرهما.

وكل قضية أطرحها تستحق هي نفسها دراسة مفصلة واسعة. لذلك أرسم أولاً نهجاً للدراسة أوضحه مع الصحفات الأولى التالية. وأحدد قضايا رئيسة، أعرضها بايجاز لايخل بالوضوح إن شاء الله.

ولابأس أن أشير هنا إلى أنني سبق أن فصلت في بعض القضايا في كتاب سابق لي حول الحداثة هو «الحداثة في منظور إيهاني» ، لذلك قد يتكرر عرض بعض القضايا هنا، على تفاوت في الإيجاز أو التفصيل.

أعرض في هذه الدراسة أولا قضية الحداثة بين المصطلح والدلالة ، لكثرة مادخل ذلك من غموض وتناقض واضطراب. وأعرض بعد ذلك نظرة حول جذور الحداثة في تاريخ الإنسان للاختلاف الواسع بين الباحثين حول بدايتها. وأعرض من خلال ذلك وجهة نظر في هذه القضية بعد ردّها إلى منهاج الله ، لنرى منذ البداية كيف ينظر الإسلام إلى قضية النمو والتطور والسعي إلى الجديد ، وكيف تتحدد معالم النهج للأدب الإسلامي في هذا الصدد . وفي الوقت نفسه يسوق لنا البحث بين هذه القضايا معالم رئيسة في الفكر الحداثي ونهجه وأدبه .

ثم أتناول أهم القضايا الأخرى للدراسة والمقارنة وتحديد الموقف. وأول هذه القضايا التي تفرض نفسها هي النظرة للكون والحياة والإنسان. وينتج من هذه القضية مباشرة

⁽۱) د. عدنان علي رضا النحوي ـ كتاب الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته ـ الطبعة الثانية ١٤٠٧هــ دار النحوي للنشر والتوزيع . (ص: ٣٣٧ ـ ٣٣٣).

قضية أخرى مرتبطة بها، اخذت مساحة واسعة في الفكر الإنساني ومذاهبه، ألا وهي مصادر المعرفة للإنسان، وهاتان القضيتان الرئيستان في الفكر والأدب تطرحان قضية ثالثة هي الموقف من الماضي والتراث والأسطورة.

ولقد كانت «اللغة» من أخطر القضايا التي تناولتها الحداثة في مذاهبها المختلفة، فكان لابد من عرض موقف الحداثة وموقف الإسلام والأدب الإسلامي من هذه القضية الواسعة المتشعبة. وكان لا بد أيضاً أن نشير إلى أهم المذاهب والحركات الحداثية. ولنقدم نهاذج سريعة من النقد البنيوي، ولمحة سريعة عن الشعر ونظرية «الشاعرية» في الحداثة، ثم نسوق كذلك نهاذج سريعة من نصوص الأدب الحداثي، ونعرض مقابلها نصوصاً سريعة من الأدب الإسلامي ندرك أن هذه النصوص قد لاتكون كافية لاستعراض مساحة الأدب هنا وهناك. فهذه مهمة متعذرة في هذا البحث المؤجز. ولكنها لمحات وإشارات تناسب القضايا المطروحة.

ومن القضايا المعروضة في هذا البحث، الجمال الفني وولادة النص الأدبي وانطلاقته ولقد عرضنا في سياق البحث كله بعض النظرات حول هذه القضية على ضوء ماتناولته المذاهب الفكرية والأدبية. أما في الباب الأخير فإننا نجمع موجز النظرة الجمالية في تاريخ الإنسان بإشارات سريعة لتكون تمهيداً لما نقدمة من رأى حول عناصر الجمال الفني، والحوافز المولدة للنبضة الفنية التي تولد النص الفني وتطلقه وتدفعه، على ضوء مانفهمه من طبيعة الإنسان والحياة كما يعرضها منهاج الله قرآناً وسنة، وعلى ضوء الدراسات الأدبية، على ضوء المعاناة والتجربة الفنية الخاصة، لأقدم بعد ذلك تعريفاً خاصاً بالأدب الإسلامي، ولأشير إلى أهمية مايلقاه الأدب الإسلامي من تحديات في واقعنا اليوم.

أحمد الله سبحانه وتعالى وأستغفره وأتوب اليه، وماأصبت فيه فهو من فضل الله وحده، ونعمته ورحمته، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم.

عدنان على رضا النحوي الرياض: ١٤١٢/٨/٢٢هـ





الفصل الأول



أسس التقويم ونهجه

انتشرت كلمة «الحداثة» في واقعنا اليوم بين بريق لها عند بعض الناس، وعتمة عند آخرين، وبين نفور أو إقبال، وتأييد أو إنكار. ربها كان هنالك عدة أسباب لتناقض المواقف. فالتأييد ينشأ من التقاء النهج والأهداف، والمعارضة تنبع من تضارب في ذلك، هذا هو الأساس. ولكن تناقض المواقف امتد إلى الارض الواحدة، والجبهة الواحدة والفكر الواحد. هذه هي الظاهرة الجديدة البارزة في واقعنا. ولهذه الظاهرة نفسها أسباب مختلفة: أحدها أن فريقاً تأثر بالمعنى اللغوي لكلمة الحداثة، ومايرافقها من ظلال مشرقة، وميق آخر انفصال هذه اللفظة اليوم واقعياً عن معناها الموضح في المعاجم، بعد أن حددته حركات أدبية، وفكرية وفلسفية، ظهرت في واقع الإنسان، وسمي عطاؤها «بالحداثة». حركات أدبية، وفكرية وفلسفية، ظهرت في واقع الإنسان، وسمي عطاؤها «بالحداثة». وسبب آخر للتضارب بين وجهتي النظر هو اضطراب الميزان أو اختلافه بين الفريقين. ولابأس في أن نضيف سبباً ثالثاً قد لايظهر أحياناً وقد تخفي آثاره أحياناً أخرى، ذلك هو ضغط الواقع في هذا المجتمع أو ذلك، ضغطاً تتنوع ألوانه، وتتبدل معالم، وقد يكون من معالم هذا الضغط تسلل الفكر الحداثي نفسه أو بعض زخارفه إلى قلوب كانت منكرة له قبل حين.

أما نحن هنا فنتحدث منطلقين من اربع قواعد أساسية نعتقد أنها ضرورية للوصول الى تقويم أمين وحكم عادل. هذه القواعد هي :

أولا: محاولة فهم الحداثة _ إن أمكن ذلك _ من دعاتها وجنودها وقادتها، من مذاهبها واتجاهاتها، حتى لاتُظلمَ او يُفْتَرَى عليها، فحسبُها أنها ظلمت نفسها.

الباب الأول الغصل الأول

ثانياً: اتخاذ ميزان واحد ثابت في تقويم الأمور وتحديد الأحكام، حتى لايقع تناقض واضطراب. هذا الميزان الثابت هورد الأمور إلى منهاج الله، قرآناً وسنةً ولغةً عربيةً، فذلك هو ميزان الإيهان والتوحيد.

ثالثاً: إن الـدراسـة والتقـويم يتناولان «الحداثة» من واقعها العملي، ومن تاريخها الحقيقي، ولا يعالجان «الحداثة» من آمال وأحلام، ولا أماني وأوهام.

رابعاً: إننا لاندرس بيتاً من الشعر ولاعدداً من الأبيات ولاعدداً من القصائد أو الروايات، ولاموقفاً محدداً أو عدداً من المواقف. إننا، في هذه الدراسة والتقويم، نبحث عن نهج ممتد. لذلك ندرس الخصائص الغالبة التي لا يعطلها مخالفة هنا أو هناك، مخالفة لا تلغي روح النهج والامتداد. فلكل قاعدة شواذ، ولكل نظرية استثناء.

وإذا ذكرنا في القاعدة الأولى: « محاولة فهم الحداثة إن أمكن ذلك ، . . . » فلأن الحداثة حملت معها الشيء الكثير من الاضطراب والغموض، والحيرة والشك، كما سيظهر معنا من خلال الدراسة ، لدى دعاتها أنفسهم ولدى الناس عامة كذلك .

هذه هي الأسس الأربعة التي سيقوم عليها تقويم ما يُسمَّى نظرية الحداثة.

أما منهج التقويم فإنه يبدأ بالمصطلح ذاته، باللغة الأجنبية التي صدر عنها، ثم بترجمته إلى اللغة العربية، لنرى من المصطلح وترجمته ابتداء التضارب والغموض. ثم ننتقل إلى تعريف الحداثة بين رجالها وخصومها، لنرى شدة التضارب والغموض عند أهل الحداثة أنفسهم. ولو أن المصطلح والتعريف حملا مفهوماً واضحاً محدداً لأمكن أن نتوقع شيئاً من الخير ولو قليلاً من أمر واضح ولكن الخطر يكمن في هذا الغموض ومحاولة الاختفاء.

وإذا كانت الحداثة تنطلق من رغبة النمو والتطور والتغيير فهل للنمو والتطور والتغيير منهج واحد في حياة الإنسان؟! وهل النمو والتطور هما شران دائما؟! وهل التغيير لايكون تغييراً إلا إذا تبنى الانفصال والانفصام والانقطاع عن الماضي؟! فالتغيير الذي تحاول الحداثة أن تدعيه لنفسها لابد من أن نزنه بميزان الإسلام، ونرده إلى منهاج الله، لنرى سُبُل النمو والتطور كلها في حياة الإنسان على الارض ولنرى أيها أنفع وأبقى.

وحتى تتضح الصورة على نحو جليّ قويٌّ نعرض منهج الإسلام، ونهج الإيمان في التغيير

والنمو والتطور في الجهد البشري، حتى تسهل المقارنة بعد ذلك ويسهل التقويم.

نعتقد أن هذه القضايا الأولى التي تنطلق منها الحداثة إلى عالم الظلام والشك بعد ذلك. هذه القضايا الأولى التي سنعرضها كها ذكرنا هي: المصطلح، التعريف، التغيير، فهي تلقي الضوء على منطلق الحداثة واتجاهها، وتوفر لنا الاطمئنان إلى سلامة الأسس التي وضعناها للتقويم وعدالة النهج الذي نتبعه. ومع كل خطوة نخطوها ستكون الأسس كلها تعمل معاً على النهج المقرر. وبمقدار ماتكون هذه الأسس مألوفة للقارئ الكريم، ستكون في الوقت نفسه أقرب إلى تقديره وأيسر على المتابعة والمحاكمة.

فإذا خطونا هذه الخطوات يصبح من الواجب أن نتبع الحداثة في ميادينها المختلفة من فكر وعلوم إنسانية وعلوم تطبيقية، وفنون وأدب، وسياسة واقتصاد، وفكر وأخلاق. وسيكون هذا التبع موجزاً، ولكن نرجو أن يكون واضحاً. وسيكون موجزاً لأن تفصيلات أوسع ترد في كتابنا «الحداثة في منظور إيهاني»، إلا أننا نطرق هذه الميادين هنا من منطلق التقويم لا مجرد الدراسة والبحث. وسنجد من خلال هذا العرض امتداد الحداثة بين أقطار أوربا المختلفة وأمريكا والاتحاد السوفياتي، ليموج دعاتها ومذاهبها في قلب العالم الرأسمالي والعالم الشيوعي، على صورة تدعو للتأمل والتدبر، ولتجد فرصتها للنمو هنا وهناك، ولتلتقي على نقاط محددة في كلا الميدانين، على اتساع الخلاف بين العالمين: المادي الرأسهالي والمادي الشيوعي.

وإن كانت النقاط التي تلتقي عليها الحداثة في هذين العالمين تثير الدهشة والتأمل، فإن الدهشة تزداد جين نرى الحداثة تنتقل إلى الأقطار الإسلامية، وحين يمتد تأثيرها إلى الواقع الإسلامي اليوم، ولتأخذ مكانة فيه، وتصبح قضية تثير الدراسة والبحث. وأثناء دراستنا هنا سنمضي على نفس الأسس التي عرضناها للتقويم، حتى نظل أقرب للتقوى وأبعد عن الافتراء. ونخلص بعد ذلك إلى تعريف «الحداثة» تعريفاً ينسجم مع النهج الإيماني في الدراسة والتحليل، وينسجم مع الأسس التي يقوم عليها النهج، ومع الحقائق التي نعرضها.

ومن أكثر القضايا التي يدور حولها الخلاف هو قضية بداية الحداثة. متى بدأت ؟! وعلى

البأب الأول الغصل الأول

هذا السؤال إجابات كثيرة مختلفة. فمنهم من يعيدها إلى القرن السابع عشر والثامن عشر، ومنهم من يعتقد ومنهم من يعتقد أنها ابتدأت في أوائل القرن العشرين.

ولكننا نجيب في دراستنا هذه عن هذا السؤال بأن الحداثة بخصائصها الأساسية ابتدأت منذ عهد بعيد جداً. أما تسميتها «بالحداثة» فهي التي يمكن أن يختلف على بدايتها لأنها تمثل هذه الخصائص في حركتها في العصور الحديثة. وسنبين في الفصل المقبل متى بدأت الحداثة بخصائصها لابتسميتها.

كما نحب أن نبين هنا أن من خصائص نهجنا في هذه الدراسة الإيجاز الذي لايخل بالوضوح، حتى نقدم للقارئ الكريم صورة يسهل متابعتها.

وهذه الدراسة في أصلها بحث أُعِد لمؤتمر، فلا يعقل أن تمتد به التفصيلات الواسعة والدقيقة. ونحن ندرك أن بعض القضايا التي نعرضها هنا بإيجاز تستحق بحثاً مستقلاً مفصلاً، وبعضها الآخر سبق دراسته في كتابنا السابق الذكر: «الحداثة في منظور إيهاني».



الفصل الثانى



الحداثة بين المصطلح والدلالة

لم تكن لفظة «الحداثة» هي الكلمة التي رافقت هذه الظاهرة الفكرية والأدبية منذ بدايتها القديمة التي نعتقدها، والتي سنعرض لها بعد قليل. ولكن هذه الكلمة ظهرت حديثاً في عالمنا الإسلامي ترجمة لكلمتين أجنبيتين رافقتا هذه الظاهرة الفكرية الأدبية في انطلاقتها الحديثة في أوروبا فالمصطلح في أساسه أجنبي عن اللغة العربية، أوروبي المنشأ، ظهر في معظم لغاتها كالانجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها، ففي اللغة الإنكليزية عرف مصطلحان هما: (Modernity) و (Modernity)، وفي اللغة الفرنسية عرف المصطلحان المرادفان القريبان من هاتين اللفظتين.

أما المصطلح العربية وهو «الحداثة» فقد امتد حتى أنه لم يعد ينحصر في المعاني المقررة في معاجم اللغة العربية . فالكلمة في أصلها تحمل معاني وظلالاً تتعلق بالشباب والجدة عما فصلنا في كتابنا «الحداثة في منظور إيهاني» فالمعنى الاصطلاحي ، كها حدده رجال الحداثة أنفسهم ، حسب النصوص التي نوردها بعد قليل ، امتد في ظلاله ومعانيه ليدل على مذاهب فكرية وأدبية جديدة ، لها خصائصها المحددة في كتب رجالها ودعاتها . فحين تبين المعاجم أن معنى الحداثة : أول الأمر ، الشباب وأول العمر ونقيض القديم ، فقد انطلق المصطلح في آفاق فكرية وأدبية ، تمثلها حركات ومذاهب امتدت بين فرنسا وانكلترا وألمانيا وإيطاليا وروسيا ، حسب ماستوضحة هذه الدراسة .

لقد عانينا كثيراً في واقعنا اليوم من اضطراب المصطلحات المترجمة عن اللغات الأجنبية في كثير من شئون حياتنا، وبخاصة في الأدب والفكر. ونضرب مثلًا على ذلك بكلمة «EPICUS» المترجمة عن كلمة «EPICUS» الانجليزية أو «EPICUS» اليونانية. وإذا كانت كلمة

الباب الأول الثاني

«EPIC» تحمل مفهوماً واضحاً محدداً بالنسبة لليونان والغرب عامة، فإن كلمة «ملحمة» العربية الإسلامية لم تحمل في الأدب العربي معنى محدداً معترفاً به بعد. ولقد عرضت تصوراً للملحمة الإسلامية في كتاب «الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته» وفي «ملحمة الجهاد الأفغاني» في طبعته الثالثة، وناقشت الموضوع في بعض المجلات والصحف المحلية والخارجية.

وكذلك كلمة «الاستعمار» فهي ترجمة لكلمة « Colonisation » الانجليزية وهناك فرق كبير في المعنى والظلال بين الكلمة العربية والأجنبية . ففي العربية هي لفظة غنية قرآنية تحمل أجمل المعاني . إنها إحدى ظلال الأمانة التي يحملها الإنسان على الأرض والعمارة في الأرض ، لاعمل العدوان والاحتلال والظلم . ففي سورة هود :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَدِلِحُ أَقَالَ يَنقَوْمِ أَعْبُدُوا اللّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ، هُو أَنشَا كُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُونِهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُو اللّهَ فِإِنَّ رَبِي قَرِيبٌ تَجِيبٌ ﴿ ﴾ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُونِهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُو اللّهَ فِإِنَّ رَبِي قَرِيبٌ تَجِيبٌ ﴿ ﴿ ﴾

«واستعمركم فيها» أي طلب منكم عمارتها بحضارة الإيمان والخير والصلاح، ثم تعود بعد ذلك إلى ربها وخالقها.

وكلمات أخرى ومصطلحات عديدة ماتزال تحتاج إلى تحديد وتعريف واضح يرفع اللبس والغموض. إلا «الحداثة» فإنها معجونة بالغموض والاضطراب مصطلحاً ومعنى وحركة. لذلك نبدأ بدراسة المصطلح وترجمته.

ا. الأضطراب والتناقض في المصطلح وترجمته :

وأول ما يجب أن تتناول الدراسة والتقويم هو المصطلح نفسه، وعلاقته بالمصطلح الأجنبي الذي هو الأساس. ففي اللغتين الانجليزية والفرنسية على الأقل انتشرت لفظتان (Modernism) و (Modernity) واختلفت الترجمة العربية بين: الحداثة، والعصرية، والمعاصرة. أما في المعاجم فيكاد يكون الفرق ضيقاً في الترجمة. ففي المعجم نجد ترجمة

كلمة (Modernism) بـ تعبير أو استعمال عصري ، العصرانية ، و (Modernism) بالعصرية أو كون الشيء عصرياً . إلا أن المعجم يضيف على معنى كلمة (Modernism) بأنها حركة الفكر الكاثوليكي لتأويل تعاليم الكنيسة على ضوء المفاهيم العلمية والفلسفية السائدة فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وكذلك بأنها نزعة لاهوئية تحررية «البروتستنتية» ، وأيضا بأنها نزعة في الفن الحديث تهدف إلى قطع الصلة بالماضي (۱).

إلا أن الدكتور محمد مصطفى هدارة يترجم كلمة (Modernity) بالمعاصرة في مقالة له نشرتها مجلة الحرس الوطني (۱) ، وبالعصرية في محاضرة له عن «الحداثة والتراث». ويعتبر أن هذه الكلمة تعني إحداث تغيير وتجديد في المفاهيم السائدة والمتراكمة عبر الأجيال نتيجة تغيير اجتهاعي أو فكري أحدثه اختلاف الزمن . أما كلمة (Modernism) فيترجمها «بالحداثة» ويقول إنها مذهب أدبي ، بل نظرية فكرية لاتستهدف الحركة الإبداعية وحدها ، بل تدعو إلى التمرد على الواقع بكل جوانبه السياسية والاجتهاعية والاقتصادية .

ولكن محمد برادة يعكس الترجمة ويختلف في المفهوم، حين عبر عن ذلك في مقالته التي نشرتها مجلة «فصول» والتي خصصت عددين كاملين للحداثة، حيث يقول: (... تأخر ظهور «الحداثة» (La Modernite) إلى منتصف القرن التاسع عشر، مع أن العصرية La) Modernisme بدأت مهداتها في أوروبا منذ القرن السادس عشر، (٣)

أما الدكتور كمال أبو ديب فيختلف عن ذلك حين يقول في مقالته في مجلة فصول: « ولقد اقترحت في عمل سابق ترجمة المصطلح (Modernism) بـ «الحداثية» ولأن Modernism

⁽۱) قاموس (Wedbster) (ص: ۷۶۳). قاموس المورد (ص: ۵۸۹). طبعة ۱۹۸۵م.

 ⁽۲) مجلة الحرس الوطني العدد (۸٦). السنة (۱۰) ربيع الآخر ۱٤۱۰هـ، نوفمبر ۱۹۸۹م. (ص:
 ۱۰۳).

د. محمد مصطفى هدارة. دراسات في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق. طبعة ١٩٨٩م الدار
 الأندلسية للأونست. (ص: ٦٢).

⁽٣) مجلة فصول المجلد (٤). العدد (٣) سنة ١٩٨٤م، (ص: ١٢).

حركة مميزة، بل مذهب أو مدرسة . . . أما (Modernity) فإني سأستخدمها استخداماً عاماً بوصفها إشارة إلى سهات حضارية معينة . ويبدو لي أن «الحداثة» هي المصطلح الأقرب إلى تحديد مفهومها» (١)

ويمتد الاختلاف الى «فردوس عبد الحميد البهنساوي» وهي تتحدث عن كلمة -Mod ومشتقاتها في مقالة لها عن عناصر الحداثة في الرواية المصرية حيث تقول: «تكرار استخدام أحد مشتقاتها وهو Modernism للدلالة على حب الجديد ونزعة التحديث والنزعة العصرية، ثم استعملت مصطلحاً نقدياً دالاً على هذا المذهب. . . . أما كلمة Modrnity فهى تصف الزمن التالي لهذه الحقبة كها تصف حداثة الأدب وكونه عصرياً» (1)

ولو استطردنا في هذه القضية لطال بنا الحديث، لشدة الاختلاف في ترجمة هذين المصطلحين الغربيين. ولكننا نكتفي بأن نشير إلى كتاب . Nodernism. T. S. ولكننا نكتفي بأن نشير إلى كتاب . Modernism في دراسة نقدية المتخدم كلمة Modernism في دراسة نقدية الوت وللدلالة على ملامح هذا الأدب وخصائصه . بينها استخدم . The Origins of . بينها استخدم Origins of Modernity في كتابة Modernity حيث تحدث عن : The Origins of في كتابة Modern Social Theory from Kant to Hegel to Marx جذور النظرية الاجتماعية الحديثة من المصطلح المنافق المحدامه على الرؤية ذاتها من ناحية ، وبما يشير إلى طبيعة الاضطراب والغموض الذي يلف الحداثة كلها ، كها سنرى .

والكلمة في أصلها الأوربي مشتقة من كلمة Modern ولقد أخذت هذه الكلمة في أوروبا رواجاً تفاوت في الشدة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتفاوت بين بلد وبلد في أوروبا. فمن مقالات الناقد النرويجي «جورج براندر» سنة ١٨٨٣م تحت عنوان «رجال الاختراق الحديث» إلى المختارات الشعرية التي نشرت في ألمانيا سنة ١٨٨٥م تحت عنوان: « شخصيات شعرية محدثة» تدعو إلى تحطيم كل ماهو قديم وتقليدي، إلى مقالة

⁽١) المرجع السابق. (ص: ٣٦).

⁽٢) المرجع السابق. المجلد (٤). العدد (٤). (ص: ١٣).

«فرجينيا ولف» سنة ١٨٨٨م تحت عنوان: «أحدث التيارات الأدبية ومبدأ الحداثة».

ثم انطلقت لفظة الحداثة ومشتقاتها، وأقبل الناس عليها من خلال نزاع شديد حول مفهومها، حتى صدر كتاب ورحيل الحداثة، سنة ١٩٠٩م ولصاموثيل لبلنسكي، في برلين. ولكن امتدت الحداثة بعد ذلك على أنهاط مختلفة وحركات عدة، حتى كانت سنة ١٩٢٢م حين صدرت قصائد وروايات متعددة لشعراء وكتاب ارتبط اسمهم بالحداثة: قصيدة الأرض اليباب ولإليوت، ورواية يوليسيس ولجويس، وأناشيد ورلكة، ومسرحيات ومراث وغير ذلك، مما جعل الناقد وهاري لفين، يعتبر سنة ١٩٢٧ سنة المعجزات

وامتدت الحداثة بعد ذلك لتكتسب مع السنين معاني متعددة، ولتقوى في منطقة وتضعف في أخرى. ولكنها امتدت إلى العالم الاسلامي، واخذت تنمو وتقوى، وتسلل إلى الفكر والأدب والحياة الاجتهاعية والسياسية والاقتصادية. ومهها اختلفت مصطلحات الحداثة وترجمتها، فقد بقي لها معالم مشتركة في الفكر والسلوك والأخلاق والأدب.

٢ ـ اضطراب درالة المصطلح وامتحاده :

ولابد أن نوضح مع أول هذه الدراسة أن والحداثة اليست موضوعاً أدبياً فحسب، ولاهي تصور خاص بالنثر والشعر واللغة. ولكن الحداثة في جميع دلالاتها تمتد إلى معظم ميادين الحياة المادية في هذه الدنيا، تحمل معها الفكر والفلسفة والاجتماع والاقتصاد والسياسة والأدب(۱). ولذلك لا نستطيع أن نحدد موقف الأدب الإسلامي وحده من الحداثة، فلعله من الأصح أن نحدد موقف الإسلام منها. وإذا أخذنا الميدان الأدبي للحداثة نجد أنه يتعذر فصله عن التصور العام الذي تحمله الحداثة في الفكر والفلسفة وسائر الميادين، ولا نستطيع كذلك أن نفصل عطاءها الادبي أبداً عن جذور نشأتها وتكوينها. وبغير هذا الارتباط يضطرب التحديد والموقف والرأي. وقد نبتعد عن دقة العدالة في الحكم. وبصورة عامة فإن الحركات الأدبية في أوروبا ارتبطت بالفلسفة والفكر والاجتماع والسياسة والاقتصاد وسائر ميادين الحياة على تفاوت في شدة الارتباط. وفي جميع

⁽۱) مالكولم برادي، جيمس ماكفلرن وكتاب آخرون ـ والحداثة ١٨٩٠ ـ ١٩٣٠) ترجمة مؤيد حسن فوزي دار المأمون للترجمة والنشر ـ ١٩٨٧ ـ (ص: ٣٨،٣٤).

الحالات كان للأدب دائها جذوره الفكرية والفلسفية.

إن و الحداثة ، تمتد في دلالتها حتى لاتكاد تجد لها حدوداً. وهذا التصور ضروري حتى نحاول بلوغ نتيجة في تحديد موقف أو تقديم رأي (١) لانريد في هذه اللحظة ان نستعرض التعريفات المختلفة المتضاربة للحداثة، فهذا سينكشف بعضه من خلال الدراسة. ولكننا نحب أن نورد نهاذج من التعريفات التي تعين على أن نتبين ما يريده رجال الحداثة أنفسهم من امتداد الدلالة وحدوده. ويجب أن نوضح كذلك أن الحداثة لفظة عامة يندرج تحتها أسياء شتى ومصطلحات متعددة لحركات حداثية متنوعة ومذاهب متباينة، كالرمزية والتعبيرية والبنيوبة وغيرها. فعن البنيوية، ولعلها الصورة «الحداثية» للحداثة يقول الـدكتور كمال أبو ديب في كتابة وجدلية الخفاء والتجلي،: وليست البنيوية فلسفة لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود» ثم يقول: «ولأنها كذلك تصبح ثالث حركات ثلاث في تاريخ الفكر الحديث يستحيل بعدها أن نرى العالم ونعاينه كها كان الفكر السابق علينا يرى العالم ويعاينه. مع ماركس ومفهومي الجدلية والصراع الطبقي، بشكل خاص، أصبح محالاً أن نعاين المجتمع كما كان يعاينه الذين سبقوا ماركس. ومع الفن الحديث، وبعد أن رسم بيكاسو كراسيه _ كها يعبر روجية غارودي _ أصبح محالا أن نرى كرسياً كها كان يراه الـذين سبقـوا بيكـاسـو. ومع البنيوية ومفاهيم التزامن والثنائيات الضدية، والإصرار على أن العلاقات بين العلامات، لا العلامات نفسها، هي التي تعني، أصبح محالاً أن نعاين الوجود _ الانسان والثقافة والطبيعة _ كما كان يعاينه الذين سبقوا البنيوية». ثم يقول: «وبهذا التصور أيضاً، فإن طموح هذا الكتاب ثوري تأسيسي، وفي الآن نفسه رفضي نقضي» (٢) ارتباط واضح بالتصور المادي تشير إليه الثنائيات الضدية والعلاقات بين

⁽١) عوض بن محمد القرني ـ الحداثة في ميزان الإسلام ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م دار هجر ـ القاهرة ـ (ص: ٧٧ ـ ٥٠).

د. عدنان علي رضا النحوي _ الحداثة في منظور إيهاني _ الطبعة الثالثة _ ١٤١٠هـ ١٩٨٩م _ دار النحوي للنشر والتوزيع (ص: ١٢٩ ـ ١٣٣).

⁽٢) مجلة الفصول. المجلد (٤) العدد (٣) سنة ١٩٨٤م. (ص: ١٢).

الباب الأول الثاني

العلامات لا العلامات نفسها.

ثم ينقلنا كمال أبو ديب إلى عالم الغموض والحيرة والشك من خلال تعريفه للحداثة. فاسمعه يقول: والحداثة إذن هي وعي الزمن بوصفه حركة تغيير . . والحداثة اختراق لهذا السلام مع النفس ومع العالم، وطرح للأسئلة القلقة التي لاتطمع إلى الحصول على إجابات نهائية، بقدر مايفتنها قلق التساؤل وحمى البحث. الحداثة جرثومة الاكتناه الدائب القلق المتوتر. إنها حمى الانفتاح!»

لاننكر براعة اختيار الألفاظ واحتيال تأثيرها الغامض في بعض النفوس. ولكنها تعبيرات عائمة لاتجد معها غناء أبداً إلا الطنين! وهي تعبيرات تكشف عن نفسية قائلها وعن فكره: فتنة، قلق، حمى، توتر. . . الخ، ثم جرثومة. ولعل أدق كلمتين قالها هنا كهال أبوديب عن الحداثة هما : «يفتنها» «جرثومة». نعم إنها فتنة للنفوس التي أظلمت بالشرك، وإنها جرثومة حقاً، وحمى مرضية حقاً. اعتراف من كهال أبو ديب حتى نقطع به المراء والجدل.

ويقول وكهال أبو ديب، أيضاً: والحداثة انقطاع معرفي ذلك أن مصادرها المعرفية لاتكمن في المصادر المعرفية للتراث، في كتب ابن خلدون الأربعة، أو في اللغة المؤسساتية، والفكر الديني، وكون الله مركز الوجود، وكون السلطة السياسية مدار النشاط الفني، وكون الفن محاكاة للعالم الخارجي. الحداثة انقطاع، لأن مصادرها المعرفية هي اللغة البكر، والفكر العلماني، وكون الإنسان مركز الوجود، وكون الشعب الخاضع للسلطة مدار النشاط الفني، وكون الداخل مصدر المعرفة اليقينية إذا كان ثمة معرفة يقينية، وكون الفن خلقاً لواقع جديد. . (١) وهذا كلام كهال أبو ديب المنشور في مجلة الفصول وليس استنتاجاً من أحد.

وعلى خطورة هذا الكلام وشدة ضلاله وبعده عن الحق، فإننا نسرع هنا لننقضه برده إلى منهاج الله الذي هو ميزاننا الذي نزن به الفكر والناس. فإذا كانت الحداثة انقطاعاً معرفياً، ففي الإسلام اتصال معرفي، اتصال الأزمان والأجيال، واتصال الشعوب،

⁽١) المرجع السابق. (ص: ٣٧).

واتصال الأرحام، واتصال أمة الإسلام أمة واحدة مدى الدهر.

ومصادر المعرفة في نظر الإسلام تبتدئ حين علّم الله سبحانه وتعالى آدم الاسماء كلها، وحين أخذ من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم: ﴿ ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ (١) ثم تمتد المعرفة في حياة الإنسان بالوحي المتنزل على الانبياء والمرسلين الذين ختموا بمحمد على ، فأنزل الله عليه القرآن مهيمناً على ماقبله من الكتب المنزلة. وهذا العلم الحق ظل يرعى جهد الإنسان المؤمن وهو يضرب في الأفاق في الحياة الدنيا، يتدبر آيات الله وسننه علماً نامياً وجهداً متطوراً، في افاق الكون وفي نفسه ، وفي حياة الإنسان والمجتمعات ، ومسيرة البشرية خلال أزمان غابرة طويلة بعيدة في قلب التاريخ ، وحاضر تموج فيه الآيات البينات ، ومستقبل يسعى إليه جهاداً في سبيل الله . فالله سبحانه وتعالى ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ ، الوجود أو ليس مركز الوجود ، إنه سبحانه وتعالى ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ ، خلق كل شيء قدير ﴾ ، له الأسماء الحسنى كلها ، ﴿ وله الحمد في الأولى والآخرة ﴾ ، ﴿ وهو العلى العظيم ﴾ .

الفاظ طنانة يسوقها كمال أبو ديب، لا يعرف هو معناها، ولاهي تحمل أي معنى محدد: اللغة البكر! الإنسان مركز الوجود، الشعب مدار النشاط الفني، وغير ذلك. ماذا تعني هذه الكلمات؟! لقد نسى كمال أبو ديب عهده مع الله، عهده الذى أشهده الله عليه ألست بربكم قالوا بلى شهدنا . . ﴾ لقد نسى عهده وشهادته وأصبح من الغافلين كما سماهم الله: ﴿ أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . . ﴾ والفكر العلماني ما هو؟ إلا أن يكون فكر الضياع والظلمات، فكر الحمّى والقلق، إلا أن يكون جرثومة تفتك بالبشرية حين تضل عن الحق! .

وتقول خالدة سعيد: . . . «غير أن الحداثة أكثر من التجديد» ثم تقول: «ترتبط الحداثة بصورة عامة بالانزياح المتسارع في المعارف وأنهاط العلاقات والإنتاج على نحو

⁽١) الاعراف: ١٧٢.

يستتبع صراعاً مع المعتقدات، أي المعارف القديمة التي تحولت بفعل ثباتها إلى معتقدات» ثم تقول عن جبران مؤيدة له: «يجعل جبران الإنسان مصدراً للمعايير بدلاً من أن يكون خاضعاً لمعايير من الخارج. . . . كان (جبران) يستعيد للإنسان صلاحية وضع المعايير وكسر الشرائع وكشف الحقائق» (٢)

ويورد محمد برادة في مقالته «اعتبارات نظرية لتحديد مفهوم الحداثة» نصاً عن «جان بودريار»: «ليست الحداثة مفهوماً سوسيولوجياً أو سياسياً أو تاريخياً يحصر المعني وإنها هي صيغة نميزة للحضارة تعارض صيغة التقيد»(٣) ويورد فيها كذلك التمييز - كها فعل «هنري لوفيفر» بين العصرية (Modernism) والحداثة (Modernite) فالعصرية هي الوعي الذي تكونه عن نفسها العصور والحقب والأجيال المتتالية . . » بينها الحداثة : «تفكير بادىء وتخطيط أولي . . . إن الحداثة تختلف عن العصرية مثلها يختلف تفكير ما عن الوقائع» (٤) ونلاحظ هنا تعارض ترجمة المصطلح مع غيره واختلاف المفهوم أيضا.

هذه تعريفات سريعة ولكنها تبين لنا امتداد الحداثة والعصرية. وتبين كذلك اضطراب الدلالة والمفهوم. ففي قول هي نظرة جديدة للكون كله من إنسان وثقافة وطبيعة، تنسف البرؤية السابقة للكون كلها. وفي قول آخر هي اكثر من التجديد، هي صراع مع المعتقدات، وهي كسر للشرائع، وهي إعطاء الإنسان، لا سواه الحق في وضع المعايير. وفي قول آخر هي صيغة للحضارة، هي وعي للزمن، هي محاولة للمعرفة. ولولا ضيق المجال لأوردنا نهاذج أخرى من التعريفات تكشف لنا اتساع الامتداد والتناقض والاضطراب. ولكن عسى أن يكون في هذا القدر وضوح وبيان لما نهدف إليه هنا.

⁽١) د. كمال أبو ديب ـ جدلية الخفاء والتجلي ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٤م ـ دار العلم للملايين بيروت ـ (ص: ٧ ـ ٨).

⁽٢) مجلة الفصول. مجلد (٤). عدد (٣). سنة ١٩٨٤م. (ص: ٢٥، ٣٦).

⁽٣) المصدر السابق. (ص: ١٢).

⁽٤) المصدر السابق: (ص: ١٣).

يتساءل Anthony Giddens في كتابه The Consequences of Modernity (نتائج الحداثة) فيقول: ماهي الحداثة Modernity ثم يضيف: «لعلنا نستطيع أن ندرك محتواها حين نقول إن الحداثة تشير إلى صيغ وأشكال اجتهاعية أو تنظيهات ومؤسسات، برزت في أوروبا بحدود القرن السابع عشر وامتدت بعده، حتى أصبحت منتشرة عالمياً في تأثيرها. إن هذا التعريف يربط الحداثة بزمن ومكان ولكن يحتفظ بخصائصها مخزونة في صندوقها الأسود»(١)

إن هذا التعريف يربط الجداثة (Modernity) بالمجتمع ومؤسساته. ولكنه يعطي معالم لمظاهر الانقطاع التي تفصل المؤسسات الاجتهاعية الحديثة عن النظم الإجتهاعية القديمة. ثم يبين «جيدينز» في كتابة المذكور ثلاث معالم لحركة الحداثة: الخطوة الفاصلة للتغيير في معالم عربين «جيدينز» في كتابة المذكور ثلاث معالم لحركة الحداثة: الخطوة الفاصلة للتغيير «جدينز وسرعتها، مدى التغيير، الطبيعة الذاتية الجوهرية للمؤسسات الحديثة (۱ ويشير «جدينز Giddens Post Capitalism و Post Modernism و Post Industrial Society مع كلمات كثيرة مشل: Post Capitalism و Post Modernism و التعييرة مشل: الخرات التعييرة المؤسسات القرن العشرين. إن هذه التحولات والتناقضات تقوم أو كانك على أبواب عهد جديد في القرن العشرين. إن هذه التحولات والتناقضات تقوم أو ليونارد كان الفلسفة وعلم المعرفة والعرفة وهوده هي رؤية «جان فرانسوا ليونارد ليونارد الحداثة إلى «ماركس» و«دوركهايم» و«وييب»، كما يفعل «جون في رندل المامة الحداثة إلى «ماركس» و«دوركهايم» و«ويبر»، كما يفعل «جون في رندل المامة والمسترى بعد قليل. أما «هنري سوسهان «لاداثة كما يراها وهمجيل» و«ماركس»، كما سنرى بعد قليل. أما «هنري سوسهان Henry Sussman » في كتابه والمسور البعدية للحداثة» فإنه يورد تعريف الحداثة كما يراها كتابه Paul de Man المور البعدية للحداثة» فإنه يورد تعريف الحداثة كما يراها ويريرك نيتشه Paul de Man الصور البعدية للحداثة» فإنه يورد تعريف الحداثة كما يراها فريدريك نيتشه Paul de Man وحوث يقول: «إن

⁽۱) ص: Anthony Giddens- The Concequences of Modernity. Stanford University Press- Stanford- California-1990

Anthony Giddens-The Concequences of Modernity. Stanford University Press-California 1990 7 (*Y)

الحداثة اليوم توجد على صورة رغبة في مسح كل شيء وصل من الماضي، على أمل أن تجد في النهاية لحظة تعتبرها الحاضر الحقيقي أو نقطة الأصل، لتنطلق منها من جديد. . . "(1) فالحداثة، في جميع الحالات إذن مسح وإلغاء للماضي كله، لكل شيء فيه ووصل منه ولندرك أهمية هذا التصور وخطورته نورد تعريفاً آخر للدكتور «كمال أبو ديب» يزيد الصورة في أذهاننا وضوحاً، ويبين لنا ارتباط الحداثة في بلادنا بالحداثة الأوربية، وبجذورها. يقول كمال أبو ديب: «الحداثة انقطاع معرفي ذلك أن مصادرها المعرفية لاتكمن في المصادر المعرفية للتراث، في كتب ابن خلدون الأربعة، أو في اللغة المؤسساتيه، والفكر الديني وكون الله مركز الوجود، وكون السلطة السياسية مدار النشاط الفني، وكون الفن محاكاة للعالم الخارجي. الحداثة انقطاع لأن مصادرها المعرفية هي اللغة البكر والفكر العلماني (اللاديني)، و كون الإنسان مركز الوجود، وكون الشعب الخاضع للسلطة مدار النشاط الفني وكون الذاخل مصدر المعرفة البقينية ـ إذا كان ثمة معرفة يقينية، وكون الفن خلقاً لواقع جديد. . . "(1)

إذن «الحداثة» هي مسح للماضي كله في جرأة تجاوزت جرأة الكتاب الأوروبيين. وهي الغاء للفكر الديني والتراث والمؤسسات الإيمانية، وأعلان لما يسميه خطأ «بالعلمانية» وهكذا تأخذ ملامح الحداثة تتضح شيئاً فشيئاً. وهنا يبرز الخلاف الرئيس الذي سنشير إليه في فصل مقبل حول مصادر المعرفة للإنسان.

ويتحدث صالح جواد طعمة في مقالته: «الشاعر العربي المعاصر ومفهومه النظري للحداثة» في مجلة الفصول عن مفهوم الحداثة، ثم يعدد خصائصها بالنقاط التالية: «الرؤية أي النظرة للعالم والحياة، التأكيد على الذات حيث تجسد الحداثة الداخل، والزمن الأفقي اللامعاد، أو الأفقي والعمودي، على وجهتي نظر واحدة «لكالنسكو» والأخرى لجبرا، والغموض ويقول: «إن الحداثة الغربية في جوهرها تعكس معارضة جدلية ثلاثية الأبعاد:

Henry Sussman - Afterimages of Modernity - Structure and Indifference in Twenticth Century Litrature

(١)
The Johns Hopkins University press – 1990 (۲٦:)

⁽٢) مجلة الفصول. المجلد (٤) العدد (٣). (ص: ٣٧).

معارضة للتراث ، معارضة للثقافة البرجوازية بمبادئها العقلانية والنفعية ، وتصورها لفكرة التقدم ، ومعارضتها لذاتها كتقليد أو شكل من أشكال السلطة أو الهيمنة . اي أنها لاتمثل انفصالاً عن الماضي ورفضاً لمقاييسه الثابتة أو ثورة على القيم البورجوازية السائدة فحسب ، بل ثورة دائمة أبدية في تطلعها المستمر إلى قيم جديدة ، واشكال أو أساليب تعبيرية جديدة . ومعضلتها تتجسد كما يقول «هاو» في أن عليها أن تكافح دائها دون أن تنتصر ، إذ أن انتصارها معناه أن تفقد سمة الحداثة . . . » (١)

إذن هنالك صفات مجمع عليها بين حداثي الغرب وحداثي بلادنا، أو أن حداثي العالم العربي كانوا ناقلين جيدين لحداثة الغرب بجذورها وفروعها.

انفصال عن الماضي، محاربة للتراث كله، لادينية واضحة، غموض، قلق، وشك وحيرة. فاسمع كهال أبوديب يؤكد هذه الصورة وهو يخترق السلام ويلعن الحرب: «الحداثة إذن وعي الزمن بصفته حركة تغيير. . . .! والحداثة اختراق لهذا السلام مع النفس مع النفس العالم، وطرح للاسئلة القلقة التي لاتطمح الى الحصول على إجابات نهائية ، بقدر مايفتنها قلق التساؤل وهمى البحث. الحداثة جرثومة الاكتناه الدائب القلق المتوتر. إنها حمى الانفتاح» . (٢)

هنا صورة جديدة مع طنين الألفاظ وغياب المحتوى وضباب الغموض: الحداثة فتنة، جرثومة، حمى، قلق، تساؤل. . . . ! إن طنين الألفاظ وضباب الغموض قد يؤثر في بعض النفوس حتى تحسب أنها حصلت على شيء. ثم تكتشف أنها تعبيرات عائمة لاغناء فيها، إلا أنها واضحة وصريحة في حربها على الماضى والتراث كله، وصريحة في امتداد دلالتها .

أما «مالكولم برادبري» في كتاب «الحداثة» فيرى: «أن الحداثة في الثهانينات من القرن التاسع عشر تعنى الإيهان الراسخ بالتطور الاجتهاعي... والتنكر للتقاليذ الماضية....»(٣)

⁽١) مجلة الفصول. المجلد (٤) العدد (٤). (ص: ١٤).

⁽٢) المصدر السابق. العدد (٣). (ص: ٣٥).

⁽٣) مالكوم برادبري وزملاؤه _ الحداثة _ (ص: ٤٢).

وسنرى في الفصل المقبل، ونحن نعرض جذور الحداثة، مدى الاختلاف في دلالة اللفظة عند «جون. إف. رندل» وهو يعود بها إلى «كانت» و«هيجل» و«ماركس» في كتابة Origin of Modernity الذي سبق أن ذكرناه قبل صفحات. وسنرى من خلال ذلك شدة الانحراف عن التصور الإيماني.

أما في ميدان الأدب فإن ولويس ميناند Louis Menand في كتابه الذي ذكرناه قبل قليل واكتشاف الحداثة معنى جديداً وقيماً كاول أن يعطي للحداثة معنى جديداً وقيماً جديدة. إنه يقول: ويمكن أن نفهم الحداثة من بعض الوجوه بأنها محاولة استخدام المصطلحات التي تعرف الأدب وتختص به لنعممها على الأساليب المتغيرة المتحولة التي تستخدم في وزن القيم الاجتهاعية وفي تحديد قيمة الأعمال المختلفة، دون أن نفقد بهذا العمل ماتمتع به الأدب كساحة تقليدية للنشاط»(١)

لقد احتاط «ميناند» حين قال: «من بعض الوجوه». ذلك لأن وجهة نظره لاتصح من وجوه أخرى، وهو يحاول أن يربط الأدب بسائر أنشطة الإنسان من خلال استخدام «التعبيرات الأدبية أو المعجم الأدبي Vocabulary أما أن لانفقد ماتمتع به الأدب في ميدانه التقليدى، فقد حالت دون ذلك الحركات الحداثية كلها من خلال ثورتها على القديم كله والتراث كله، كما سنعرض بعد قليل.

ويقول «ميناند» كذلك : «لقد اعتاد بعض الناس أن يتناول الحداثة على أساس نظرية شكلانية Formalist يمكن تفسير ملامحها الرئيسة على انها ردود فعل للحياة العصرية أكثر عا هي انعكاس لها» (٢)

ومع أن ميناند لايوافق كثيراً على هذا الرأي، إلا أن الحركة الشكلانية حركة حقيقية عثل إحدى حركات الحداثة، وأما أنها ردود فعل، فقد كانت كل حركة من حركات الحداثة التي سنذكرها بعد قليل تمثل حقيقة رد فعل للحركة السابقة، دون أن يعني رد الفعل أن الماضى لايترك أثراً في الحاضر، ولايكون سبباً للكثير من مظاهره. فالأجيال والعصور

⁽۱) کتاب Discovering Modernism (ص: ۷).

⁽٢) المرجع السابق. (ص: ٨).

متواصلة على سنن ربانية لايمكن عزل بعضها عن بعض، ولكن ردود الفعل كذلك هي أحد مظاهر هذه السنن.

وحين حاول «ميناند» أن يكوِّن رأياً عن الحداثة، لم ينصف في دراسته حين حصرها أو جعل محورها «إليوت» معطلاً بذلك حجماً كبيراً من إنتاج الحداثة قبل إليوت وبعده. وردود الفعل التي يحاول ميناند إنكارها لاتظهر من خلال دراسة فرد واحد وفترة محدودة.

ويشير «ميناند» إلى ماشاع من سخريات لاذعة حول الحداثة، فيقول: «من خلال انتشار الأفكار الجديدة والمبادىء المتلاحقة مع الفترة الأولى للحداثة كانت تظهر بعض السخريات اللاذعة عن الحداثة وثقافتها، كأن يقال إن الحداثي يخترع لنفسه تقاليد خاصة تبعده عن مجتمعه وتقاليده التي كانت بدورها قد اخترعت لنفس السبب قبل عشر أو عشرين من السنين» (١)

وحتى نستكمل الصورة عن اضطراب معنى الحداثة وتناقضها وغموضها نرى أن نورد بعض التعريفات الأخرى لعدد من الكتاب والمفكرين والحداثيين. يقول «هربرت ريد» في كتابة «الفنّ الأن»: «إننا نلمس الآن ابتعاداً عن كل أنواع التراث. ولايمكن أن ندعو هذا الاتجاه بالتطور المنطقي لفن الرسم في أوروبا، لأنه ليس هناك مايوازيه تاريخياً. لقد وجدنا أنفسنا فجأة نكفر بجهود خسة قرون من الإبداع الفني » (١).

ويقول «فلوبير»: «كل ما أريد أن أفعله هو أن أنتج كتابًا جميلًا حول لا شيء، وغير مترابط إلا مع نفسه وليس مع عوالم خارجية» (٣)

نلاحظ هنا مدى التعارض بين هذا التصور للفن أو الأدب وبين التصور الذي عرضناه «لميناند» قبل قليل. فهنا تأكيد للانفصال عن الماضي وعن التراث. ولكن «جوس أورتيكا كاسيت» يكشف لنا عن الصورة المظلمة لهذا الانفصال ولتلك الحرب. فيقول في كتابه «النزعة اللاإنسانية في الفن»: «إن الحداثة هدم تقدمي لكل القيم الإنسانية التي كانت

ه (١) المرجع السابق. (ص: ١٣٢).

⁽٢) كتاب الحداثة لمالكولم برادبري وجيمس ماكفلرن. (ص: ٢٠).

⁽٣) المرجع السابق. (ص: ٢٥).

سائدة في الأدب الرومانسي والطبيعي . وإنها لاتعيد صياغة الشكل فقط بل تأخذ الفن إلى ظلمات الفوضى واليأس. . (١) كلمات لاتحتاج إلى أي تعليق .

ويُعـرف رولان بارت (١٩١٥م ـ ١٩٨١م) الحـداثـة «بأنها انفجار معرفي لم يتوصل الإنسان المعاصر إلى السيطرة عليه».

وقائل يقول عن الحداثة إنها فن التحديث. وآخر يقول إنها فن الابتعاد الصارم عن المجتمع. وآخر يقول «إنها فن اللافن، كما يقول التعبيريون، الفن الذي يحطم الأطر التقليدية، ويتبنى رغبات الإنسان الفوضوية التي لايجدها حد» (١).

وسنذكر في الفصل المقبل كيف أن أفكار «كانت» تمثل انفلات الأهواء والشهوات فجاء هنا التعريف للتعبيرين يؤكد هذه الصورة. ويزداد التأكيد بقولهم: «الفوضوية التي لا يحدها حد» لتذكرنا بقوله سبحانه وتعالى:

﴿ أَرَهَ يَتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ هِهُ وَهُوَىٰ هُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﷺ (الفرقان: ٤٣) وقوله سبحانه وتعالى:

﴿ أَفَرَهَ يْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَهَ مُومَنهُ وَأَصَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَى عِلْمِ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ ، وَقَلْبِهِ ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ ، عِشَنَوةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ۞ ﴾ (الجانية : ٢٣)

«وكوتغريد بن» يسمي الحداثة «تكافو الضّديَّن. فهي تحمل مساراً مزدوجا لأنواع كثيرة من التناقض». ويقول آخر «بأنها شغف بالمجهول يؤدي إلى تحطيم الواقع».

صور متتالية تؤكد معنى الغموض والتناقض والتضارب. ومهها حاولنا أن نخفف نحن من أثر هذا التصور، كها حاول «لويس ميناند» فإن رجال الحداثة يصروُّن على تعميق هذا التصور والمعنى، الغموض والتناقض والاضطراب.

المرجع السابق: (ص: ٣٦) ومحاضرة الدكتور محمد مصطفى هدارة في مؤسسة الملك فيصل الخيرية «الحداثة والتراث».

⁽٢) يراجع كتاب والحداثة في منظور إيهاني، للمؤلف.

الباب الإول الثاني

ولقد رأينا جرأة من خالدة سعيد وهي تعلن رأيها بهذا الوضوح والحسم، لتعلن هي الصراع مع المعتقدات والمعارف القديمة، ولتعلن هي نفسها صلاحية وضع المعايير وكسر الشرائع. وخالدة سعيد هي زوجة «أدونيس» وكذلك كان سائر أبناء الحداثة ودعاتها.

الأدب قوة ضاربة حقيقية. يمكن أن تتحول إلى قوة نارية تهاجم كل قديم. ونهج بعض الحداثيين هذا النهج لينطلقوا من الأدب، ثم يهاجموا كل ماكان يعتبر تقليدياً، يهاجمون المعتقدات والمؤسسات ويهاجمون اللغة والدين، ليهدموه، منطلقين من كوابيس المخدرات والجنس في الشعر والرواية والسلوك الواقعي، ثم ينطلق أدب «اللامعقول» و«اللاتخطيط»، و«اللارواية»، و«اللاشعر» و«اللافن»، لينقل الإنسان إلى عالم مجهول مظلم، إلى عالم الشر. ألم ينطلق «بودلير» من أحضان «سارة» الزنجية ومن مرتع المخدرات والخمور لينفث شعره الشيطاني في ديوانه أزهار الشر؟! ألم يكن هو وجماعته في أول ظهورهم يسمون «بالمنحطين»؟! ذلك لشدة انحطاط الفكر والصورة والسلوك كها ظهرت يومها في فرنسا.

وتورد «هدى وصفي» في كلمتها: «حداثة الميلودراما» في مجلة الفصول تعريفاً أوردته الموسوعة العالمية الفرنسية تحت عنوان « الحداثة في العالم الثالث» ، فتقول، «إن الحداثة جدلية انفصال تتراجع امام دينامية دمج» وفي مكان آخر منها نقرأ: «إن الحداثة إجراء إيدلوجي موسع» أو أنها ـ أي الحداثة ـ «متناقضة وليست جدلية . .»

حيرة في التعريف، والفهم، وضباب كثيف يحجب الرؤية ويمد الظلام.

هذا الاختلاف الواسع في تعريف الحداثة عند رجالها في العالم الغربي وفي عالمنا العربي يوضح لنا طرفاً من خصائص الحداثة لتكون أساساً يساعد في تقويمها. ويمكن ان نوجز أهم الخصائص التي تكشفت لنا بالعرض السابق بها يلي:

١- الاضطراب والتناقض في المصطلح وترجمته وفي تعريف الحداثة ذاتها.

 ٢- الغموض في الألفاظ والمعاني، واستخدام الألفاظ الطنانة التي لاتحمل معها شيئاً حين نتدبرها، والضبابية، والحيرة والقلق والحمى.

٣ـ الانقطاع عن الماضي والتراث ومحاربته.

عاربة التصور الإيهاني وقواعد التوحيد.

أو صراع مع المعتقدات القديمة كلها والمعارف كلها.

٦ كسر الشرائع .

هذه الخصائص ليست اتهاماً نفتريه على الحداثة، ولكنها نصوص ثابتة تبناها رجال الحداثة كها رأينا، وكها سنرى في الفصول المقبلة.

فإذا كان هذا هو امتداد مصطلح الحداثة، وهذه بعض دلالاتها، فمن أين نشأت هذه المفاهيم، وكيف تولدت ونمت؟! إنها لم تكن حركة مفاجئة، ولكنها جاءت نتيجة لحركات سابقة وأوضاع متلاحقة، كل حركة تمهد للحركة التالية لها، على سنن لله ماضية وقدر غالب. جاءت هذه الخصائص بها كسبت أيدي الناس، من جذور تاريخية ممتدة في حياة الإنسان، وفي تاريخ أوروبا بالذات. فلابد إذن أن نتتبع هذه الجذور، لندرك حقيقة هذه التصورات وعلاقتها بالإنسان، حتى نستطيع أن نحدد موقفاً أمينا للأدب الإسلامي منها، وحتى نستطيع تقويمها.



الفصل الثالث



جذور الحداثة في تاريخ الإنسان

متى بدأت الحداثة؟ اختلف في ذلك. فمنهم من اعتبر بدايتها في القرن السادس عشر، ومنهم من اعتبرها في القرن التاسع عشر على أقوال مختلفة، ومنهم من رأى أنها ابتدأت مع القرن العشرين. وكان من أسباب هذا الاختلاف اختلاف المفهوم للحداثة والعصرية ومايقصد منها. ولكننا نعتبر أن هذه الفترات لاتمثل إلا «الحداثة» الحديثة، ونعتقد أن الحداثة ببعض مفهوماتها التي سبقت الإشارة إليها قديمة في تاريخ الإنسان.

فَ «جون . إف. رندل John F. Rundell » في كتابه عن الحداثة:

Origins of Modernity, the origins of modern social theory from kant to hegel to " يعيد جذور الحداثة إلى هؤلاء الثلاثة «كانت» و «هيجل» و «ماركس». إنه يقول : «ليست الحداثة (Modernity) مجرد وجود تاريخي أو شيء يوفر الستارة الخلفية للمسرح لتاريخ الأفكار. ولكنها تأسيس للعلاقات الاجتهاعية من خلال رأيين أو معنين»(۱) ثم يبين «رندل» هذين الرأيين، بأن أحدهما مرتبط بالمؤسسات والنهاذج التي يقيمها الاجتهاعيون، والثاني مرتبط بسلسلة تبين كيف بنيت هذه النهاذج. ويبين أن هذه النهاذج تتطور من خلال الإصلاحات المميزة لحركة التنوير الفلسفية، على أساس العقلانية والحرية. ويورد رأي «إمانيويل كانت» (١٧٧٤م - ١٨٠٤م) حول جذور هذا التصور: «التنوير هو تحرر

John Frundell – Origins Of Modernity, The Origins of Modern Social Theory From
 Kant To Hegel To marx – Polity press – Cambridge – 1989 (۲ ، ۱ : رص)

الإنسان من الوصاية القائمة بداخله. إن هذه الوصايا تعني عجز الإنسان عن الاستفادة من قدرته على الإدراك والفهم دون توجيه من غيره. والإنسان لم ترشده الغريزة ولم تغذه المعلومات الجاهزة. وإنها عليه هو أن يوفر كل شيء: مأواه وطعامه ودفاعه ومايلهو به وما يجعل الحياة ممتعة له، وعليه أن يؤمن هو نفسه البصيرة والذكاء، وأخيراً طيبة القلب». (١) انحراف واضح عن التصور الإيهاني والتوحيد، دفع إلى ظلمة شديدة سموها «عصر التنوير» ظلماً وجهلاً.

ويقول «رندل»: «يمكن أن نفهم الحداثة Modernity على أنها عملية تجميع وتفاضل اجتهاعي وثقافي، تدفعها سلسلة من الأحداث، وسلسلة من حركاتها ومنطقتها. وتشمل هذه الأحداث والحركات حركة التصنيع، وحركة استقلال الفن، وحركة التحول الديمقراطي، في ظل التحول الرأسهالي والمنازعات والمداولات الدائرة حول سيادة المجتمع على الدولة وسيادة الأشخاص واستقلالهم». (١) ثم يقول «وهذا الفهم للحداثة يرتبط بالقضية الأوسع، قضية فلسفة علم الإنسان وأصله - «الأنثر وبولوجي - Anthropology» ومع امتداد الاتجاه العقلاني والثقافي الواسع، امتداداً ضم النهضة وعهد الإصلاح وعهد التنوير، فقد أخذت فلسفة علم الإنسان تعاد صياغتها لتدل على العلاقة الحديثة بين الإنسان، أو «الموضوع الإنساني»، وبين عالمه الخاص به، ليصبح هذا «الموضوع الإنساني» وبين عالمه الخاص به، ليصبح هذا «الموضوع الإنساني» الرؤية السابقة تربط هذا «الموضوع الإنساني عن مصادر خارجية عنه وعن علاقات معها، بينها كانت الرؤية السابقة تربط هذا «الموضوع الإنساني كله النظريتين لم تكن تهتدي بنور الإيهان ورسالة الكوني كله». (٣) ومن هنا نرى كيف أن كلا النظريتين لم تكن تهتدي بنور الإيهان ورسالة التوحيد.

وهكذا يعود «رندل» بجذور الحداثة إلى عهد التنوير، وإلى عهد الإصلاح قبله وعهد النهضة قبل ذلك. لقد كان محور تفكير «كانت» و«هيجل» و«ماركس» يدور حول «الحرية»

⁽١) المرجع السابق.(ص: ١٦).

Origins Of Modernity (۲: س) (۲)

⁽٣) المرجع السابق. (ص:٣).

الباب الأول الغالث

و «العقلانية» حسب مفهوم كل منهم لهما. لقد أقام «كانت» عالمين للعقل: العقل المطلق «كانت» Practical reason» واعتمدت فلسفة «كانت» التصور الذي يرى أن معرفة الحقيقة تتم بالفكر لا بالتجربة، أي على أساس «الفلسفة الفكرية المتعالية «Transcenderntalism» بينها اعتمد هيجل علم الوجود «Ontology».

واعتبر «هيجل» ان العقل المطلق هو الإله، تعالى الله عها يقولون علواً كبيراً، والعقل المجرد هو نهاية الطبيعة المحدودة وغايتها. أما ماركس فقد عارض كلاً من الفلسفتين من ناحية، واستفاد منها من ناحية أخرى، واعتمد علم الإنسان «Anthropology» ليصوغ فكره صياغة تقوم على العمل وصراع الطبقات، والإنتاج الاجتماعي ورأس المال، وليضع نظرياته «الحداثية» في النقد، وليجعل الإنسان هو الإله الجديد في فكره ونهجه. (١)

وتابع «رندل» فلسفة كل من هؤلاء الثلاثة ليرسم مسيرة تطور الحداثة ونموها من جذورها هناك. ومن خلال هذه المسيرة حتى عصر «هيجل» ظل النشاط «العقلاني» يوجه البحث عن حقيقة التصور له من خلال نظريتين أو فلسفتين: أولا: «الذاتية» وللبحث عن حقيقة التصور له من خلال نظريتين أو فلسفتين: أولا: «الموضوعية المنابع vity» وهي إقامة المعتقدات على أساس الخبرة الذاتية، وثانياً: «الموضوعية والأدبي. وهي اعتهاد الموضوعية لا الخبرة الذاتية في البحث عن الحقيقة، وفي العمل الفني والأدبي. وطرحت «العلوم الإنسانية Anthropology» على أنها تجسيد حقيقي للعقل «reason» وفشاطه. وأخذ هذا البحث عن حقيقة العالم بذلك مسارين: مساراً يمضي به إلى القرن العشرين ويجعل اللغة مركزاً لهذه العلوم، ومساراً يعود به إلى جذوره القديمة في الوثنية اليونانية وأساطيرها، مع بقاء دور اللغة فيه أيضا. (") وفي جميع هذه الحالات كانت النظرة بعيدة عن التصور الإياني والتوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى. ولكنها كانت تربط المسارين السابقين لتجعل الجذور ممتدة في التاريخ. ومن السهل أن نلمس امتداد أثر

⁽۱) المرجع السابق. (ص: ۹، ۱۰)، (ص: ۱۹۷ ـ ۱۸۹) محمد قطب ـ مذاهب فكرية معاصرة الطبعة الأولى ۱٤٠٣هـ/ ۱۹۸۳م. ـ دار الشروق ـ القاهرة وبيروت (ص: ۹۳ ـ ۱۱۸).

^{. (}A: ص) Origins Of Modernity (۲)

الفكر اليوناني ووثنيته وأدبه على مسار الفكر الأوروبي والغربي عامة. فالمذهب الاسمى Nominalism نستطيع أن نتتبع جذوره وامتداده ابتداء من الفيلسوف اليوناني «أنستنتينس» (\$ \$ \$ ق . م - ٣٦٨ ق . م) . ثمَّ امتدَّ بعد ذلك إلى القرون الوسطى عند ، «روسيلينوس فون كومبين» (١٠٥٠م -١١٢٠م)، وعند الانجليزي أوكام (١٢٧٠م - ١٣٤٧م) بعد ذلك، حتى جاء «إمانيويل كانت» (١٧٢٤م ـ ١٨٠٤م) في عصر «التنوير»، فأبرز هذا المعنى حتى امتدت آثاره إلى يومنا هذا. ومحور المذهب الاسمى يقوم على الثورة على الدين المتوارث، واعتبار العبارات والأسماء العامة لاتحمل مدلولاتها الواقعية خلافا للأسماء الدالة على الأفراد والأعلام الشخصية، واعتهاد التجربة الحسية والنفسية وليس مايسمي بها وراء الطبيعة. وكان المذهب الاسمى عمداً للمذهب «التجريبي Empericism » بجذوره إلى اليوناني «بروتاجوراس» (٤٨٠ ق.م- ٤١٥ ق.م)، ليمتد بعد ذلك إلى القرن السابع عشر عند الفرنسي «بيتر بيلي Pietre Bayle » (۱۷۷۹م ـ ۱۷۰۹م) حتى ينهض به «أوجست كومت August Comte » (١٧٩٨م - ١٨٥٧م) مؤسس الفلسفة الوضعية Positivity التي استخلصها من المذهب التجريبي . (١) ثم يمتد هذا المذهب إلى «لودفيج فيورباخ Ludweg Feuerbach » (١٨٧٢م - ١٨٧٢م)، الذي انتقل بفلسفته إلى أشد الصور إلجاداً، انتقل من فكرة الألوهية، إلى العقل، إلى الإنسان. وهذا التصور الأخير، ولهو اعتبار الإنسان مركز الوجود، هو التصور الذي رددته الحداثة في واقعنا المعاصر على للبان عدد غير قليل من دعاتها، كما مر معنا في الصفحات السابقة، عند كمال أبو ديب وغيره. إنه قاعدة التصور المسمى خطأ اليوم «العلماني» وتسميته الأصح «اللاديني -Sec ulatism » وعلى هذا التصور الممتد، حسب مايذكر التاريخ، منذ أيام اليونان على الأقل حتى «لودفيج فيورباخ»، قام فكر «كارل ماركس» ومعه «فردريك انجلز» ليضعا النظرية المادية الجدلية والتاريخية. وحتى هذه الفكرة التي هبط بها «ماركس» و«انجلز» إلى

⁽۱) المدكتور محمد البهي ـ الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ـ الطبعة التاسعة الدكتور محمد البهي ـ الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ـ الطبعة التاسعة الدكتور محمد البهي ـ الفكر الفربي ـ الطبعة التاسعة المدار مكتبة وهبة . (ص: ٣٢-٣٥٠).

الحضيضُ نجدها في جذورها عند اليونانيين: «ديمقريط» و«أبيقور» حيث يقولان «إن هذا العالم لم يخلقه أحد (١)

إن متابعة جذور الفكر الحداثي عند اليونانيين ينقله لنا اكثر من مصدر. يقول «جيمس ماكفلين» في كلمته «عقل الحداثة» «إذا كانت الصفة الغالبة للحداثة هي المزج وعدم التمييز بين الرفض والقبول، الحياة الموت، الرجل والمرأة، الإرهاب والسعادة، الإله والشيطان عندئذ لم تأت الحداثة بها هو جديد إلا قليلاً. إنّ فكرة التوفيق بين الأضداد قديمة قدم «هيروقليدس». يذكر «هوسر» أن فكرة التوفيق بين الأضداد جاءتنا من فلسفة «نيقولا القوصي»، ومن «جيوردانوبرنو». وقد ذكر هذا المفهوم بطرق مختلفة...» (٢)

هذا الخط الفكري الفلسفي على الصورة التي عرضناها، نلمسه كذلك عند عدد غير قليل من الفلاسفة الأوربين، يعرضونة بصور مختلفة، كلها تلتقي عند نقطة واحدة هي التصور الذي اصطلح عليه بالتصور المادي. وإنا لنجده واضحاً عند عدد من الفلاسفة الفرنسيين مثل: «لاميتري» و«غولباخ» و«ديدرو». ثم جاء «لودفيج فيورباخ» ثم «ماركس». لقد كان هذا التصور المادي في التاريخ يمثل انحرافا عن الإيهان تعبر عنه المادية ونظرياتها. ولكن هذا الانحراف لم يكن هو الانحراف الوحيد عن الإيهان. فالنظرة «المثالية» كذلك تمثل انحرافاً عن الإيهان وخطاً آخر في النهج الفلسفي. لقد قامت هاتان الفلسفتان وكذلك سائر الفلسفات البشرية من خلال محاولة فهم هذا العالم كله بالجهد البشري وحده، كها رأينا فيها ساق لنا «كانت» من فلسفة يعبر بها عن عصر التنوير. وانتهت الفلسفات في خلافها وانحرافها عن الإيهان إلى الفلسفتين المادية والمثالية فأما المادية فتعتبر كل الظواهر التي نعالجها والوجود كله وجوداً خارجاً عن وعينا، منفصلا عنه، كله مادة،

⁽۱) ف. كيللى، م. كوفالزون ـ ترجمة أحمد داود ـ دار الجهاهير الشعبية ـ دمشق. (ص: ۲۳ ـ ۲۷) وكتاب المادية الجدلية (الدياليكتييكية) لعدد من الكتاب السوفيات ـ (ص: ۳). ومحمد قطب _ مذاهب فكرية معاصرة (ص: ۲۰ ـ ۲۸) (ص: ۹۹۵ ـ ۹۹۹).

⁽٣) مالكولم برادبري وجيمس ماكفرلن وتسعة أساتذة آخرين ـ الحداثة ١٨٩٠ ـ ١٩٣٠ ـ ترجمة مؤيد حسن فوزي ـ الطبعة ١٩٨٧ داو المأمون . (ص: ٨٦) .

لم يخلقه أحد. والطبيعة موجودة أزليا ولا وجود لقوى خارقة للطبيعة خارج هذا العالم المادي. وهي تعتبر الوجود المادي هو الأسبق والأول، ثم تلا ذلك الوعي والعقل والفكرة. فلمادة في هذه الفلسفة هي التي تحدد الفكر والوعي والعقل. وهذا الفكر والوعي والعقل هو الذي تسميه هذه الفلسفة «بالروح» . (١).

وأما الفلسفة المثالية فترى ان «الروح» أي «العقل والفكر والوعي»، هي الأسبق في الوجود، وأنها وجدت قبل الطبيعة. (٢) وفي كلا الفلسفتين اشتراك في فهم خاطىء للروح، وشتراك في فرضية ابتدعوها من عند أنفسهم لم يقم عليها برهان. فاضطربت الفلسفتان، وتناقضت كل واحدة منها. وظهر خلاف آخر بين الفلسفتين هو مصدر المعرفة. فالمادية تعتبر المادة وحدها هي مصدر المعرفة. والمثالية يعتبر بعض فلاسفتها أن مصدر المعرفة هو العالم الآخر المثالي، فعلى الإنسان أن يتذكر ماكانت عليه روحه في عالم المثل. وجذور هذا التصور هي الوثنية اليونانية، وربها قبل ذلك كها سنرى. أما هيجل فقد اعتبر أن المعرفة هي معرفة الفكر المطلقة، ليمثل صورة من الفكر المثالي. (٣)

والفلسفة المثالية قسمان: المثالية الذاتية والمثالية الموضوعية.

فالفلسفة المثالية الداتية تعترف بأولبوية البوعي الإنساني، وتعتبر الأشياء نتاجاً للإحساسات والأفكار. والفلسفة المثالية الموضوعية تعترف بأولوية الروح والفكرة الموجودين خارج الإنسان ومستقلين عنه. والموضوعيون، إذ يعترفون بوجود قوانين للعالم، يبحثون عن مصدر هذه القوانين في «العقل الشامل» وفي «الفكرة المطلقة»، و«الإرادة المطلقة».

والمعرفة لذى الفلسفة المادية مصدرها المادة فحسب. فالعالم عندهم موجود وجوداً موضوعياً مستقلاً عن الوعي، والناس جزء من الطبيعة يعكسونها في وعيهم. ومن هنا ينشأ الاعتراف بإمكانية معرفة العالم ونظامه عندهم.

أما الفلسفة المثالية فإن بعض فلاسفتها يعتبرون أن مصدر المعرفة هو «العالم الآخر

⁽١) المادية الجدلية: (ص: ١ - ٣) المادية التاريخية. (ص: ٢٥).

⁽٢) المادية الجدلية: (ص: ٣-٤).

⁽٣) المرجع السابق: (ص: ٦-٧).

المثالي» فعلى الإنسان أن يتذكر ما إذا كانت «روحه الخالدة» قد لاحظته في «عالم المثل». ومن هذا التذكر تنشأ «المعرفة المطلقة» لذاتها، تلك الفكرة التي تخلق العالم وتتعرف على ذاتها في شخص الإنسان. والفلسفة المثالية ترفض أن تعتبر العالم الموضوعي مصدر المعرفة.

وإلى جانب هاتين النظرتين إلى المعرفة ظهر فلاسفة يشكون في إمكانية معرفة العالم، أو يحاولون البرهان على عدم إمكانية معرفة العالم، ويسمون «الريبين»(١) أو المتشككين. ومذهبهم مذهب الشك

وواضح أن هذه الفلسفات التي استعرضناها مجانبة للإيهان والتوحيد، بعيدة عن تصور الألوهية الحقة والربوبية الحقة، وعبودية الإنسان لربه وخالقه الله الواحد الذي لاإله إلا هو. ولذلك فهي بعيدة عن تصور النبوة، والدار الآخرة والموت، والملائكة والجنة والنار، والساعة والبعث والحساب. أهملت هذه الفلسفات كل هذا الحق، فتاهت في مذاهبها تتخبط في ظلام دامس.

من هذه الفلسفات والرؤية للعالم ظهرت الحداثة في تاريخ الإنسان، منطلقة في أول أمرها من محاولة البحث عن الجديد، ثم تحولت لتضم معظم ميادين النشاط الفكري، ولتأخذ الصورة التي عرضناها قبل قليل من رؤية جديدة للحياة والثقافة والإنسان: «ليست البنيوية فلسفة لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود»... «ولكن كهال أبو ديب ناقض نفسه في هذا القول حين أنكر أن البنيوية فلسفة، فالفلسفة على مدار التاريخ البشري تدور الرؤية للعالم والمنهج في معاينة الوجود.

هذه هي جذور الحداثة في الفكر الإنساني كها يراها عدد من الفلاسفة، وكها تتبعناها في الصفحات السابقة. ولكننا نرى أن هذه الحركة الحداثية بخصائصها التي عرضنا بعضاً منها، هي أعمق في تاريخ الإنسان من هذا الذي عرضناه أو الذي عرضه «رندل» في كتابه «جذور الحداثة» وغيره. ليس هدفنا الرد على الفلسفة المادية والمثالية ولاعلى نظرتها الخاطئة للعالم وللروح، والحرية والمعرفة وغير ذلك، فهذا كله ليس مجاله هنا، ولكننا نحب أن نعرض التحليل الإيهاني لجذور هذا التصور للعالم والروح، التصور الذي واكبته «الحداثة»

⁽١) المادية الجدلية. (ص: ٩-١٠).

الباب اللول الغمل الثالث

في تاريخ الإنسان، ليمثل هذا التحليل الإيهاني منطلق الأدب الإسلامي، كها مثل التصور السابق منطلق الأدب الحداثي، فإذا كان نهج الحداثة، حسب ادعاء رجالها، لا يخرج عن البحث عن الجديد، والنصو والتطور في الجهد البشري، والنظرة الى هذا العالم، مهها المتحث عن الجديد، والنصو والتطور في الجهد البحث والتأمل والتفكير هو فطرة في الإنسان فطره الله عليه الله عليه الله عليه الله عليه الله عليه هذه الفطرة الله عليه القوى المودعة ومختلف النوازع والرغبات والشهوات والضوابط. وأهم هذه القوى والضوابط في فطرة الانسان هي الإيهان والتوحيد. وطاقة الإيهان والتوحيد ترعى فطرة الإنسان وتحفظ فيها التوزان بين القوى المختلفة والرغبات والنوازع. وكل رغبة أو شهوة مودعة في الإنسان أوجدها الله لتؤدي مهمة في الحياة الدنيا، مهمة خير وصلاح مادامت تعمل في دائرة الموازنة المتوافرة في الفطرة. فإذا اختلت هذه الموازنة، وضعف الإيهان والتوحيد، اضطربت الفطرة وانحرفت الرغبة والشهوة إلى متاهة من التفلت والضياع، لتصبح مصدر فتنة وفساد في الأرض، وليفسد الفكر والتصور، وليفسد الأدب والعطاء كله. هذه الحقيقة المطلقة الأولى التي يعرضها لنا الإسلام لتكون أساس فهمنا وتقويمنا لعطاء الإنسان وفكره وأدبه. وهي القاعدة الأولى كذلك لنهجنا في الدراسة والتحليل.

والقاعدة الثانية الهامة هي أن الناس كلهم، البشرية كلها، كانت في مرحلة من التاريخ، على دين واحد هو الإسلام، على الإيهان والتوحيد، ليرعى هذا الإيهان والتوحيد عطاء الناس وفكرهم وتصورهم للعالم والكون والحياة، وليضبط الرغبات والشهوات والنوازع، ولينطلق البحث عن الجديد والنمو والتطور من منطلق واحد هو منطلق الإيهان والتوحيد. ولحكمة أرادها الله في سننه الماضية في الكون، انحرف بعض الناس عن الإيهان والتوحيد بها كسبت أيديهم، فأصبح في الأرض فريقان: المؤمنون والكافرون والمشركون. فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. منذ تلك اللحظة في تاريخ الإنسان أصبح هناك نهجان للبحث عن الجديد والنمو والتطور ورؤية العالم والكون والحياة: نهج منطلق من الإيهان يرعى الجديد والحديث والتطور والنمو، ونهج متفلت من الإيهان ينطلق منه سعي

الباب الله ل

آخر للجديد والنمو والتطور. هذه هي الحقيقة المطلقة الثانية التي يعرضها منهاج الله قرآنا وسنة. وكان نوح عليه السلام هو أول الرسل إلى الناس في تلك اللحظة من تاريخ الإنسان .

لانضع «الحداثة» حداثة اليوم هنا أو هناك. وإنها هي تضع نفسها حيث تشاء. هذان نهجان متهايزان بينهما لنا الله ورسوله، وبين خصائص كل نهج، بآيات بينات وأحاديث شريفة، وهذا هو ميزاننا الوحيد الذي نزن الأمور كلها به، كها أمرنا الله ورسوله، فليس لنا، ولا للمؤمنين في الأرض كلها، ولا للأدب الإسلامي ميزان آخر.

كان لابد من بيان هاتين الحقيقتين المطلقتين من كتاب الله وسنة رسوله: الفطرة وقواها ونوازعها، ودور الإيهان والتوحيد فيها في دفع عطاء الإنسان كله، أدباً أو سياسة أو اجتهاعاً أو اقتصاداً، والنهجان المتهايزان في تصور الحياة والكون والإنسان، وفي النمو والتطور، وفي السعي وراء الجديد. كان لابد من بيان هاتين الحقيقتين حتى يعتدل الميزان بأيدينا ونحن نحدد موقف الأدب الإسلامي من الجداثة.

وستكون هاتان الحقيقتان المطلقتان الثابتتان في دين الله، الإسلام، هما الأساس في صياغة النظرية الإسلامية للأدب ومفهومه ونهجه وأهدافه، وللجهال ونظريته وملامحه، كها سنرى في فصل مقبل. وهما الأساس في تكوين النظرة للكون والحياة والإنسان، وفي النظرة للنمو والتطور، والبحث عن الجديد.

البحث عن الجديد، السعي لنمو الجهد البشري وتطور عطائه، أمر في فطرة الإنسان، ولولا هذه الرغبة المغروسة في الفطرة مااستطاع الإنسان أن يجدد في عطائة على مر العصور. ولما انتقل من الكهوف إلى العمائر، ولما صنع السيارات والطائرات وسائر وسائل الاتصال. إنها رغبة ملحة مغروسة في فطرة الإنسان نحترمها ونرعاها.

ليس الخلاف في ذلك. ولكن الخلاف هو في نهج التحديث والنمو والتطور الذي يدفعه الإنسان منطلقاً من رغبته هذه. فكأن الحداثة تريد الجديد لمجرد الجديد، تريد التغيير لمجرد التغيير، لايوجد هدف إنساني واضح محدد، ولاحافز نبيل تتبناه. إنها تدعو إلى قطع الصلة بالماضي لتناقض نفسها فتعود إلى الماضي، أو إلى أسوا مافي الماضي، دون أن تبين

سبباً لقطع الصلة أو للعودة. في جميع الحالات يكون الأمر رغبة تعلنها لايرافقها حجة. ومن أين تأتي بالحجة إذا لم يكن لديها شيء ثابت فكل شيء في وهمها متغير، إنها تمثل روح النظرية المادية في هذه القضية.

أما الإسلام، وهو يؤمن بنمو الجهد البشري وضرورته ويرعاه، فإنه يوجهه كذلك، بحيث يوفر له أربعة أشياء رئيسة: النية، الحوافز، النهج، الأهداف. وهذه كلها نابعة من الإيهان والتوحيد. ويظل النمو والتطور يقوم على ثوابت راسخة.

والقاعدة الأولى للنمو والتطور هو ثبات السنن الربانية في الكون، السنن التي لايستطيع الإنسان بغير ثباتها تحقيق أي نمو أو تطور أو تجديد.

والقاعدة الثانية هي أمر الله لعباده بالتفكر والتدبر، ليكون هذا التفكر والتأمل عبادة لله . وكيف يحدث نمو وتجديد إذا تعطل التفكير؟! وكيف يصدق التفكير إذا انقطع عن معينه؟!

والقاعدة الثالثة هو أمر الله لعباده بالسعي المنهجي الدائب في الحياة والكون. وبغير هذا الجهد المنهجي المؤمن لايتحقق تطور أبداً. وكذلك الأمر بالعلم والدعوة إليه.

وترسم قواعد الإيهان والتوحيد كلها نهج النمو وحوافزه وأهدافه: المداومة على العمل، الإحسان والإتقان، الرفق والأناة، التعاون، الموازنة، الإشراف والمراقبة، ومحاسبة النفس، المبادرة الذاتية، النصح والتقويم والشورى، معالجة الأخطاء ورد الأمور إلى منهاج الله. هذه كلها قواعد إيهانية تدفع النمو والتطور وترعاه وتوجهه وتوفر حوافزه.

وقاعدة أخرى تدفع النمو والتطور في الجهد البشري على النهج الإيهاني، هي ممارسة العمل وتطبيقه ممارسة إيهانية من خلال المراقبة والإشراف.

ثم يأتي تعارف الشعوب وتعاونها على البر والتقوى، واتصال الأجيال وترابطها، والأرحام وصلتها. هذه الروابط والصلات والتعاون تدفع الجهد البشري في آفاق النمو والتطور والتجديد على أكرم حوافز ونهج وأهداف، كها سنفصل ذلك في الفصول المقبلة.

إن جوهر ذلك كله يكون حين يعي الإنسان حقيقته في الحياة، ومهمته ورسالته، حتى يمضى وقد توافر له من ذلك كل الحوافز، ورسم له إيهانه نهجه وحدد له أهدافه.

الباب الله ل

من هذا التصور ينطلق الأدب الإسلامي، ساعياً إلى النمو والتطور، حاملاً كل الحوافز والنهج والأهداف من إيهانه. فلايقع النمو والتجديد منه إلا وهو يحقق معنى من معاني العبادة والاستخلاف. إن التجديد حسب التصور الإيهاني لايكون لمجرد التجديد ولانزوة هوى ولاانفلات مهووس. هناك دائها قواعد ثابتة لاتتحول أبداً، وهنالك حوافز دافعة وأهداف جلية ونهج نظيف. لايتم التجديد والتطور إلا لتحقيق هدف واضح جلي. هكذا يمضي الأدب الإسلامي، فيحفظ بذلك ثروته التي جمعتها القرون، والخير الذي بناه الإنسان المؤمن، لتتصل الجهود على مرّ العصور، وليتحقق معنى العبادة لله رب العالمين. فبغير حوافز إيهانية ونهج رباني وأهداف صادقة جلية لا يوجد نمو ولا تطور ولا تجديد، إنها يوجد متاهة وظلام.

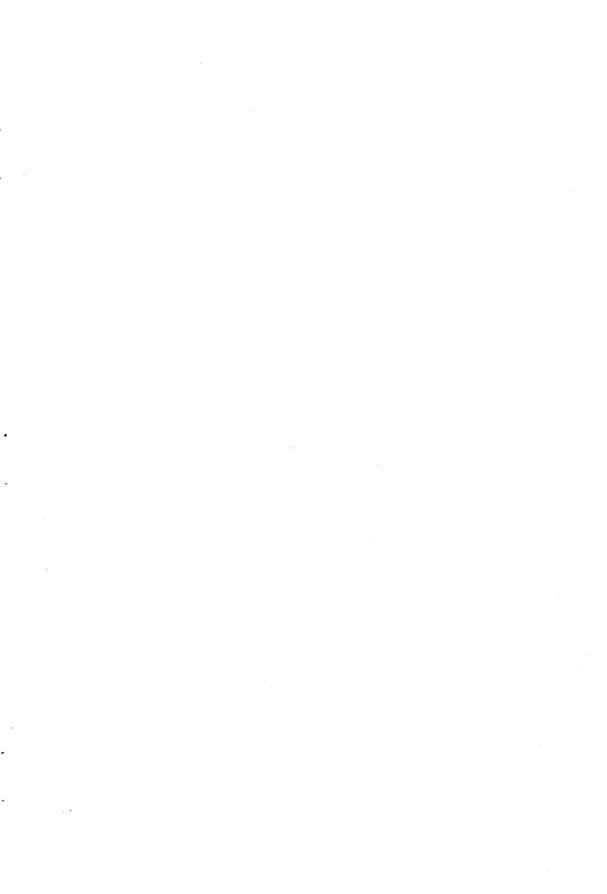
لقد اضطربت هذه المعاني في واقع المسلمين اليوم، وغاب منها الكثير بين مظاهر الجهل وغلبة الأهواء وانطلاق العصبيات الجاهلية، مما فتح منافذ للأعداء ليدلفوا منها بأفكارهم وأجسامهم وآلاتهم. فأصبحت العروبة منسلخة عن الإسلام شعار بعضهم. والوطنية بكل صورها الوثنية غاية الولاء ومنتهى الحب والادعاء. فوقف من هذا الموج المضطرب المتناقض ماعطل طاقات كثيرة في الأمة، وأغلق أبواب النمو والتطور. فاستغل الأعداء هذه الظاهرة ليشيعوا أن الدين عقبة أمام التطور، والإسلام من هذه الإشاعات براء، يجاهد وسيظل يجاهد، ليوفر لأبنائه المؤمنين، وللإنسان عامة طريق النمو والتطور على صلاح وخير، وعلى عدالة وأمن.

لقد أصبح كلّ يتغنى بأرضه غناء اللهفة والعصبية، فاضطربت البلاد كلها، لقد أصبح من يرى الأصالة في العروبة وحدها، أو في بقعة الأرض وحدها، بعيدة عن نور الإيهان والنظرة الإنسانية التي يعلنها الإسلام والروابط الإيهانية التي يقررها منهاج الله.

وأصبح الباب مفتوحاً للحداثة أن تدخل

فدخلت الحداثة وجعلت من قضية النمو والتطور والتجديد إحدى القضايا الأساسية في انحرافها عن نهج الأدب الإسلامي، أدب الإيهان والتوحيد.







الفصل الأول



ولادة الحداثة ونشأتها

لو أردنا أن نتبع جذور الحداثة وأفكارها لوجدناها كلها أو معظمها في تاريخ اليونان والرومان، وماقدًم هذا التاريخ من فكر وخرافة وأساطير سموها أدباً، نبتت كلها في أحضان الوثنية، وامتد أثرها في واقع أوروبا الفكري والأدبي، حتى اعتبرتها أوروبا المثل الأعلى الذي يحتذى، كها بينا ذلك في الفصول السابقة. وحين كانت تخرج أوروبا عن ذلك النموذج في شيء، فإنها كانت تحافظ على الروح الوثنية. حتى الدين المسيحي الذي رعاه الامبراطور «قسطنطين» ليبلغ بمساعدة رجال الدين إلى سُدَّة الحكم في روما، حتى هذا الدين تأثر بذلك. والمسيحية أتت في أصلها إلى خراف بني إسرائيل الضالة، حيث كان يرسل كل نبي إلى قومه خاصة. فها استطاعت المسيحية ان تقدم حلولاً لمشكلات أوروبا. وزادت الظلمة في أوروبا حين انقطع النور عنها وحين توقف المد الإسلامي على أبواب فرنسا من الشرق وعلى أبواب «فيينا» من الغرب، لحكمة يعلمها الله. وربها فرح النصارى في أوروبا بنصر عسكري على المسلمين، ولو علموا الحقيقة وأدركوا عظمة الخير الذي في أوروبا بنصر عسكري على المسلمين، ولو علموا الحقيقة وأدركوا عظمة الخير الذي والفلسفة والأدب، والعلوم والأحداث، في ظلمة تغشاها ظلمة! ثم أخذت هذه الظلمة عتم والنور ينحسر، حتى بلغت الظلمة بعض الأقطار العربية، وامتدت إلى شعابها، ودار صراع فيها بين النور والظلمة!.

ولكن متى بدأت الحداثة وأين؟! فإذا كنا نعني «الحداثة» بخصائصها فقط دون أن

⁽١) يراجع كتاب «الحداثة في منظور إيهاني» للمؤلف.

الباب الثاني الغصل الإول

تحمل هذا الاسم، فإننا نعتبر بدايتها مع بداية الانحراف عن الإيهان حين بعث الله نوحاً أول رسول الى الناس، كما سبق أن أوضحنا ذلك في فصول سابقة. ثم اخذت هذه الخصائص المنحرفة عن الإيهان تظهر في تاريخ الإنسان على فترات مختلفة. فظهور الأفكار المادية والمثالية في تاريخ اليونان والرومان مثل على ذلك. ثم أخذت هذه الخصائص تشتد وتضعف حتى كانت «الحداثة» الحديثة، أو العصرية، التي ظهرت في العصر الحديث لتحمل الاسم: Modernity, Modernism وترجمته إلى العربية «الحداثة» أو «الحداثية» أو «المعاصرة».

ولكن متى بدأت هذه «الحداثة» الحديثة؟! وأين بدأت؟! اختلفوا في ذلك فمنهم من يعتبر بدايتها من باريس مع سنة ١٨٣٠م. ويرى بعضهم أنها بدأت في السبعينات من القرن التاسع عشر. ورأى آخرون أنها بدأت بعد سنة ١٨٨٠م. ويرى «كيرمود» أنها انطلقت مع السنوات العشر الأولى من القرن العشرين، وآخرون اعتبروا بدايتها بين انطلقت مع السنوات العشر الأولى من القرن العشرين، وآخرون اعتبروا بدايتها بين الطلقت مع السنوات العشر الأولى من القرن العشرين، وآخرون اعتبروا بدايتها بين

وظهر هذا الاختلاف على أساس الاختلاف في مفهوم الحداثة ذاتها، وماذا يقصد منها، ومن يمثلها. ولكننا نستطيع أن نوضع أرجع الاحتمالات:

أولا : أنها ظهرت خلال الفترة الواقعة بين نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين.

وثانياً: أنها انطلقت من أوروبا.

ولقد ساعد على ظهورها في أوروبا تاريخ ممتد شارك بمختلف عصوره وأحداثه في ولادة هذه الظاهرة. ونذكر اهم هذه العوامل بايجاز:

١- الأثر الممتد للفكر الوثني اليوناني والروماني.

٧- فشل المسيحية في تقديم التصور الإيهاني والتوحيد للمجتمع الأوروبي.

٣- التقدم العلمي السريع في مختلف ميادين العلوم التطبيقية.

٤- عزل الدين عن المجتمع إلا بمقدار ما يحتاج أصحاب المصالح إلى استغلاله وخاصة في العدوان على الشعوب الأخرى.

الباب الثاني الغصل الأول

هـ نمو العلوم الإنسانية في اتجاهات بعيدة عن الدين، فولدت كبراً وغروراً، ونصبت آلهة
 متعددة كالعقل والعلم.

٦- الثورة الصناعية في أوروبا وما ولدته من طبقة مستغلّة وطبقة مُستَغلّة، وامتداد العدوان والطلم في الأرض، تقوده الطبقات المستغلّة، المختفية وراء زخارف الديمقراطية أو مزاعم الدكتاتورية، ووراء زينة كاذبة من مبادىء مستحدثة ومذاهب جديدة، كلها تخدر الناس، وتبعد عنهم الحقائق.

٧- انتشار الفساد الخلقي والانحلال والتهتك، وانفلات الشهوات الجنسية انفلاتاً يقوده أصحاب المصالح والمطامع تحت شعارات خادعة مثل الحرية الفردية المتفلتة في نطاق محدود، ومساواة المرأة بالرجل مساواة تسهل الفتنة والفساد، ولاتحمي الحقوق والحرمات.

هكذا كانت أوروبا مع انطلاقة الثورة الصناعية.



مع الحداثة في ميادينها المختلفة (١)

امتدت «الحداثة» في أوروبا وغزت معظم أقطارها: فرنسا، انكلترا، ألمانيا، إيطاليا وغيرها من أقطار أوروبا. ثم امتدت الى الاتحاد السوفياتي. وانتقلت من اوروبا إلى أمريكا حيث وجدت التربة المناسبة لها والمناخ الملائم لنمو جراثيمها كلها، ثم لتعود تطلقها أمريكا فتنة وفساداً ودماراً في حياة البشرية كلها. ولايتورع هؤلاء عن أن يغلفوا ذلك كله باسم المسيحية والدين كلما وجدواً حاجة إلى ذلك.

ومن أهم معالم البيئة التي أخذت تنمو فيها «الحداثة» الانحلال الخلقي المدمر، وانفلات الشهوات الجنسية المخدِّرة، والمذاهب الفكرية التائهة المتناقضة، والنظم السياسية التي تنظم الصراع بين أصحاب المصالح والمطامع والاستغلال، والتي تحاول بأن توفر المسوغات لجرائمها والمخدِّرات لضحاياها، والإغراق في طلب الحياة المادية حتى لايبقى فُسحة لتدبر.

في هذا الجو ترعرعت «الحداثة» ونمتْ وقويت، ثم امتدَّت فروعها في واقع الإنسان. ولعله من المفيد أن نأخذ بعض الميادين فندرس معالم الحداثة فيها، حتى تتبين لنا الخصائص الممتدة، فيسهل عندئذ تقويمها.

ا ـ الحداثة في الفكر والعلوم الإنسانية:

لقد كان من أبرز المظاهر في الحياة الأوروبية في وسط هذا الظلام هو التطور العلمي التطبيقي، وتطور الصناعة، مما سنعرض له، وظهور الثورة الصناعية. وقد انعكس هذا كله على واقع أوروبا، حيث ظهرت طبقة العمال المستغلّة، وطبقة الرأسماليين المستغلّة،

⁽١) يراجع كتاب «الحداثة في منظور إيهاني» للمؤلف من أجل تفصيلات أوسع.

وانفلات الفردية انفلاتاً واسعاً، وحيث أنزلوا المرأة إلى ميدان العمل ودوي الالآت، لتلهب الجنس والفجور، ولتنشر معها المخدرات والخمور. في هذه الأجواء يُعزل الدين عن المجتمع لينزوي في داخل الكنائس، ولينقطع دوره ودور رجاله، إلا أن يكونوا دعاة حركات التنصير التي تبنتها الحكومات التي عزلت الدين عن مجتمعاتها، لتكون هذه الحركات ورجالها، وليكون الاستشراق ورجاله، طلائع زحوف العدوان والظلم، تمضي به حيوش أوروبا في قلب العالم الإسلامي، وعلى رأسها انكلترا التي لم تكن تغيب الشمس عن امبراطوريتها آنذاك.

لقد استطاع أصحاب المصالح وأرباب المصانع ورجال المال أن يصوغوا هذا كله في نظام أسموه «الديمقراطية» ليقدم للناس نظاماً إدارياً قوياً يحمي مصالح واضعيه من ناحية، ويُخَلِد الناس ببريق الإدارة الناجحة والنظام، وبلهيب الشهوة والجنس والمخدرات، من ناحية أخرى، ويشغلهم في الركض اللاهث وراء «لقمة العيش»، ثم يدفعهم قطيعاً يساق إلى مجازره، في أجواء العلمانية التي سادت والشرك الذي امتد.

في هذه الأجواء نبت الفكر الأوربي. فظهر وأوجست كونت، (١٧٩٨م - ١٨٥٧م) نافضاً يديه من الميتافيزيقيا، داعياً إلى الإيهان بوجود عالم وضعي يحل فيه العلم الوضعي على ماكان يسمى علم اللاهوت. فإذا كان عصر التنوير كها يسمونه، وهو القرن الثامن عشر، وهو في حقيقته عصر من عصور الظلمات، إذا كان ذلك العصر جعل العقل والمثالية إلها، فإن القرن التاسع عشر جعل العلم الوضعي هو الإله الجديد. وجعلوا الطبيعة والواقع كذلك إلها. ولكن أي واقع؟! وأي طبيعة؟! وأي عقل؟!

هنا تبرز الظاهرة الهامة في خصائص الفكر الأوربي، حين يأخذون جزئية محدودة في الحياة، من خلال علم محدود، وبيئة محدودة، وزمن محدود، ليجعلوا منها إلها وثنيا يعبدونه، أو حقاً مطلقاً يخضعون له إلى حين، ثم يكفرون به، ويستبدلون به إلها آخر جديداً. إن ماحدث في القرن التاسع عشر هو امتداد لما سبق أن ذكرناه عن القرن الثامن عشر، وعها ذكره «رندل» في كتابه: «جذور الحداثة».

وجاء «تين» ليعلن إخلاصه للأمور التجريدية حيث لايظهر الجمال عنده إلا بسيادة

البأب الثاني الفصل الثاني

العقل. وجاء «هربرت سبنسر» ليعلن في كتبه في علم الاجتماع وعلم النفس إيهانه بالتقدم على أساس العلم والعقل. وظهر «فرويد» و «إدلر» و «ينك» في دراساتهم في علم النفس، و«ماركس فيبر» و «إميل دوركهايم» في علم الاجتماع، وداروين ونظرياته في النشوء والارتقاء، ليقرر هؤلاء جميعهم مبدأ التقدم والتطور على أساس العلم والعقل فقط، ولينصبوا آلهة جديدة. هنا تظهر لنا أهمية عرضنا السابق للنهج الإيهاني في النمو والتطور، ولأسلوب «الحداثة» الذي نراه هنا كذلك جلياً.

ونادى «فيشته Fichte » (٢٧٦٧م - ١٨٦٤م) بسيادة العقل، ودعا إلى مبدأ النقيض ليمجد من خلاله العقل والحرية، امتداداً لوثنية «إمانيويل كانت» التي عرضناها سابقاً. ثم يأتي «هيجل» ليطور الفكر على نفس الأسس الوثنية، وليستخدم مبدأ النقيض، وليدعو إلى أن العقل المطلق هو الله، تعالى الله عها يقولون علواً كبيراً. ويأتي «لودفيج فيورباخ» فيؤكد «علم الواقع»، ويعتبر جوهر الواقع هو الطبيعة، ولتصبح عنده الطبيعة والواقع والحس هي الحقيقة، هي «المادية»، هي «علم الإنسان». فنصب «فيورباخ» الإنسان إلها جديداً، ليبلغ الكبر والغرور أقصى مداه. ثم يأتي «ماركس» ليدفع هذا الفكر كله إلى هوة سحيقة من الوثنية والشرك، ويأخذ «ماركس» عن «هيجل» مبدأ النقيض، ليصوغ به هو و «فريدريك إنجلز» المادية الجدلية والمادية التاريخية، وليحاربا بذلك النظام الرأسهالي، ويعلنا صراع الطبقات.

إن هذا التبادل والتناقض الذي تمثل أمام الناس خلال القرن التاسع عشر بخاصة، زاد من عمق الحيرة والشك، ومن ضباب الغموض، وولَّد صدمات نفسية، سنظل نرى أثارها في ردود الفعل العنيفة والحركات المتتالية السريعة.

وتـأخذ خصائص الحداثة مداها في الفكر الأوروبي حتى تُجلَى بشكل واضح محاربة للدين، ونقمة على الماضي، حيرة وشك، واضطراب وغموض.

لقد تعددت الآلهة كثيراً، يرفعون إلهاً وصنهاً ويُسقطون إلهاً وصنهاً، ولكن الله الذي لا إله إلا هو، هو الواحد القهار:

﴿ يَكْصَلْحِبِي ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابُ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَحِدُ ٱلْقَهَارُ ﴿

الباب الثاني الغصل الثاني

مَاتَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ عَ إِلَّا أَسْمَاءَ سَتَيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَا وَ كُم مَّا أَنزَلَ اللهُ مَا عَبُدُونَ مِن دُونِهِ عِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَتَيْتُمُ وَالْإِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِينُ الْقَيْمُ وَلَاكِنَّ إِمَا اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِينُ الْقَيْمُ وَلَاكِنَ إِمَا اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الللّهُ الللّهُ الللّلْمُ الللّهُ اللللّهُ اللللّهُ الللّهُ الللّهُ اللللللللّهُ الللّ

٦ ـ الحداثة والعلوم التطبيقيـة ،

لقد نمت العلوم التطبيقية في تاريخ الانسان نمواً طبيعياً هادئاً، أو هكذا كان يبدو. فها من عصر إلا كان فيه نمو وتطور ساهم فيه الإنسان على مدى قرون طويلة، وساهمت فيه الشعوب كلها. فنها الطب والهندسة والرياضيات والفيزياء وغيرها من العلوم التطبيقية.

إلا أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد نمواً مذهلاً في هذه العلوم، لم تشهده القرون السابقة، ولقد نمت هذه العلوم على مناهج أخذت تستقر قواعدها شيئاً فشيئاً، وأخذ الناس يُقبلون عليها كأنها حدث جديد في حياة الإنسان. وكان الإقبال شديداً بعد أن نفضوا أيديهم من الدين، حتى جعلوا من العقل إلها ومن العلم إلها. لم تكن هذه العلوم في حقيقة أمرها إلا مكتشفة لبعض سنن الله في هذا الكون المذهل باتساعه، وقد كشفت عن بعض آيات الله الممتدة في هذا الكون، على حكمة لله غالبة وابتلاء منه سبحانه وتعالى، ليميز الله بذلك الخبيث من الطيب، ولتقوم الحجة على الناس. ولكن أوروبا عميت أبصارها، فلم تر في ذلك آيات لله لتخشع وتنيب، ولكن أخذها الكبر والغرور، عميت أبصارها، فلم تر في ذلك آيات لله لتخشع وتنيب، ولكن أخذها الكبر والغرور، عمادت في غيها وفسادها، وانتشرت الخمور والمخدرات، ونزعت المرأة من بيت الزوجية والأمومة، وألقيت بين هدير الآلات ليتمتع بها المجرمون المفسدون تحت شعار «الحرية» والخداثة».

لقد ظنَّ بعض الناس في أواخر القرن التاسع عشر أن تقدُّم الإنسان في هذه العلوم قد بلغ نهايته، وأنه لم يعد هنالك من شيء جديد يكتشفه. وفي مطلع القرن العشرين دعا اتشارلز هـ. دويل»، مفوض مكتب براءات الاختراع في الولايات المتحدة، الرئيس ماكسينلي» إلى إلغاء مكتبه، مدعياً أن كل مايمكن اختراعه قد اخترع. ولكن منذ الإدلاء بهذا القول عام ١٨٩٩م، تم اعتماد أربعة ملايين براءة اختراع في أمريكا وحدها.

لقد كانت زحمة العلوم هائلة منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر، زحمة أذهلت الناس كها رأينا. وكاد يستقر في أذهان الناس والمفكرين تقديس العقل والعلم، لولا أن بدأ العلم نفسه ينقض بعض نظرياته ويُعدِّل بعضها، مما بدأ يُدخل الشك في نفوس رجال الفكر خاصة والناس عامة. فلقد بدأ «بونتير» حياته العلمية وهو يؤمن بوجوب التطبيق الواضح لمبادىء الارتقاء على علم الحياة والأدب على حدِّ سواء، ولكنه ارتد عن ذلك ليعلن عداءه لكل الموازين العلمية، وليرفع شعار «إفلاس العلم» ولينادي بإحلال «الحدس الصرف» عمل العلم(١)

ويقول «جورج سانتاييا»: «عندما كان شاباً كان يرى أن العلم له قوانين مطلقة لايطالها التغير. ولكن بعد وقت قصير رأى النظريات العلمية تمر بأطوار سريعة من التغير»(٢)

أمام هذه التغيرات ازدادت الريبة في الماضي، والحيرة أمام الحاضر، والقلق بالمستقبل. وبرزت التناقضات في واقع الناس، وفي بعض مما يتعلق بالماضي، في سبيل البحث عن جديد. وأصبحت هذه المظاهر صفات أساسية في «النهج الحداثي» البعيد عن النهج الإيهاني: الريبة والشك، القلق والحيرة، النقمة على الماضي ومحاولة تحطيم أطره ونظمه، ومحاولة الجمع بين المتناقضات.

نعم لقد أدًّت هذه العلوم التطبيقية خدمات مادية جُلَّى للإنسان لا مجال لسردها هنا. ويكفي أن نذكر مثلاً في الطب: القضاء على بعض الأمراض كالدَّرن والجدري، هبوط نسبة الوفيات في الأطفال. ففي الولايات المتحدة كانت نسبة الوفيات (١٦٢) بين كل (٠٠٠٠) مولود سنة ١٩٠٠م، وقد هبطت هذه النسبة ومازالت آخذة في الهبوط، ومن المحتمل أن تبلغ (١٤) حالة وفاة نسبة ١٩٩٩م، ومنذ (٢٥٠) سنة فحسب، لم تترك «آن» ملكة انكلترا ورثة بعد أن أنجبت ثلاثة عشر طفلاً ماتوا جميعاً قبل العاشرة.

ولكن هذه العلوم جميعها لم تستطع أن تحل مشكلات الإنسان في نفسه وعلاقاته. إن التكنولوجيا أو التقدم الفني يمكن أن يحل مشكلات الآلة ومايشبهها من مشكلات

⁽١) الحداثة. (ص: ٧٧).

⁽٢) كتاب «الحداثة». (ص: ٧٩).

الباب الثاني الغطل الثاني

الإنسان. أما المشكلات السياسية والاجتهاعية والنفسية والخُلُقية، والمشكلات التي يصنعها الإنسان بنفسه، سيظل يجابهها هو بنفسه، ولن يجد من الآلة والتكنولوجيا أكثر من عون محدود مهها عظمت الآلة ونَمَت .

فجابه الإنسان هذه المشكلات كلّها، وبحث عن حلولها في كل مالديه، فها وجد الحل الذي يطمئن إليه، وهو ينتقل من جديد إلى جديد في مذاهب تنقله من ظلام إلى ظلام، على غير نهج مستقرًّ أو سبيل مستقيم.

وأكشر من ذلك، فقد تطورت العلوم التطبيقية لتبين للإنسان زيادة اتساع المجهول أمامه. وزادت المشكلة صعوبة حين أصبحت هذه العلوم تقدم له سلاحاً يدمّر حياته ويهدد مستقبله. فإذا هبطت نسبة الوفيات بسبب تقدم الطب، فقد ارتفعت كثيراً بسبب الحروب. وإذا اختفت أمراض كالدرن والجدري، فقد ظهرت أمراض أخرى أحدثها، وليس آخرها، «الإيدز». وأصبحت القنابل والصواريخ اليوم مصدر هلع البشرية كلها. ذُّلك لأن العلوم انطلقت في مسار حداثي محض، بعيد عن الإيمان والتوحيد، فلم يَعُدُّ لهنالك ضابط على صناعة الأسلحة وشهوة الانتقام، ولا على استخدامها، إلا الهلع والفزع. وستبقى «هيروشيها ونكازاكي» مثلًا مرعباً لفقدان هذه السيطرة، ولانفلات النهج الحداثي في ميدان العلوم. وحسبنا أن نعلم أن القرن العشرين شهد مصرع (١٢٠) مليون شخص قتلًا في الحروب التي وقعت فيه، والتي بلغ عددها (١٣٠) حرباً، وهذا العدد يفوق عدد من قتلوا في كل الحروب قبل سنة (١٩٠٠م). وحسبنا أن نرى أنه عندما انتشر مرض «الإيدز» المرعب، لم تهتم الدول الكبرى في أن تعالج أسباب المرض أبداً، وإنها أصرت على بقاء الأسباب وهي في نفس الإنسان، وفي انفلات شهوته وهواه، واكتفت بمعالجة أعراض المرض وهي في جسده. وهذا فرق رئيسي بين نهج الإيهان والتوحيد الذي يعالج أسباب المشكلات والأمراض من جذورها، وبين أسلوب «الحداثة» المنحرف عن الإيمان، الذي يعالج الظواهر ويُنميُّ الشهوة والهوي.

إذا كان هذا هو تأثير الأسلوب الحداثي في العلوم التطبيقية في واقع الإنسان، وللعلوم التطبيقية قواعد مستقرة في البحث والدراسة تقريباً، وإذا كان الأسلوب الحداثي

الباب الثاني الغصل الثاني

وخصائصة دفعت الفكر والعلوم الإنسانية كما رأينا، فما هو دور الحداثة في ميدان الفنون والأدب، وماذا كان تجاويها مع ذلك الضغط الهائل في المجتمع؟!

٣ ـ الحداثة في الفنون والأدب:

لقد كانت الفنون متنفساً واسعاً لذلك الضغط الهائل. وكان الأدب باباً واسعاً للتعبير عن كل هذه المتناقضات. هنا في ساحة الأدب والفنون كانت ملامح الحداثة أوضح، لا لأن الحداثة مختصة بها، ولكن لأن الأدب والفنون أقرب للناس عامة، وأوسع انتشاراً.

أمام هذا الضغط الهائل من الحيرة والشك والتناقضات والإفلاس، وجد الإنسان الهروب أيسر السبل، الهروب إلى الرمز ليُخفي وراءه شعوره وفكره وكلمته وكذلك سلوكه. وخرج «بودلير» مع مالارميه وفاليري في فرنسا ليقودوا الحركة الرمزية في صورة انحطاطية كها سُمُّوا أول أمرهم، ومعهم الكاتب الامريكي «إدجار ألن بو». ولقد حملت الرمزية معها وقاحة التعبير واضطرابه على صورة تخلخل المعنى او تحطمه. وأصبح الرمز هو الصنم الجديد.

وتطورت الحركة الرمزية إلى بعد أعمق في الغموض، تطورت إلى الحركة الانطباعية التي تلجأ إلى إسلوب تعبر به عن الانطباع الموحد للمعنى في اللون أو الضوء. إنهم يعتقدون أن الاشياء ذاتها تتحطم وتزول، فليست في نظرهم هي المهمة، ولكنها تترك أثارها وانطباعها. نجد نهاذج من ذلك في قصيدة لـ وايلد: «سمفونية باللون الأصفر»، وفي المجموعة الشعرية ل«ماكس دوثندي» المسهاة «فوق البنفسجية». وهم يرون ضرورة إحياء قوة اللون كتجربة حضارية. وقد مثلت الحركة الانطباعية، والحركة الرمزية قبلها، بداية الهجوم على اللغة، وهي تحاول التخلص من جزئيات اللغة كالحروف. وأخذت الحركة الانطباعية اتجاهات عدة عند «مونيه» و«ريلكه»، و «هولز» وغيرهم (١)

وظهرت الحركة المستقبلية في إيطاليا مع بيانها الأول سنة ١٩٠٥م يعلنه «فيلنو توماسو مارينيتي»، لتوغل في الغموض والاضطراب بين الأدب والسياسة. أعلنوا أنهم سيبتكرون

⁽١) كتاب والحداثة، مالكم برادبري وجيمس ماكفرلن. (ص: ٢١١ ـ ٢٣٢).

الباب الثاني الغصل الثاني

والخيال اللاسلكي، الذي سيتمخض عن توليف متجانس لعناصر الكون التي يمكن احتواؤها بنظرة خاطفة. غرور وكبر تحول إلى صدمة نفسبة هائلة عند فشلهم. وضع ومارينيتي، في مقدمة كتابه المسمى وزانك تم تم، عنواناً: تحطيم النحو- خيال لاسلكي كلمات حرة. فأوغلوا بذلك اكثر من الحركات السابقة في محاولة تحطيم اللغة. ودعوا إلى الشعر الحر الذي كان قد ابتكره «كوستاف كان»، ليكون الشعر الحر باباً لضياع أوسع ، للكلمة الحرة المتفلتة من معانيها وقواعدها، ولتتحول الكلمة إلى مقاطع صوتية غامضة هيستيرية مثل: «سي سي سي سي سي سي » وينقل هذا الهوس عنهم إلينا «أدونيس» و «كهال أبو ديب» وشاعر يقول في قصيدته: «ستزن ستزن ستزن» ثم تتحول الكلمات عندهم إلى رموز رياضية ، «+-+-++*» لتعبر عن حركة ناقل السرعة في السيارة. وقد نقل «كهال أبو ديب» هذا الهوس إلينا في كتابه «جدلية الخفاء والتجلي». وأصدر وأبولونير، سنة ١٩٦٣م كتابة والعداء المستقبلي للتراث». ليكشف عن هذا الاتجاه الرئيسي للحداثة. وارتبطت الحركة المستقبلية في إيطاليا بالفاشية ، وأمضى «مارينيتي» واحداً وعشرين يوماً في السجن مع موسيليني .

أراد «مارينيتي» أن يلقي خطبة شعرية حماسية. فأخفى أحد أصدقائه نفسه في أحد أركان الصالة. وبإشارة من «مارينيتي» أخذ يقرع طبلًا عملاقاً. فاندهش الحاضرون وهم يتساءلون كيف استطاع صوت «مارينيتي» أن يفعل هذه الضوضاء الخارقة!

أما الحركة المستقبلية في روسيا فقد رأسها «فلاديمير ماياكوفسكي»، وأعطى نفسه لقب وزارداشت زماننا الصخاب»، وذلك في قصيدته «سروال في سَحَابة» لقب وثني، وعنوان غائم، وإلحادية علنية. واعتمدت هذه الحركة الكلمات الصوتية مثل الحركة في إيطاليا كذلك في مثل قصيدة: «دربل إشكل، ابشكر، سكم، مي سوبو، رل ينر». مقاطع صوتية لا معنى لها في أي لغة. ولكن هذه المدرسة مع كل عجائبها وحربها على التراث والدين واللغة، حاربت الرمزيين. وأصدرت هذه الحركة بيانها سنة ١٩١٧م، وأسموه وصفعة في وجه الذوق العام»، وجعلت همّها غسل الكلمات وتطهيرها من طلاء التراث الأدبي. وهذه المهمّة دعا إليها أدونيس وكهال أبوديب وغيرهما من رجال الحداثة في إجماع

الباب الثاني الغاضل الثاني

يدور كلّه، مهما اختلف اللفظ، حول قول أحدهم «إن الشاعر يجرر الكلمة من معانيها ومما علق بها من غبار السنين فيطهّرها ويغسلها. . . ». ويقول أدونيس في كتابه مقدمة في الشعر العربي: «يصبح الشعر في هذه الحالة ثورة مستمرَّة على اللغة»(١) ويقول: « . . . وتصبح اللغة غابة شاسعة كثيفة الإيقاع والتوهج والإيجاء لاحدَّ لأبعادها فتُفرغ الكلمات من معانيها الموضوعة سابقاً في المعاجم أو على الألسنة»(١). ويقول كهال أبوديب في كتابه «جدلية الخفاء والتجلي»: «وهكذا يكون تطور الإيقاع فاعليَّة بنيوية تنبع من سبّكة العلاقات المتكونة ضمن البنية وجدليتها. ويختفي وراءها التراث الشعريّ في اللغة بتاريخه المعقد الطويل»(١).

إجماع حداثيّ واضح على حرب اللغة والمعاني والتراث. ويلتقي من أجل ذلك حداثيو العالم الإسلامي مع حداثيي أوروبا، في ساحة واحدة، وفي تبعية ذليلة وتقليد مهين، ليرسموا خصائص واحدة للحداثة، يلتقون عليها أولاً، ولا بأس لديهم إذا اختلفوا بعد ذلك في أمور فرعية أخرى، تقودهم الحركة المستقبلية القوميَّة الإيطالية الفاشية حيناً، والحركة المستقبلية الأخرى الماثلة هنا وهناك.

وقد من الحركة المستقبلية في روسيا نموذجاً جديداً من الشعر الحديث، عُرف بالكونكريتي "Ferro Conerete Poetry" ليمشّل فنّ التهريج، وليعتمد لا على اللغة وبيانها، ولكن على القراءة والصوت والتمثيل. ووضع «فليمير خليبنكوف» قصيدة «تعويذة عن طريق الضحك» لتمثل أسلوباً آخر في تحرير الكلمة وتحطيم اللغة.

وطالب بيان المستقبليين في روسيا بإعطاء الحقّ للشعراء في رفد الناس بمفردات وكلمات مبتكرة ملفّقة ، كما أعلنوا كراهيتهم غير المحدودة للغة التي ورثوها. ولقد نافسهم الحداثيّون في بلادنا في هذا المضمار كما سبق أن ذكرنا قبل قليل. كما نافسوهم في تلفيق مصطلحات ومفردات خارجة عن اللغة أو خارجة عن الوضوح غارقة في الغموض. ولننظر في أمثلة من

⁽١) مقدمة في الشعر العربي (ص: ١٢٦).

⁽٢) المرجع السابق. (ص: ١٢٨).

⁽٣) جدلية الخفاء والتجلي. (ص: ١٠٥).

الباب الثاني الغصل الثاني

ذلك: التموضع الزمكاني، الممرثية، النحن، الرؤيوية، وغير ذلك.

ويدعو ماياكوفوسكي الشمس لتشرب معه كوباً من الشاي، وذلك في قصيدته: مغامرة خارقة قام بها فلاديمير ماياكوفوسكي في كوخ صيفي، ويهدف من هذه الدعوة للشمس إلى أن يُعطِّل حركتها الأبدية، الشروق والغروب، اللتين ملهها الشاعر.

صورة واضحة لمحاولة الشورة على سنن الله في الكون، سنن الله الثابتة. وستطل الشمس تشرق وتغيب، وينتحر ماياكوفسكي وتنتحر أفكاره، ويطويه الرَّدى، ويطوي أمثاله، وتظل سنن الله ماضية، آيات بينات تشهد أن لا اله إلا الله:

﴿ ٱسۡتِكۡبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكُرَاۢلسَّيْ ۚ وَلَا يَحِيقُٱلۡمَكُرُالسَّيِّ ۚ إِلَّا بِأَهۡلِهِ ۚ فَهَلۡ يَنُظُرُونَ إِلَّاسُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۗ وَلَن تَجِدَلِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

[فاطر: ٤٣]

وظهرت في هذه الحركة «المدرسة الشكلانية» مستلهمة بعض قواعد علوم اللغة التي جاء الموسير، وعجدة في الوقت نفسه كل شذوذ الحركة المستقبلية، وساهمت هذه الحركة في بلورة ما يُسمى «الإشارات الدالة» "Semiotic Theory". ويقول «ياكوسبون» إذا كان المعنى سابقاً يبحث عن القوافي في الشعر، فإن القوافي في شعر خليبنكون وماياكوفسكي هي الآن تبحث عن معنى. والذي نراه نحن أن كلام ياكوسبون نفسه على طرافته هو الذي يبحث عن معنى كذلك. وانتهت حياة ماياكوفسكي وغيره بالانتحار، وعاش أخرون في بؤس وعذاب. وأعلنت الحركة المستقبلية إفلاسها، لتحمل الراية بعدها الحركة التعبيرية» منطلقة من باريس من ميدان الرسم مع «بيكاسو» و«بارك» و«فان كوخ». ثم تمتد إلى الأدب في ألمانيا، حيث عبر أحدهم عن هدفهم بوضوح، وهو يتحدث عن مجلة أصدرها: «إن المجلة جاءت لتقوض المجتمع القائم». لم تعد الثورة على القديم فقط، وإنها امتدت إلى الواقع. وأخذ التعبيريون يهاجمون المؤسسات القائمة كلها، ويقولون إنه وإنها امتدت إلى الواقع. وأخذ التعبيريون يهاجمون المؤسسات القائمة كلها، ويقولون إنه

الباب الثاني الغصل الثاني

لما أصبحت اللغة أداة في خدمة أغراض نفعية لهذه المؤسسات، فقد أصبحت عاجزة عن القيام بمهمتها التعبيرية، فانصب هجومهم على «النحو» التقليدي، وحمل هذا الهجوم إلينا تلامذة وأتباع لهم من بعض الحداثيين في العالم الإسلامي. وزاد الغموض لدى الحركة التعبيرية وزادت الرغبة في التحطيم، والرغبة في تفجير المجتمع. ولكن بدلاً من ذلك كله فجروا أنفسهم وتفرقوا بين المذاهب السياسية القائمة من شيوعية وغيرها.

كانت الحركة التعبيرية تحاول أن تستنبط «لغة تعبيرية جديدة» يخضع لها الواقع الذي كانوا يدعون إلى تحطيم مؤسساته. فلها فشلوا في ذلك وتمزقوا، جاءت الحركة، «الدادائية» لتدعو إلى أن تعيش الواقع وانحطاطه وانحطاط القرن العشرين، ولتحارب التعبيريين، ولتنحو منحى اليسار الدائم والثورة. ولكن صراعها انتهى بالاستسلام النهائي الذي لا حدود له، متميزة بمهاجمة قواعد النحو والمنطق مغرقة بالفوضى والتناقض. وكان بعضهم يرى أن على الحركة التمسك بالغموض، فإنها تموت إذا اتجهت إلى الجد والوعوح والاستقامة. ومن قلب الحركة الدادائية ظهرت بذور الحركة السريالية لتعتمد فن إثارة الفضائح تحت شعار حرية التعبير، وليغذوا لهيب الجنس. واعتبروا «أن العقل وحده قادر على جمع شظايا العالم وربطها». وامتد نشاط هذه الحركة في ميادين الأدب والرَّسم. وأخذوا السريالية كتابة قصائد جديدة للناس. كتب شاعر سريالي مكسيكي يقول: «لا تعتزم يعموض ومغالطات، وتعبيرات ضبابية. يقول أحدهم: «إنهم يتطلعون إلى ذلك اليوم الدي تكون فيه الطبيعة الإنسانية والإنسان الطبيعي يتحاوران معاً..». ودخلت النبريالية جميع ميادين الفنون ماعدا الموسيقى.

لقد أبرز العرض السابق في متابعة الحداثة في ميدان الأدب والفن إلى تأكيد خصائص الحداثة التي سبق عرضها في الميادين الأخرى، وإلى إيضاح خصائص أخرى أهمها المغالطات الفكرية من خلال طنين التعبير وحلاوة جرسه، مثل: «الإنسان الطبيعي والسطبيعة الإنسانية، المعنى يبحث عن قوافٍ والقوافي تبحث عن معنى، حدس، مقامات، حالات، غيبوبة، تركيب جدلي وحوار رحب لا نهائى بين هدم الأشكال

وبنائها. . . ، حدسية إشراقية إبداعية رؤياوية ، هنا سيَّالُ أبديّ المفاجئات تتدافع في المدّ الخلَّق نحو المجهول. . . ». تعبيرات لا حصر لها من هذا النوع تدخلك في غموض وتيه ، وظلمة وضياع .

ومن أساليب المغالطات مثلاً ما يقوله كهال أبوديب: «والحداثة تعني التغيير بوصفه حركة تقدم إلى الأمام. وذلك سرَّ مأساتها. فكل تقدَّم هو انفصام عن ماض. ومن هنا كان وعي الحداثة لذاتها بوصفها انفصاماً. والانفصام داثهاً فعل توتر وقلق ومغامرة...»(١). هكذا يؤثر الحداثيون في القراء العاديين، حين يضعون مثل هذه المغالطات، لتنساب بهدوء كأنها حقائق مطلقة لا يأتيها الباطل. لماذا يكون كلَّ تقدم انفصاماً عن ماض؟! لماذا لا يكون امتداداً ونمواً وتطوراً كها تنمو الشجرة فتحمل الغصون والورق والثمر؟! ألا يمكن أن يتم بهدوء وسلام، ورضاً وفرحة، كانفصام الإنسان عن الشرَّ ودخوله في طمأنينة الهدى وسكينة الإيهان؟! مغالطة أخرى واسعة! أما الانفصام، كها ذكره، فلا شك أنه مأساة الحداثة أو سرَّ مأساتها، بسبب المغالطة لا بسبب ما يدعيه من انفصام.

ويقول كهال أبوديب أيضاً: «الحداثة انقطاع معرفي»! ويشرح هذا التعبير الغامض الذي صاغه من ظلامه وتيهه فيقول: «ذلك أن مصادرها المعرفية لا تكمن في مصادر التراث، . . . والفكر الديني، وكون الله مركز الوجود . . . الحداثة انقطاع معرفي، لأن مصادرها المعرفية هي اللغة البكر، والفكر العلماني، وكون الإنسان هو مركز الوجود . . . "().

إذن هو فتنة صريحة دخلت العالم الإسلامي من أبواب الفكر والأدب والسياسة والإعلام. ولم يُقِلِّ رجال الحداثة في الغرب ولا في غيره عن هذا المستوى في إعلان الفتنة وعاربة التراث كله بنصوص صريحة لا مواربة فيها، ودعم الغيبوبة وأفكار الصوفية المنحرفة وغير ذلك، من خلال صياغات تتميز بأشكال مختلفة من الجرس والتلاعب بالألفاظ،

⁽١) مجلة الفصول المجلد (٤) العدد (٣) ١٩٨٤م.

⁽٢) مجلة الفصول مجلد (٤). عدد (٣). سنة ١٩٨٤م. (ص: ٣٧).

لتسوق مغالطة بعد مغالطة.

فصلاح عبدالصبور في ديوانه «أقول لكم» فيها يسميه قصيدة «الظل والصليب»، يقول: «هذا زمان السأم، نفخ الأراجيل سأم، دبيب فخذ امرأة بين إليتي رجل سأم». ويقول: «ملاّحنا ينتف شعر الذقن في جنون. يدعو إله النقمة المجنون أن يلين قلبه ولا يلين. ينشده أبناءه وأهله الأدنين، والوسادة التي لوى عليها فخذ زوجه، أولده محمداً وأحمداً. وسيّداً. وخضرة البكر التي لم يفترع حجابها إنس ولا شيطان يدعو إله النعمة الأمين أن يرعاه حتى يقضي الصلاة، حتى يؤتي الزكاة، حتى ينحر القربان، حتى يبتني بحرّ ماله كنيسة ومسجداً وخان. للفقراء التاعسين من صعاليك الزمان» (١٠).

ويقول في نفس القصيدة (ص: ٦٧): «إنسان هذا العصر سيّد الحياة»! ويقول في قصيدة «قدّيس» (ص: ٨٦) من الديوان:

«وقالت لي: بأن النهر ليس النهر، والإنسان لا الإنسان، وأن الله قد خلق الأنام ونام. وأنَّ الله في مفتاح باب البيت».

سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيراً.

ألفاظ المسيحية منتشرة عندهم كثيراً كها رأينا هنا، «القديس»، «الصليب»، وكذلك ألفاظ الصوفيّة!

ولم يكن صلاح عبدالصبور الوحيد في هذا الهبوط. فقد كان هذا محور فكر أقطاب رجال الحداثة كلهم. فاسمع أدونيس وهو يعلن تصوره، وهو يخوض في أوحال الوثنية: «الله في التصور الإسلامي التقليدي نقطة ثابتة، متعالية، منفصلة عن الإنسان. التصوف ذوّب ثبات الألوهية، جعله حركة في النفس، في أغوارها أزال الحاجز بينه وبين الإنسان. وبهذا المعنى قتله (أي الله) وأعطى للإنسان طاقاته. المتصوف يحيا في سكر يُسْكِر بدوره العالم. وهذا السكر نابع من قدرته الكامنة على أن يكون هو والله واحداً. صارت المعجزة تتحرّك بين يديه»(۱).

⁽١) ديوان «أقول لكم». (ص: ٦٥، ٦٨).

⁽٢) كتاب مقدمة في الشعر العربي لادونيس. (ص: ١٣١).

الباب الثاني الغطل الثاني

سبحان الله العظيم. سبحان رب العرش العظيم.

﴿ فَقَدْكَذَّ بُواْ بِالْحَقِ لَمَّا جَآءَ هُمَّ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُواْ مَاكَانُواْ بِدِ، يَسْتَهْزِهُ وذَ ۞ ﴾

[الأنعام: ٥]

٤ ـ الحداثة في السياسة والاقتصاد :

لقد رأينا خلال العرض السابق كيف دخلت بعض الحركات الحداثية في قلب السياسة ونشاطها. فالحركة المستقبلية في إيطاليا ضربت بسهم وافر في ذلك، وسبجن «مارينيتي» مدة واحد وعشرين يوماً مع موسيليني وآخرين، بتهمة تكوين عصابات مسلّحة. وقد أوغلت الحركة مع النشاط الفاشي، وتبنوا الرُّوحَ القومية الإيطالية حتى جاء بيانها سنة ١٩١١م يقول: «يجب أن تسيطر كلمة إيطاليا على كلمة حرية». أما في روسيا فقد كانت الحركة المستقبلية تتبنى الفكر الشيوعي مذهباً وسياسة، فاتحدت هنا مع البلشفية كها اتحدت في إيطاليا مع الفاشية وهاجمت الحركة التعبيرية المؤسسات الاقتصادية والسياسية في أوروبا، لأنها تمشل الاستغلال والظلم، وحاربت الأدب الرمزي والانطباعي لارتباطه بتلك المؤسسات، دون أن يكون لديهم تصور سليم للعدالة والحق، وتاهوا في ظلم أشد وفساد أوسع، وتَمَزَّقوا شذر مذر. وامتدَّت الحركة الدادائية بين مدن أوربا وأمريكا وهي تخوض طراعاً فكرياً وسياسياً، حتى أطلقت المجلة الباريسية «التراتوز» سنة ١٩١٩م سؤالها الكبير: «لماذا نكتب؟!». حيرة ويأس قاتلان.

والحركة السريالية امتدت بين جميع أجزاء أمريكا الجنوبية واليابان وجزر الكناري ودول أوروب يساعدها على ذلك انضباطها التنظيمي ومبادئها المغرية في طنينها الاجتماعي والسياسي، ودخولها جميع ميادين الفنون ماعدا الموسيقي.

ولقد تفاعلت الحركة الحداثية مع واقع المجتمع، واتخذت من مختلف ميادين النشاط منابر لها، وكان الميدان السياسي واضحاً في نشاطها. وامتد أثر النهج الحداثيّ في الفكر السياسي امتداداً بعيداً. لقد قامت الديمقراطية وكان أهم مَعْلَم لها، وأهم مسوّغ لوجودها وقيامها هو العلمانية وعزل الدين عن المجتمع. نعم! لقد عُرفت الديمقراطية

الباب الثاني الغصل الثاني

باستغلالها الدين استغلالاً قبيحاً في جرائمها السياسية وفي دعم المستشرقين وحركات التنصير، كها ذكرنا. ولقد ظهرت المادية الجدلية والتاريخية والماركسية العلمية كرد فعل للديمقراطية التي استغلت الطبقة العاملة، وأغنت الطبقة الرأسهالية. ودار الصراع بين الحركتين حتى عهد قريب.

إن السياسة التي تمارس اليوم تتميز بظاهرتين هما من أهم خصائص الحداثة ونهجها: العلمانية واستغلالها للدين في جرائمها وعدوانها، وكذلك المكافيلية. والشعارت الإنسانية لم تتجاوز دائرة المؤتمرات والندوات والإعلام. تُعلَن حقوق الإنسان ثمّ يُسحق الإنسان بعد ذلك بألف وسيلة. إن الديمقراطية تسحق الإنسان بالتخدير في لهيب الجنس والخمور والمخدرات وإفلات الحرية الفردية. والحرية الفردية تنتهي عندما تصطدم مع مصلحة القوى الخفية المسيطرة. والدكتاتورية تجمع اليوم أدوات السحق كلها: البطش والتخدير، وإذا لزم الأمر «فالتنويم».

إن التفلّت من نهج الإيهان والتوحيد يترك الإنسان ريشة في مهب الريح طائرة، تتقاذفها الأهواء فلا تستقر.

لقد أخذ الصراع السياسي أعنف صورة في تاريخ الإنسان، وهو يحمل هاتين الصفتين الحداثيّتين: محاربة الدين حتى لا يؤدي دوره الحقّ في المجتمع واستغلاله لتحقيق مطامع القوى الجشعة الطاغية، وكذلك النهج الميكافيلي في تحديد العلاقات بين الدول. ولقد تمثل هذا العنف بحربين عالميّتين كبيرتين، وبحروب أخرى ممتدة في الأرض كلها، جعلت الأرض تبدو كأنّها لهيب حروب، حتى بلغ عدد الحروب خلال القرن العشرين بحدود (١٣٠) حرباً وزاد عدد الضحايا فيها عن (١٢٠) مليون نسمة، ومازالت الدماء تتفجّر في الأرض هنا وهناك بين مظالم وعدوان وطغيان تحركه مطامع القوى المتسلطة اليوم.

وفي واقع عالمنا الإسلامي دار معظم الشعر الحداثيّ حول السياسة لتكون قضيته الأولى هي «السلطة». ففي مقالة كهال أبوديب يتحدث عن الحداثة والسلطة يقول: «تبدو الحداثة مسكونة بالسلطة، بل إنها تبدو وعياً مشبوحاً بالسلطة بعنفها وبربريّتها وتعسُّفها.

الباب الثاني الغصل الثاني

تصبح السلطة بيت الحداثة الذي فيه تنموه(١). ومضت الحداثة على ذلك في قلب الوسط اليساري في العالم العربي، الوسط اليساري بمختلف تجمعاته. فمن شيوعي ملتزم أو اشتراكي حائر أو قومي أو بعثي، إلى غير ذلك من التجمعات التي مثلت النهج اليساري. ولقد كان الجهد الأول لهذه الاتجاهات هو الشعارات الوطنية، ومهاجمة السلطة، ومحاربة الرأسهالية، ولكنها تطرح من خلال بريق هذه الشعارات حلولاً مرفوضة من وجهة النظر الإيهانية، كها حدث في قضية فلسطين مثلاً، وفي غيرها.

والظاهرة الغريبة التي تحتاج إلى تفسير هي أن الصحافة غير اليسارية فتحت أبوابها لهذا الأدب، ويظل أدب الإيهان يتيمًا، حائراً، لا يجد الفُسْحة حتى في الصحافة الإسلامية ووسائل إعلام العالم الإسلامي! وأكثر من ذلك فإنَّ رجال الحداثة تتلقّفهم وسائل الإعلام الأجنبية والدولية، وتضفي عليهم البريق والدعاية والإعلام، وتبرزهم في كل ميدان: في الرسم التشكيلي، في الشعر الحديث، في القصة المنحرفة، وتفرد لهم المهرجانات الواسعة، على مستوى دولي.

أما الاقتصاد فقد جمع كذلك خصائص الحداثة الرئيسة ومضى معها، فغذًاها وغذّته. لقد حملت الرأسهالية الخصائص الأساسية للحداثة كها حملت الديمقراطية في السياسة، وحملت الاشتراكية من خصائص الحداثة ما حملته المادية الجدلية والمادية التاريخية في الفكر، وما حملته ديكتاتورية البروليتاريا في الواقع السياسي.

من هنا تبرز «للحداثة» صفتها الفريدة العجيبة، وهي قدرتها على جمع المتناقضات. لقد ظهرت في العالم الرأسهالي الديمقراطي، وعاشت فيه، ونمت وترعرعت. وغذاها العالم الرأسهالي في أمريكا وفرنسا وانكلترا وألمانيا وإيطاليا وسائر دول أوروبا، والدول الأسكندنافية. وظهرت في قلب ما كان يُسمى بالاتحاد السوفياتي، وفي قلب الحزب الشيوعي، وبرز فيها شعراء مشهورون مثل «خليبنكوف» و«ماياكوفسكي» وغيرهما. والحداثة هي الحداثة هنا و هناك.

⁽١) مجلة الفصول العدد (٣) المجلد (٤) سنة ١٩٨٤م.

الباب الثاني الغطل الثاني

ولقد كان معظم رجال الحداثة في بعض الأقطار العربية من الاتجاه اليساري فيها. وإن لم يكونوا من اليساريين فإنهم من «الطبقة العائمة» التي قد تنتسب للإسلام ولا تلتزم به، وتحاربه إذا واتت الفرصة، وتعلن إسلامها مع غيرها دون التزام بالطبع حين يضطرها الواقع. وقد تتبنّى الشعارات الوطنية من خلال ولاء فاضح مكشوف للشرق أو للغرب. وقد تجد مرتعاً لها في أجواء القهر والهوان الذي تعيشه بعض الأقطار العربية، بسبب ما كسبت أيدي الناس من تخاذل وتقصير، وجهل وأهواء.

لقد كان من أخطر ما رافق ظهور الحداثة في القرن التاسع عشر على النحو الذي عرضناه ظهور «الحركة الصهيونيّة»، لتكون مثل الحداثة ملتقى المتناقضات، ولتُجمعَ على تأييدها السياسة الدولية كلها، الدول الغربية والشرقية، والرأسهالية والاشتراكية، والديمقراطية والديكتاتورية، ثمّ لتتولَّى الحركة الصهيونية نفسها الإعلام المنهجيّ المركز للحداثة في ميادينها المختلفة، ولرجالها المتعدّدين. وساهمت الحركة الصهيونية بنشر الانحلال الخلقيّ، والفتنة والفساد في الأرض، والجراثم والعدوان، وليتمثّل ذلك كله في أوسع جريمة عرفها الإنسان في تاريخه، ألا وهي العدوان الدوليّ على فلسطين المسلمة تقوده الصهيونيّة.

إن أفضل ما لدى الديمقراطية مما يتوهمه أبناؤها ودعاتُها وأتباعها، كالحرية الفردية المتفلّة، وحقوق الإنسان المزعومة، هي أقلّ بكثير مما يقدّمه الإسلام من الحرية المتكاملة المتوازنة، وحقوق الإنسان المترابطة بالعقيدة والإيهان، وحرية الرأي المحميّة بالقرآن والسنة، ومنهج الحياة المتوازن المتناسق، وكرامة الإنسان التي يصونها الطهر والحرية والأمن والعدالة. وإن شرَّ ما تدعو إليه الديمقراطية، وهي العلمانية، هو أخطر ما يحاربه الإسلام، حين يدعو إلى الإيهان والتوحيد.

الولايات المتحدة الأمريكية والغرب معها تريد أن تدعو إلى تلك الديمقراطية، لينال الإنسان بها عندهم خدر الحرِّية المتفلتة، وليُسْحَق الإنسان بها عندنا. ألا يريد المسلمون أن يدعوا إلى الإسلام، وأن يبلغوا رسالة الله إلى الناس؟!

الباب الثاني الغصل الثاني

وإن كان للديمقراطية والشيوعية من تفوق فإنها في التفصيلات التطبيقية التي وضعوها لنظرياتهم، حتى تأخذ سبيلها إلى المهارسة والتطبيق. ولقد قصر المسلمون في ذلك كثيراً حين لم يضعوا المناهج التنفيذية التطبيقية للحق المطلق الذي يدعو إليه الإسلام. فهازلنا ندعو للشورى ونحصر دعوانا في أن الشورى معلمة أم ملزمة. ثم لم ننجح بعد في تطبيقها معلمة ولا ملزمة، ولم نضع لها مناهج المهارسة والتطبيق. وامتاز أولئك عنا بالنظام المفصل والإدارة المتطورة والنمو العلمي، أبواب فتحها الله لعباده كلهم، لمن شاء أن ينهض بجهده وجده، مهها كانت عقيدته ونظامه. فلقد تقدّم الإنسان في تاريخه الطويل في هذه الميادين في ظل مختلف العقائد التي عرفها. أما نحن في واقعنا اليوم، فقد قعدنا قعود العاجزين، ومددنا أيدينا نستجدي، حتى الكلمات والمصطلحات ركضنا وراءها لاهنين. وفي بعض ومددنا أيدينا نستجدي، حتى الكلمات والمصطلحات ركضنا وراءها لاهنين. وفي بعض بقاع الأرض يُسحق الإنسان وتُسحق كرامته، وتختق في جوفه الكلمات وتموت في رأسه المفكار، وتُطوّى عليه السجون فينسى فيها حتى يموت. الإنسان أرخصُ بضاعة فيها، في ديار الحضارة والرّقي، في حضارة القرن العشرين، حيث تقتله المخدرات والشهوات في ديار الحضارة والرّقي، في حضارة القرن العشرين، حيث تقتله المخدرات والشهوات فيغيب فيها. فلا عجب إذا سَحَرَ بعض الناس بريقُ خُلب من الشيوعية والاشتراكية والديمقراطية والحداثة التي مصدرها الغرب، ووالتموضع الزمكاني».

وكلها تدَّعي العدالة والحرية وحقوق الإنسان، والإخاء الإنساني والمساواة، والأمن والسّلام، وغير ذلك من الرايات والشعارات ترفعها ثمَّ تمضي لتخدّر الناس، ثمَّ تسقط هذه الرايات كلها على أبواب فلسطين وأفغانستان، وفي ساحات دار الإسلام! هناك تسقط الرايات ليُطر د شعب كامل من أرضه، أرض الإسلام، ولتُسلَّم لليهود المهاجرين الذين لا يربطهم بالأرض نسب ولا تاريخ، ولا حق قديم ولا جديد! إجاعٌ دولي تلتقي فيه كلَّ المتناقضات، والحداثة التي صدرت من الغرب هي مُلتقى المتناقضات.

أما العجب العُجابُ فهو أن يظهر منا، من أنفسنا، من أهلينا، من يقول إن لليهود حقًا في فلسطين، ولا نجد صهيونيًا واحداً يُقرُّ بحقٌ لمسلم أبداً. هذا هو أثرها في عالم السياسة.

وأعجب من ذلك أن يمتدُّ ضغط والحداثة، إلى مختلف ديار المسلمين، وإلى مختلف

الباب الثاني الغصل الثاني

ميادين نشاطهم، حتى يتسلَّل خدراً لذيذاً ونوماً هادئاً حتى تضيع الديار وتطوى الحقوق! ديار الإسلام هنا تستطيع أن تقدِّم للعالم حقيقة الحرية والعدالة في أعظم رسالة عرفها الإنسان. إن أمة الإسلام تستطيع أن تنقذ البشرية كلها اليوم كما أنقذتها سابقاً، إذا صدقت ربها وأوفت عهدها.

قد نجد في الديمقراطية في بلاد الغرب بعض المظاهر التي يحتاجها الإنسان في واقعه، والتي يبرز أثرها وأهميتها حين نقارنها بها يجري في كثير من أقطار ما يُسمَّى «العالم الثالث». وأهم هذه المظاهر: الإدارة والنظام، والتطور الصناعي والعلمي. ولكن هذه جهود بشرية بلغتها شعوب مختلفة عبر التاريخ في ظل عقائد مختلفة. ولقد قدَّم المسلمون نهاذج رائعة في تاريخهم الأول. فلهاذا لا ينهض المسلمون اليوم فيعلنون هذه المظاهر كلها باسم الإسلام الذي سبق فضله في إعلانها للبشرية:

﴿ . . وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكُمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ فَ ﴾ [المائدة: ٥٠]

٥ _ المداثة في الفكر والأخلاق:

لقد كان فيها عرضناه صورة كافية عن المنحى الخلقي للحداثة، منحى يرسمه الجنس الملوّث والشهوة المتفلتة والخمور والمخدرات. وأكتفي هنا بذكر مثلين عن التصور الخلقي. الأول يكشف عن انحلال روابط الأسرة وتمزّقها. فهذا «جورج هيم» يكتب في مذكراته فيقول: «كان باستطاعتي أن أصبح واحداً من أعظم الشعراء لو لم يكن لي مثل هذا الأب الخنزير»(١). وهو من رجال الحركة التعبيرية.

ومثل آخر يبين لنا إسفاف النقد الأدبي حين تتناوله «البنيوية» والحداثة. فحين يحلُّل كال أبوديب تحليلًا بنيوياً أبياتاً رائعة لابن الرومي:

حَيَّتُ كَ عنا شَهالٌ طاف طائفها هَبّت سُحَيراً فناجى الغصن صاحبه ورقٌ تُغني على خُضرٍ مُهَــدَّلــة تخال طائــرهــا نشــوان من طرب

بجنّة نفحتْ ريحاً وريحاناً مُوسوساً وتداعى الطير إعلاناً تسمو بها وتمسُّ الأرض أحياناً والغصن من هزَّه عطفيه نشوانا

(١) كتاب الحداثة: (ص: ٢٦٩).

حين يسمو ابن الرومي في هذه الأبيات لفظاً ومعنى وصورة، وحين يُعبَّر هو عن حركة الغصون بالسمو «تسمو بها. . . » فإن كمال أبوديب يببط إلى أسفل سافلين وهو يحلل هذه الأبيات بُنيوياً. ونقتطف من هبوطه وسوء أدبه فقرة : «أخيراً تتلاقى في القصيدة حركتان ضديتان يجسد تلاقيهما النهائي توحُد التصورات . . . هاتان الحركتان هما الحركة الأفقية . . . ثم الحركة الشاقولية . . . تنضحان بنشوة جنسيَّة تنبع من حركة الاتصال الأفقية ، والاهتزاز الشاقولي الصاعد الهابط» . لقد هبط أبوديب ولم يصعد أبداً .

والبنيوية ابنة الحداثة، أو شكل من أشكالها. يقول كهال أبوديب عنها: «ليست البنيوية فلسفة، لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الوجود. ولأنها كذلك تصبح البنيوية ثالث حركات ثلاث في تاريخ الفكر الحديث يستحيل بعدها أن نرى العالم ونعاينه كها كان الفكر السابق علينا يرى العالم ويعاينه. مع ماركس ومفهومي الجدلية والصراع الطبقي بشكل خاص أصبح محالاً أن نعاين المجتمع كها كان يُعاينه الذين سبقوا ماركس. ومع الفن الحديث وبعد أن رسم «بيكاسو» كراسيه - كها يُعبر «روجيه غارودي» - أصبح محالاً أن نرى كرسياً كها كان يراه الدين سبقوا «بيكاسو». ومع البنيويه ومفاهيم التزامن والثنائيات كرسياً كها كان يراه الدين سبقوا «بيكاسو». ومع البنيوية ومفاهيم التزامن والثنائيات الضدية، والإصرار على أن العلاقات بين العلامات لا العلامات نفسها، هي التي تعني، أصبح محالاً أن نعاين الوجود - الإنسان، الثقافة، الطبيعة - كها كان يُعاينه الذين سبقوا البنيوية» أن ضلال صريح وتيه وظلام! فالإسلام جاء قبل البنيوية بنظرته الإيهانية المتميّزة المنبوية وارتبط مع الحركتين الأخريين، ارتبط مع ماركس وبيكاسو وأمثالهما؟!

إنه تَجَلَّ دون خفاء، كما سمى كمال أبوديب كتابه، تجلَّ للضلالة ووضوح في العماية! إنّه، كما قال: «تثوير جذريّ لمعاينة الوجود كله»، فهل هذه كلمة الفتنة والشرك؟!

من هذا الفكر، من هذا التثوير الجذري، تنبع أخلاق حداثيّة جديدة تمزِّق الأسرة ورشائجها، وتطلق المرأة سلعة رخيصة تتقاذفها أمواج الجنس، تحت رايات الحرية والتقدم وأنساواة.

⁽١) كتاب جدلية الخفاء والتجلَّى للدكتور كمال أبو ديب. (ص: ٨،٧).

الباب الثاني الغصل الثاني

ولابد هنا أن نشير إلى أن العالم اليوم بدأ يشعر بهول الجريمة التي ارتكبها بحق المرأة، والجريمة التي ارتكبها بنشر الخمور. والعالم يحاول أن يعالج ذلك بأساليبه المادية. وقد أشرنا إلى مرض «الإيدز» وأسلومهم في علاجه. ويحسن هنا أن نقتبس فقرات من كتاب «البيريسترويكا» لجورباتشوف: «ولكن في غمرة مشكلاتنا اليومية الصعبة كدنا ننسى حقوق المرأة ومتطلباتها المميزة المتعلقة بدورها، أمّا وربّة أسرة. كها كدنا ننسى وظيفتها التي لا بديل عنها مربية للأطفال. فلم يعد لدى المرأة العاملة في البناء وفي الإنتاج وفي قطاع الخدمات وحق العلم والإبداع، ما يكفي من الوقت للاهتهام بالشئون الحياتية اليومية، كإدارة المنزل وتربية الأطفال، وحتى مجرّد الراحة المنزلية. وقد تبين أن الكثير من المشكلات في سلوكية الفتيان والشباب، وفي قضايا خلقية اجتهاعية وتربوية وحتى إنتاجية، إنها يتعلق في سلوكية المؤسرة المأسرية والتهاون بالواجبات العائلية»(۱). ويقول: «المشكلة الأخرى التي بضعف الروابط الأسرية والتهاون بالواجبات العائلية»(۱). ويقول: «المشكلة الأخرى التي لدينا هي عارسة المرأة للأعمال المجهدة التي تنعكس سلباً على حالتها الجسدية»(۱).

أما بالنسبة للخمور فهو يقول: «إننا سنستمر بحزم في مكافحة ظاهرة السكر وتعاطي الخمور. وتمتد خذور هذه السيئة الاجتهاعية بعيداً في التاريخ، وهي قد أصبحت عادة ليس من السهل مكافحتها. . . »(٣).

من السهل أن يكتشفوا الأضرار الخطيرة الناتجة عن أسلوب معاملة المرأة، وعن انتشار الخمور في عام ١٩٨٨م. ما كان أجدر بالإنسان أن يسمع كلام الله الذي أوحى به إلى أنبيائه ورسله قبل آلاف السنين، فيوفر على البشريّة هذه المآسي كلها.

أما وقد عرفوها فهل يستطيعون بأساليبهم معالجة هذه الأخطار؟! .

أما في الغرب فقد رأوا كلَّ هذه الأخطار والأمراض والمآسي، ولكنهم يحاولون العلاج على نفس الأساليب الحداثية المادية، في أجواء لهيب الشهوة والجنس! وفي روسيا سيعالجونها بنفس المادية الحداثية، المنعزَلة عن الإيهان والتوحيد. فأنى لهم أن يصيبوا

⁽١) كتاب البيريسترويكا لجورباتشوف. (ص: ١٦٦).

⁽٢) المرجع السابق. (ص: ١٦٧).

⁽٣) المرجع السابق. (ص: ١٤٥).

نجاحاً، إلا بريقاً خُلِّباً سرعان ما يطويه ظلام الإلحاد.

إن إلغاء هذه المفاسد من حياة المجتمع لا يتمّ بإصدار قرار في جوّ مقبل على الشهوة نافرٍ من الإيهان. إنها تحتاج إلى معالجة حقيقية تستوعب طاقة الأمة وإمكاناتها ووسائلها تربيةً وتعليهاً، ومعالجةً وبناءً. إنها تحتاج إلى ذلك كله من خلال عقيدة وإيهان، تدخل النفوس وتعمر القلوب، وترجو الله واليوم الأخر.

الباب الثاني الغطل الثالث



الفصل الثالث



الحداثة بين المادية الرأسمالية والمادية الماركسية

بين الرأسهالية والمادية الماركسية صراع طويل. هو في حقيقته صراع مصالح غلّفته القوى المتصارعة بالفكر والعقائد، حتى بدا أن الصراع هو صراع فكريّ. ومن خلال هذا الصراع كان الناس يذهلون حين يجدون نقاط لقاء اجتمعت فيها هذه القوى. والحقيقة أنه لا عجب في ذلك أبداً. فهنالك دائهاً ميدانان واسعان للقائهها: لقاء آني متقطع للمصالح المتصارعة، ولقاء ممتد في النظرة الماديّة للحياة. الرأسهالية التي صنعت الديمقراطية صَنعت معها العلمانيّة، حتى أصبحت ملازمة لها ومعْلَماً رئيساً لها. لقد في واقع الإنسان. الديمقراطية لا تمنعك من أن تتخذ إلها مع آلهة أخرى تتزاحم اليوم فمن هنا جاءت النظرة المادية للحياة لتقود ميادين النشاط الإنساني كله. أما الشيوعية فقد كفرت بالله ونصّبت إلها واحداً هو الإنسان نفسه، الإنسان الذي هو مدار النظرية المادية المادية والمادية والشيوعية لقاءً ممتداً،

من هنا نرى كيف أن الحركة الحداثيّة «المستقبلية» استطاعت أن تتفاعل في إيطاليا مع القومية الفاشية بكلّ جنونها، واستطاعت أن تعيش في روسيا مع الحزب الشيوعي. وكلاهما، هنا وهناك، شنّ الحرب نفسها على الدين واللغة والتراث كها رأينا سابقاً.

الديمقراطية التي يحملها الغرب ويدعو لها بكل قوته لا تقول لك مباشرة اترك دينك،

الباب الثاني الغطل الثالث

بل تقول لك اختر النظام الذي تريده لحياتك بعد أن تطبق ديمقراطيّتنا. ويقولون بوضوح إن أهم ما فيها حرّية الفرد كما يرونها هم، ومساواة المرأة بالرجل مساواة كاملة، وإطلاق حرية المرأة بالزنا وإطلاق حرية الرجل بالزنا، على أن يحمي القانون والدستور جميع هذه الحريات. وكذلك حرّية كل إنسان في أن يعبد الإله الذي يريده، ولا حق لأحد أن يعترض على أحد، والقانون يحمي ذلك كله في ظاهره. ولكنه من خلال الأساليب الديمقراطية ذاتها وكواليسها، يدفعون هذا ويكبحون ذاك. وبعد ذلك إن شئت أيها المسلم فاعبد ربك وكن مسلماً في هذا الجو «الديمقراطي البهيج» لا تقل إن الخمر حرام والنا حرام، والحجاب واجب، لا تقل هذا، فدع كل إنسان يهارس حرّيته! وحين يستدعي الأمر فإن خصائص الديمقراطيّة هذه تُفْرَض بالسلاح والقوة! إنها «الحريّة» وإنها «الديمقراطية»!

وقد تعلمت روسيا هذا الأسلوب الحداثيّ مؤخراً، وأعلنت حرية الأديان، وفرح النائمون كلهم! وهكذا تحمل الديمقراطية والشيوعية معاً الحداثة في حياة الناس سلماً أو حرباً، وهكذا تلتقى العلمانية والإلحاد، والديمقراطية والديكتاتورية.

المادية الجدلية تعتبر أن المحتوى الحقيقي للتطور هو الصراع بين المتناقضات. لا يوجد سلم أبداً. إنه صراع، وإن الصراع وحده هو الذي يولد التطور فلهاذا يدعون إلى السلم العالمي؟! أليس من الأعدل أن يدعوا إلى الصراع العالمي ليكونوا أصدق مع أنفسهم؟! وأصدق مع ما يفعلون حقيقة؟! والحداثة تعتبر التطور كذلك هو التغيير المستمر الناتج عن التناقضات الثنائية والجدلية.

المادية الجدليَّة تعتبر أنه عند دراسة أي حادث فلابد من دراسة الظروف والعلاقات فهي وحدها التي تهم. ولقد سبقت معنا نصوص الحداثة التي تشير إلى نفس الخصائص هذه فيها. ونسأل المادية الجدلية ونسأل الحداثة، على أي أساس تدرس الظروف والعلاقات، فكل عقيدة ودين تقوّمها على نحو مختلف؟! وكلَّ تقويم يختلف من زمن إلى زمن، ومن أمة إلى أمة. والأحداث والظروف كذلك مرتبطة كلها بسنن الله في الكون، وبقضائه وقدره، فأين يُطوى هذا كله؟! ومع كل حادث لا تُدرس العلاقات والظروف وحدها، بل يجب

الباب الثاني الفسل الثالث

دراسة عناصر الحادث لا علاقاته فحسب! فكيف يترك هذا كله؟!

ترى المادية الجدلية أن الطبيعة في حالة حركة دائمة وتغيَّر مستمر. وتقرر كذلك أنه ليس من شيء لا يُغلب ولا يُقْهر إلا الشيء الذي يولد ويتطور. ويعنون بذلك الإنسان. إنه الكبر والغرور في أسوأ حالاته.

والحداثة تقرر الشيء ذاته، وقد سبق ذكر نصوصها على ذلك. ويرد القرآن الكريم على ذلك كله ليُبيّن أن الحركة والسكون والثبات والتغيّر كل ذلك بأمر الله، ليُريّنا آيات بينات، تدلُّ على عظمة الله وقدرته، ربّ السموات والأرض وما بينها، ورب العرش العظيم، ربّ كلّ شيء.

وتعتبر المادية الجدلية أن التطور هو حركة تنتقل من تغيّرات كميّة ضئيلة وخفيّة إلى بخار تغيّرات ظاهرة كيفية، سريعة فجائية. ويستشهدون على ذلك بغليان الماء وتحوّله إلى بخار ويريدون أن يطبقوا هذا على تغيّرات المجتمع. وقد سبق أن مرّ معنا في الصفحات السابقة نصوص الحداثة التي تشير إلى ذلك. وهذا مثل على ما سبق أن ذكرناه من أنهم يأخذون جزئية في الحياة، في بيئة محدودة، وزمن محدود، وقدرات محدودة، ليجعلوا منها حقّاً مطلقاً. ثمّ يناقضون أنفسهم حين يجعلون من أسس الحداثة والماركسية عدم وجود حق مطلق أو قانون مطلق، وأن كلّ شيء متغيّر!

والحداثة تشير إلى ذلك بأكثر من أسلوب. أما الحجة والدليل فلا يقدّمونها على دعواهم والحداثة تشير إلى ذلك بأكثر من أسلوب. أما الحجة والدليل فلا يقدّمونها على دعواهم الباطلة تلك. وحسبهم أنهم وضعوا هذا التصوّر من عند أنفسهم، ثمَّ جعلوه حقاً مطلقاً حسب وهمهم. هكذا قال الفيلسوفان اليونانيان ديمقريط وأبيقور، وهكذا قال الماديون الفرنسيون في القرن الثامن عشر لاميتري وغولباخ وديدرو، وهكذا قال الألماني لودفيج فيورباخ، ثمَّ تبعهم ماركس وإنجلز، ونصّوا جميعهم على أن المادية تعني أن العالم الذي يحيط بنا لم يخلقه أحد. وهكذا قال لينين. والحداثة تبنت النظرة المادية، ولقد سبقت الإشارة إلى موقف الحداثة من الدين. وحين يرفض الإسلام النظرية المادية من جذورها وساقها وفروعها، فإنه يرفض النظرية المثالية التي تعتبر الروح أسبق من المادة، ثمّ يختلفون

في أمر الروح ويتيهون في كفر وضلال مثل الماديين.

وفي واقع المهارسة فإن الرأسهالية والديمقراطية تمثّل فلسفة ماديّة مهها رفعت بعد ذلك من شعارات نظرية. وتصبح «الحداثة» في حقيقتها ساحة لقاء المادية الرأسهالية والمادية الماركسية.

الفصل الرابع

أثر الحداثة في الواقع الإسلامي

الأمة المسلمة صاحبة رسالة في الحياة، رسالة ربانية خصّها الله بها، رسالة الإسلام. فالأصل إذن أن تكون الأمة المسلمة كلها، بمختلف ديارها ومؤسساتها وطاقتها حاملة للدعوة الإسلامية في الأرض، تدعو النّاس كلهم إليها من جميع منابر الأرض، فنكون عندئذ نحن الذين يقدّمون ويعطون ويؤثّرون.

أما حين تتخلَّى الأمة عن رسالتها، أو تنحصر المهمة في طائفة وتغفو سائر الأمَّة، فعندئذ تصبح هي التي تأخذ وتتلَّقى، وتتأثر وتخضع، وتصبح أبوابها مشرعة لكل غازِ.

لا ننكر أنه كان للحداثة بمختلف اتجاهاتها ضغط كبير على واقع المجتمع الإسلامي، وأن رجالها، أو بعضهم، احتلوا مراكز في واقع المجتمع في مختلف بلاد المسلمين جهاراً أو متسترين.

ولا ننكر أن ضغط الحداثة مازال يزداد في واقعنا الإسلامي اليوم. لقد استطاع رجال الحداثة «المنتسبون» إلى الإسلام، أو رجالها المسيحيون، المقيمون في دار الإسلام، أو الذين عادوا بعد انتهاء ابتعاثهم إلى الغرب كها حدث في أواخر القرن التاسع عشر، لقد استطاع هؤلاء أن يتركوا أثراً خطيراً في واقعنا بإصرارهم على الانحراف من ناحية، وبها وجدوه من دعم وتأييد من السلطة أو من المؤسسات الأجنبية المعادية للإسلام، أو من الدول المسيحية نفسها المحتلة لبلادنا أو بعد انتهاء احتلالها.

عاد رفاعة رافع الطهطاوي في أوائل القرن التاسع عشر من بعثته في فرنسا ليدعو إلى التبعية المطلقة لأوروبا. وجاء سلامة موسى وطه حسين وجبران خليل جبران لا يقلون كثيراً

ألباب الثاني الغصل الرابع

عن رفاعة في دعوته كلها أو في بعض جوانبها الرئيسة. وكثر رجالها ونموا حتى ظهر أدونيس وزوجته خالدة سعيد، والدكتور كهال أبوديب، وعبدالله العروي وصلاح عبدالصبور، وعبدالعزيز المقالح وكثير غيرهم. ودعت «نازك الملائكة» إلى الشعر الحر، وتلقف الحداثيون هذه الدعوة فغذوها وانتشر الشعر الحرّ وأصبح له دعاته.

كان من أخطر آثار الاتجاه الحداثي في واقع الفكر الإسلامي هو ما تسلل من أفكار إلى ساحة العمل الإسلامي تحت مختلف الرايات والشعارات. أصبحت الديمقراطية مطلباً إسلامياً كذلك، وأخيراً ظهر من يهون من أمر الحداثة ويدعو إلى حداثة إسلامية، وقد يطلع علينا غداً من ينادي بالبيروستريكا الإسلامية. وظهر ما أسموه «المسلم المعاصر» والإسلام العصري، والإسلام اليساري، واليسار الإسلامي، حتى امتلأت الساحة الإسلامية بالمتناقضات التي يصعب تعدادها هنا.

يضاف إلى ذلك ما ظهر من حركات تدعو إلى التوفيق بين الإسلام وغيره من الديانات. وربيا عقدت ندوات وسافرت بعثات، ونسوا جميعهم قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَرَىٰ حَقَّى تَنَّيِعَ مِلَتَهُمْ قُلْ إِنَ هُدَى اللَّهِ هُوَ ٱلْحُدَى وَلَبِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَ آءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْرِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِي وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠]

ومما ساعد على هذا التأثير، كما نعتقد، الهزائم المتتالية التي مُني بها المسلمون في العصر الحديث، والتخلف الواضح، والجهل الممتد الواسع بين عامة المسلمين بكتاب الله وسنة رسوله. وهنالك سبب آخر كذلك هو أن المسلمين لم يقدِّموا مبادئهم من خلال تفصيلات جزئية توضح صدق التطبيق والمهارسة في الواقع. وأما الغرب فإنه يقدم نظمًا متكاملة بضلالها وفسادها وزخارفها في أدق التفاصيل والجزئيات. فحين ندعو إلى الشورى فدعوتنا لا تتجاوز المبادىء العامة التي عرضها منهاج الله وممارسة النبوة لها وممارسة الخلفاء الراشدين، دون أن نجد في واقعنا ممارسة عملية إيهانية ترقى إلى مستوى حاجة الناس. فتأتي الديمقراطية لتشعر الناس بأنها تلبّي حاجاتهم، فيقبلون عليها، وقس على ذلك

الباب الثاني الغصل الرابع

الوضع الاقتصادي. حتى أصبحنا كلما ظهر مصطلح جديد، حق أو باطل، هرعنا لنثبت أن الإسلام قد سبق إلى ذلك. والناس لا تهمهم هذه الحقيقة الفكرية التاريخية إن صحّت، ولكن يهمهم واقعهم وما يعالجه.

وانتشر الشعر الحرُّ كذلك بين بعض الشُّعراء المسلمين، تابعين مقلِّدين متأثرين، دون أن يتأملوا أو يتدبروا، ودفعهم المنطق الحداثيّ نفسه، منطق السعي إلى الجديد، ومحاولة الانفصام عن الماضي، وادّعاء الملل من القافية المتكررة والوزن المتكرر، كما ادعى «ماياكوفسكي» من قبل أنه ملَّ شروق الشمس وغروبها المتكررين. انتشر إذن الشعر الحديث وتسلل معه المنطق الحداثي تسللاً خفياً! وكان السبب في معظم الأحيان الجهل وهبوط الموهبة الشعرية.

اضطراب الميزان بين أيدي بعض المسلمين ساعد كثيراً على تسلل الأفكار والأسلاب والاتجاه. ولا نستطيع في هذه العجالة أن نفصًل أكثر من ذلك، مع يقيننا بأن هذه القضية تحتاج إلى دراسة متأنية مفصلة، لأهميتها وخطورتها، ولندرس الواقع دراسة تقوم على ميزان عادل أمين.

ولقد تسللت كلمات وتعبيرات ومصطلحات. وكان من أغرب ذلك شيوع بعض التعبيرات النصرانية لدى الشعراء المنتسبين إلى الإسلام مثل: الصليب، القديس، إيقونة، وغير ذلك. وكذلك تسرب فكر نصراني من الإنجيل، أو مما شاع بين النصارى، إلى كتابات بعض المسلمين أو المنتسبين إلى الإسلام. وإنك لتجد أمثلة كثيرة على ذلك عند الأدباء الحداثيين وكتابهم، وبخاصة عندما يتعرضون لبعض نبأ الغيب، مثل علاقة آدم وحواء، وكيف أغراهما الشيطان وهما في الجنة، فاعتبر بعضهم أن حوّاء هي التي أغوت آدم، وحسبوا أن هذا المفهوم من القرآن أو ادّعوا ذلك. وأمثلة أخرى يضيق عنها هذا البحث الموجز.

ولكن التأثير الأخطر هو التحويل الجذري للفكر والأدب، وقلب الموازين كلها في فئة من الناس، خلقهم الله كها خلق غيرهم على الفطرة، فجاءتهم شياطين الحداثة فاحتالتهم، كها جاء في حديث رسول الله على عن عياش المجاشعي: أن رسول الله على

قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علّمني، يومي هذا. كلّ مال نحلته عبداً حلالً. وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم. وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمَتْ عليهم ما أحللت لهم، وأمَرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزّل به سلطاناً. . . »

ولنستمع إلى بعض الأمثلة على ذلك، فهذا عبدالعزيز المقالح يقول: (١)

كان الله _ قديماً _ حُبّاً ، كان سحابة .

كان نهاراً في الليل.

إلى أن يقول:

صار الله رماداً...

صمتاً...

ولن يعجز الحداثيون عن تأويل سوء الأدب هذا والكفر الصريح بوسيلة جدلية أو أُخرى. ولكن هذا الجدل والتأويل كله مراء وكفر وضلال.

وصلاح عبدالصبور يقول(٢):

«هذ زمان السأم، نفخ الأراجيل سأم، دبيب فخذ امرأة بين اليتي رجل سأم.

هبوط في اللفظة والتعبير والأسلوب، وهبوط في الصورة والمعنى! سهيل السيد أحمد من الأردن في مهرجان جرش يقول فيها يسمى قصيدة(١):

«باسمك، (يقصد العربيّ)، تعلن هذه النواقس للسهاء، باسمك تقترب الساعة أو تبدأ المرحلة»، هل هذا شعر أم نثر أم لغو! وباسمك هنا يخاطب بها العربيّ!

ويقول: عبدالرزاق عبدالواحد ليبين الوثنيَّة في وضوحها: (٠)

⁽١) صحيح مسلم. كتاب الجنّة (٥١). باب (١٦). حديث (٢٨٦٥).

⁽٢) كتاب إضاءات نقدية _ مجموعة من الكتاب العرب عن عبدالعزيز المقالع . (ص: ١١).

⁽٣) ديوان أقول لكم لصلاح عبدالصبور (ص: ٦٥).

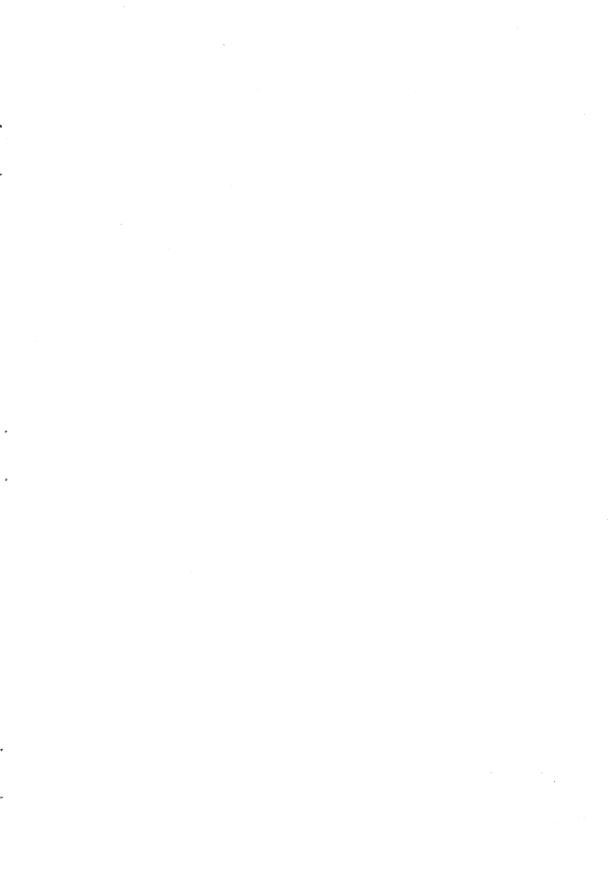
⁽٤) كتاب الشعر في جرش. (ص: ٢٢٥).

⁽٥) المرجع السابق. (ص: ٢٩٥).

الباب الثاني الغصل الرابع

لك وحدك أملك أن أرخّص نفسي، لك وحدك أحني رأسي، لجلالك وحدك، أرفع مخموراً رأسي، مترعة بدمي، مختوم باسمك حتى ترفع الأوراق، ياذا الملكوت باسمك نبدأ. واسمك آخر ما ننطق حتى نموت. باسم (العراق)!





تمهید گ

لدراسة موقف الأدب الإسلامي من الحداثة سنعتمد الأسس والقضايا التي سبق عرضها في البابين السابقين، لتكون الموجّه لتحديد الموقف على أساس إيماني صادق. ولقد عرضنا في الافتتاح والتمهيد في أول الكتاب لمحات عن الأدب الإسلامي. وفي

هذا الباب سنعرض لمحات أوسع لتحدّد الموقف والاتجاه.

سنعرض القضايا الرئيسة التي يقوم عليها تصوّر أيّ أدب. وسنبين ما يتبنّاه الإسلام والأدب الإسلامي تبعاً له، وما تتبناه الحداثة.

وفي كلّ حال سنعتمد نصوص القرآن والسنّة لنحدّد خصائص الأدب الإسلامي وموقفه من هذه القضية أو تلك، وسنعتمد نصُوص رجال الحداثة أنفسهم ودعاتها لنبين موقفهم من هذه القضية أو تلك أيضاً.

القضية الأولى هي التصوّر للكون والحياة والإنسان ومصادر العلم والمعرفة.

والقضية الثانية هي النظرة للماضي والتراث والأسطورة.

والقضية الثالثة هي النمو والتطور، والقضية الرابعة هي اللغة والنظرة إليها ووظيفتها. والقضية الخامسة هي الجمال الفني وولادة النصّ الأدبي وانطلاقته.

هذه القضايا الخمس تُحدِّد بشكْل حاسم جَليَّ موقف الأدب الإسلامي من الحداثة حتى لا يبقى هناك اختلاط في الرؤية أو اضطراب.

ولقد فصّل منهاج الله ، كما سنرى ، كلّ قضية من هذه القضايا حتى لا يكون لأحد حجّة أبداً ، ولتقوم الحجة على كل إنسان نزع إلى الانحراف عن الصراط المستقيم ، وعن حادة الحق . والحق الذي نؤمن به هو ما ينصّ عليه منهاج الله ليرسم للإنسان درباً يمضي عليه في جميع شؤون حياته وميادينها على صراط مستقيم ، على محجة بيضاء ليلها كنهارها لا

يزيغ عنها إلا هالك.

لم يأت منهاج الله ليبين الشعار فحسب، وإنها جاء ليرسم نهجاً للحياة كلها، ولينير الدّرب، ويوضّح السبيل في شتى الميادين، ومن هذه الميادين ميدان الكلمة والأدب.

الفصل الأول ﴿ اللهِ ا



التصور للكون والحياة والإنسان بين الأدب الإسلامي والحداثة

هنالك فرق شاسع بين نظرة الإسلام والأدب الإسلامي للكون والحياة والإنسان وتصور الحداثة لهذا كله. فرق كبير لا يسمح لهذه النظرة أن تلتقي بتلك.

فمنطلق التصور كله في الإسلام هومن تصور الألوهية والربوبية كما يعرضه منهاج الله . فالله هو الأول والآخر والظاهر والباطن، والله هو خالق كل شيء وهو رب كل شيء، له الأسماء الحسنى كلها:

وكذلك:

﴿ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَوَتِ وَٱلْأَرْضَ يُحِيء وَيُمِيثُ وَهُوَعَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيدُ ﴿ هُوَ ٱلْأَوْلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّهِرُ وَٱلْبَاطِنُّ وَهُوبِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد: ٢:٣)

هذه هي الألوهية الممتدُّ وصفها في منهاج الله وصْفاً ميسرًاً للذكر، وصفاً لا يدع حجة لأحد أن لا يتدبره ويعيه . والربوبية نتدبر تصورها ونعيها من منهاج الله كذلك. وهنا نأخذ قبسات لنشير إلى فكرة وتصور، وليعود المؤمن إلى منهاج الله ليأخذ من هناك التصور المتكامل المتناسق. ولا نستطيع أن نفصل تصور الألوهية عن الربوبية فهي من صفات الله الذي لا إله إلا هو:

﴿ يَكُمُوسَى ٓ إِفِّتِ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَكَمِينَ ۞ ﴿ وَالقصص: ٣٠)

﴿إِنَّ إِلَهَ كُمْ لَوْسِدُ ١ أَتُ السَّمَوَتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ٥ ﴾

(الصافات: ٤ ـ ٥)

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ . . . ﴾ (الأنعام ١٦٤)

﴿ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَالِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهُ إِلَّا هُوَرَبُ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ١٠٠

(المؤمنون: ١١٦)

وهذه الآية الأخيرة جمعت اسم الجلالة (الله)، ومعنى الألوهية ومعنى الربوبية في صورة معجزة ميسرة للذكر والتدبر، لمن شاء أن يتدبّر.

* * *

أما الكون فيرسم منهاج الله _ قرآناً وسنة _ لوحة رائعة له تعطي العلم الحق عن خلقه ومسيرته وسننه وعن نهايته كذلك. وكما قلنا سابقاً فلا نستطيع هنا إلا أن نقدم قبسات لتذكّر وتعين:

﴿ وَمَاخَلَقْنَا ٱلسَّمَوَتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَابِيَّنَهُمَا لَعِينَ مِنْ مَاخَلَقْنَهُمَ إِلَّا إِلَّهِ الْحَقِ وَلَكِكَنَّ الْحَقْنَاهُمُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْهُمُ لَا يَعْلَمُونَ اللَّا إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَنَتُهُمْ أَجْمَعِينَ فَكَيْ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَنَمُولُ مَنْ يَعْلَمُونَ اللَّهُ إِنَّهُ مُولًا يَعْمَ لَا يُعْنِى مَوْلًى عَنَمُولُ مَنْ يَعْلَمُونَ اللَّهُ إِلَّا مِن تَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ مُواللَّهُ مِنْ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الللْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْمُعْلَى اللَّهُ اللَّ

وكذلك:

﴿ قُلْ أَيِنَكُمْ لَتَكُفُرُونَ بِاللَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ وَ أَندَادَأَ ذَلِكَ رَبُ الْعَالَمِينَ فَيَ وَجَعَلُ فِيهَا رَوَسِي مِن فَوْقِهَا وَبَرُكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقُونَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامِ الْعَالَمِينَ فَي وَجَعَلُ فِيهَا رَوْسِي مِن فَوْقِهَا وَبِكُركَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقُونَهَا فَوْتَهَا فَوْتَهَا أَوْكُرُهَا مَوَاتَ لِللَّهَ آلِينَ لَكُ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاةِ وَهِى دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ الْفَيْدَا طَوَعًا أَوْكُرُهَا فَا لَلْهَ اللَّهَ اللَّهُ اللَّهُ مَا اللَّهُ مَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ مَا اللَّهُ مَا اللَّهُ عَلْمَ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ مَا اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّاللَّهُ الللَّلْمُ الللَّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللللّهُ

(فصلت: ۹-۱۲)

وتمضي الأيات الكريمة تفصل في خلق الكون وامتداده ونهايته بصورة معجزة لتقدّم الحلم الحق ولتجعله ميسراً للذكر والتدبر:

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصَّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَوَتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمُّ اللَّهُ ثُمُ اللَّهُ اللللْمُ اللَّهُ الللللْمُ الللْمُ الللْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللللِهُ اللللْمُ اللَّهُ ال

وتأتي نهاية الكون حين تقوم الساعة ولتبدأ الحياة الأخرة :

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُورَتْ ﴿ وَإِذَا ٱلنَّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِرَتْ ﴾ وَإِذَا ٱلْجِمَارُ سُيِرَتْ ﴾ وَإِذَا ٱلْجُورُ اللَّهُ وَاللَّهُ وَالْمُوالِمُولِمُ اللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّالِي اللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَالِ

صورة هائلة للكون حين تقوم الساعة. وتمتد هذه الصورة بتفصيلات واسعة في منهاج

الباب الثالث الغصل الأول

الله، لتتناسق مع سائـر المـوضوعات وتتكامل كلها لتعرض لنا المنهاج الرباني المعجز، والصورة الكاملة المتناسقة للألوهية والربوبية والكون والحياة ولخلق الله كله.

ويحاول العلماء أن يصلوا بأبحاثهم البشرية وجهودهم المحدودة وطاقاتهم الإنسانية إلى حقيقة بدء الكون والحياة وإلى نهايتها ومن أكثر الدراسات انتشاراً تلك التي ظهرت أخيراً في كتاب: موجز تاريخ الزمن "Stephen W. Hawk" لمؤلفه -A Brief History Of Time" أستاذ الرياضيات في جامعة كيمبردج».

لقد حاول المؤلف أن يصل بالدراسات إلى نشأة الكون التي اعتبرها أو سهاها The Big الثقوب "Black Holes" أي الثقوب "Bang" أي الثقوب السوداء وتجاهل التصورات الدينية لبداية الكون ونهايته بانياً رفضه على ما ورد في التوراة والإنجيل من معلومات تخالف العلم. وقد يعذر في ذلك لولا أنه أدخل الإسلام وما حمله من علم مع ما اعتبره أخطاء في التوراة والإنجيل. وكان واضحاً أنه لا يعرف الإسلام ولم يدرسه وإنها ظنّ أن ما يعرضه الإسلام عن بدء الكون ونهايته هو مشابه لما عرضته اليهودية والمسيحية، دون أن يفطن إلى ما طرأ من تحريف في الديانات السابقة، وما أدخله بعض رجال الدين لديهم من آراء بشرية أصبحت جزءاً من الدين. فهو يقول في كتابه:

«لقد دُرست هذه الموضوعات قبل اليوم بزمن كثير في علوم الكونيات، وفيها جاءت به الديانات اليهودية والمسيحية والإسلام، حين اعتبرت هذه أن الكون بدأ في لحظة محددة من الزمن لا تبتعد عن عصرنا الحالي كثيراً. وقال إن القديس أوجاستين اعتبر أن الكون نشأ منذ خمسة آلاف سنة قبل ميلاد عيسى عليه السلام»(١).

ولو أن المؤلف درس القرآن والسنة لجاءت دراساته أقرب إلى الدقة، ولوفّر على نفسه جهداً كثيراً، ولاتجهت دراساته إلى منحى أسلم وأعدل. واسمع مقدم الكتاب «كارل ساجان Carl Sagan » من جامعة كورنل "Cornell University" ماذا يقول: «إن هذا الكتاب هو عن الإله أيضاً أو عن غياب الإله. فكلمة الإله تملأ صفحات الكتاب. إن

⁽۱) «A Brief History of Time» طبع الكتاب أكثر من (۳۵) طبعة منذ سنة ۱۹۸۸م حتى سنة ۱۹۹۲م. (ص: ۷).

(الجن: ۲۱ - ۲۸)

المؤلف هوكنج ينطلق في ميدان البحث ليجيب على سؤال آنشتاين الشهر هل كان للإله ي اختيار أو رأي في خلق الكـون. إن هوكنج، كما يذكر هو نفسه، يحاول أن يدرس ويفهم عقل الإله. وهذه المحاولة جعلته أكثر من ذي قبل يصل إلى نتيجة: إن الكون لا حذَّ له، لا بداية له ولا نهاية ، ولا يوجد شيء لخالق أن يعمله ١٠٠٠

وأنا أقرأ هذا الكتاب المذكور كنت أشفق حقًّا على المؤلف وهو يتيه في ظلام شديد دامس، يتخبُّط بالظنون والافتراضات، ويحاول أن ينزلها منزلة الحقائق، دون أن مدرك أنه إنسان مخلوق، محدود الطاقة والعلم، لا يستطيع بكل علومه وطاقاته أن يخترق الغيب: ﴿ عَلِمُ ٱلْعَيْبِ فَكَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ الْحَدَّا فَ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولِ فَإِنَّهُ لِمُسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ مَرْصَدًا ۞ لِيَعْلَرَأَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَنتِ رَبِّهمْ وَأَحَاطَ بِمَالَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًّا 🖎 ﴾

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَوَتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (النمل: ٦٥)

أما الحياة فيفَصِّل منهاجُ الله كلُّ شؤونها ومسيرتها ونهايتها، ويوضح غايتها. وهنا كذلك لا نستطيع أن نقدّم أكثر من قبسات لتعين وتذكر وليرجع من يريد أن يعرف الحق إلى منهاج الله

﴿ تَبَوَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَعَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوَةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُو أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ٢ (الملك: ١،٢)

فالحياة الدنيا دار ابتلاء وتمحيص وهي بذلك دار غرور، ينتهي بعدها الإنسان إما إلى جنة وإما إلى نار. فالموت حق على كل إنسان والبعث والحساب حق، والجنة والنار حق.

⁽أ) المصدر السابق: (ص: X).

﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِن ثَنَى وَفَكَ مُ الْحَيَوَةِ الدُّنِيَا وَمَاعِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَا مَـ نُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ ﴾ (الشورى: ٣٦)

وكذلك:

﴿ وَمَا هَاذِهِ ٱلْحَيَوَةُ ٱلدُّنْيَاۤ إِلَّا لَهُوُّ وَلَعِبُ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِى ٱلْحَيَوَانُ لَوْكَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت: 15)

وكذلك:

﴿ كُلُّ نَفْسِ ذَا بِقَةُ ٱلْمُوتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيكُمَةِ فَمَن زُحْنَ ﴾ عَنِ ٱلنَّادِ وَأَدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازُّ وَمَا ٱلْحَيَوْةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَكُ ٱلْفُرُودِ ﴿ عَنِ النَّادِ وَأَدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازُّ وَمَا ٱلْحَيَوْةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَكُ ٱلْفُرُودِ ﴿ اللهِ عَمِانَ : ١٨٥)

﴿ يَنَنِيَ اَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُرْعِندُكُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَالْاَشْرِفُواْ إِنَّهُ الْاَيُعِبُ الْمُسْرِفِينَ ﴿ قَلْمَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِبَاتِ مِنَ الرِّذَقِ قُلْهِى لِلَّذِينَ وَامَنُوا فِي الْحَيَوْةِ الدُّنَيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِينَمَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآينَتِ لِقَوْمِ يَعْلَمُونَ اللَّهِ الْأَعْرَافِ: ٣١، ٣٢)

وهكذا تمضي الآيات الكريمة تفصل في شأن الحياة الدنيا وتوضح أمرها لتكون الحياة الدنيا ممرّاً إلى دار الخلود.

وقد جعل الله في هذه الحياة الدنيا سنناً ماضية لا تتبدّل، ليكون للإنسان فيها آيات بيّنات دالة على الله الذي لا إله إلا هو، وليكون فيها عبرة ودروس:

﴿ سُنَّةُ ٱللَّهِ فِ ٱلَّذِينَ خَلُواْمِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۞ ﴾ (الأحزاب: ١٢)

البأب الثالث الغصل الأول

﴿ لَقَدْكَاتَ فِ فَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأَوْلِي ٱلْأَلْبَابُ مَاكَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَاكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَكَذَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدُى وَرَحْمَةً لِقَوْمِ يُؤْمِنُونَ ۞ ﴾ (بوسف: ١١١)

* * *

أما الإنسان فهو مخلوق عبد لله ربه وخالقه. وتنشأ عزة الإنسان في الحياة الدنيا من هذه الحقيقة الرئيسة، من عبوديته لله ربّ العالمين ورب العرش العظيم وربّ كل شيء. بهذه العبودية يتحرّر الإنسان من عبوديته للأوثان والأساطير، يتحرّر من عبودية الإنسان للشهوات والأهواء والمصالح.

وهذا الإنسان خلقه الله سبحانه وتعالى وكرّمه الله وحمله في البرّ والبحر، ورزقه من الطيبات، وحمله الأمانة وجعل له بها هدفاً واضحاً في الحياة، مشرقاً في دربه ما صدق الله وأوفى بعهده. وحدّد الله سبحانه وتعالى مهمة الإنسان في الحياة الدنيا تحديداً دقيقاً واضحاً لتكون هذه المهمة هي سبيله إلى الهدف الحق الأكبر والأسمى وهو الجنّة. وهذه المهمة حددها منهاج الله بكلمات أربع جامعة هي: العبادة، الخلافة، الأمانة، العمارة، والاستعمار (بمعناها القرآني: ﴿واستعمركم فيها﴾ أي طلب منكم عمارتها). وهذه المهمة يمضي بها الإنسان في الحياة الدنيا من خلال ابتلاء يمحّص الله بها عباده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات برحمته وعفوه ومغفرته، ولتحق كلمة العذاب على الكافرين. فيدخل المؤمنون الجنّة برحمة الله، ويدخل الكافرون النار بها كسبت أيديهم وتحقّ كلمة العذاب على الكافرين.

وخلق الله عباده كلهم على الفطرة ، فطرة الإيهان فجاءت الشياطين فاجتالتهم وانحرفت من ضلّ عن جادة الحق . وأخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم في عالم الغيب، وأشهدهم على أنفسهم ﴿ ألست بربكم ﴾ ، فشهدوا شهادة الحق : «لا إله إلا الله» حتى لم

الباب الثالث الغصل الله ل

يعد لأحد من عباد الله حجّة في كفر أو ضلالة. وجعل الله برحمته في الكون آيات تذكر الإنسان بربه وخالقه فعمي عنها الضّالون وخشع لها المؤمنون. وجعل الله برحمته في الحياة الدنيا، كها ذكرنا قبل قليل، سنناً لتكون آية وعبرة، وبعث الله الرسل والأنبياء حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. وختم الأنبياء والرسل بمحمد على وأنزل معه القرآن ليكون منهاج الله محجّة بيضاء للناس كلهم، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

يفصّل منهاج الله هذه الحقائق تفصيلاً معجزاً ميسرّاً للذكر، حتى يعود الصادقون إلى منهاج الله صحبة عمر وحياة، فيجدوا الحق الذي لا يأتيه الباطل أبداً.

وكم أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم، كذلك أخذ الله من النبيين جميعاً العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم أن محمداً رسول الله وخاتم النبيين فشهدوا وبلّغوا وتمت الشهادتان حقاً من عند الله:

«أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله».

بهذه الحقائق التي عرضناها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، حاولنا أن نوجز التصور القرآنيّ النابع من منهاج الله عن الكون والحياة والإنسان، ليكون هذا التصور هو التصوّر الملزم للأدب الإسلامي، وليخرج الأدب الإسلامي منه وينطلق منه ويمضي مصاحباً له لا يخرج عنه.

وبهذه الحقائق وسائر الحقائق الأخرى في منهاج الله نخرج بقضايا محددة ترسم الصورة العامة لذلك كله:

- ١ ـ إن قضية الإيهان والتوحيد أخطر قضية في حياة كل إنسان وهي أكبر وأهم حقيقة في الكون كله.
- إنها قضية الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وعندما تنحرف الفطرة بها يرتكب
 الإنسان من آثام ومعاص، وبها يصر عليه منها دون توبة، ينحرف الإيهان في الإنسان
 عندئذ.
- ٣ ـ لابد أن يحمل الإنسان المؤمن التصوّر الكامل المتناسق للألوهية والربوبية يأخذه من فطرته ومن منهاج الله، تصوراً يجمع الأسهاء الحسنى كلها في آن واحد لا يسقط منها

الباب الثالث الغصل الإيل

شيء. ولابدّ أن يحمل كذلك التصور الكامل المتناسق لعبودية الإنسان لربه وخالقه.

- ٤ قضية الإيهان والتوحيد تقضي أن يكون ولاء الإنسان الأول هو لله سبحانه وتعالى. ومن هذا الولاء ينبع أي ولاء آخر ويرتبط به. وكل ولاء مخالف للولاء لله هو خروج وانحراف عن الإيهان والتوحيد.
- وكذلك يكون عهد الإنسان الأول مع الله. وكل عهد آخر ينبع من هذا العهد مع
 الله ويرتبط به. وكل عهد مصادم أو مخالف للعهد مع الله هو انحراف عن حقيقة
 الإيهان والتوحيد.
- ٦- أن يكون الحبّ الأكبر للإنسان هو لله ولرسوله. وكل حبّ في حياته الدنيا ينبع من هذا الحب الأكبر لله ولرسوله هو انحراف عن الإيبان والتوحيد.
- ٧ إن قضية الإيهان والتوحيد هي قضية مفاصلة وحسم، وقضية تكاليف من عند الله
 والتزام بها، وقضية مسئولية وأمانة وحساب.
- ٨ ـ إن منهاج الله هو الذي يحدد قضية الإيهان والتوحيد، والتكاليف والالتزام، والمسئولية
 والأمانة والحساب.
- لذلك يكون أول الواجبات بعد الإيهان هو مصاحبة منهاج الله لمعرفة التكاليف والالتزام، والمسئولية والأمانة والحساب.
- ١٠ ـ ثم ينطلق المؤمن ليوفي بعهده وأمانته مبتدئاً بنفسه، ثم بدعوة الناس إلى هذه الرسالة العظيمة.

* * *

إننا نوضح هذه القضايا لندرك أن التصور الحق حدده الله رب العالمين. فليس لأحد من البشر أن يتبع هواه فيضع تصورات من عنده ثم ينسبها للإسلام مصادماً النصوص الصريحة.

فمن أهم ما نصّ عليه الإسلام هو منزلة الكلمة ودور الأدب وشدّة المحاسبة على الكلمة يلقي بها الرجل فتهوي به في النار. وكها جاء في حديث رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «... وهل يكبّ الناس على وجوههم (أو قال على مناخرهم) في جهنم إلا حصائد ألسنتهم» (رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح)(1)

من هذا التصور ينطلق الأدب الإسلامي وهو يحمل مسئولية رسالة، وأمانة عهد وميثاق.

* * *

فإذا كان هذا هو التصور الذي يعرضه منهاج الله عن الكون والحياة والإنسان، فهاذا عرض رجال الحداثة؟!

لقد سبق معنا في الأبواب والفصول السابقة كثيراً من تصوراتهم عرضها كهال أبوديب، وأدونيس، وخالدة سعيد، وقبل ذلك كانت وهيجل وماركس وفريدريك انجلز، وقبل ذلك رجال من انكلترا وفرنسا، كلهم أخذوا من مصدر واحد هو وثنية اليونان وأساطيرهم.

ولا بأس أن نعيد هنا نهاذج من تلك التصورات حتى يسهل مقارنتها مع الحق الذي يعرضه الإسلام.

يقول أدونيس: «الله في التصور الإسلامي التقليدي نقطة ثابتة متعالية منفصلة عن الإنسان. التصوّف ذوب الألوهية جعله حركة في النفس، في أغوارها، أزال الحاجز بينه وبين الإنسان. وبهذا المعنى قتله وأعطى للإنسان المتصوف طاقاته. المتصوف يحيا في سكر يسكر بدوره العالم. وهذا السكر نابع من قدرته الكامنة على أن يكون هو والله واحداً. صارت المعجزة تتحرّك بين يديه»(۱).

⁽١) سنن الترمذي. كتاب الإيهان (٤١). باب (٨) حديث (٢٦١٦).

⁽٢) أدونيس. (علي أحمد سعيد). مقدمة للشعر العربي. دار العودة. بيروت ط٤ ١٩٨٣م. (ص: ١٢٧).

واضع أن الكلام لايخرج إلا من رجل ثمل فقد وعيه وتاه في ظلام دامس، وجهالة عمياء.

ويقول كهال أبوديب: وليست البنيوية فلسفة لكنها طريقة في الرؤية ومنهج في معاينة الموجود.. ولأنها كذلك تصبح ثالث حركات ثلاث في تاريخ الفكر الحديث يستحيل بعدها أن نرى العالم ونعاينه كها كان الفكر السابق علينا يرى العالم ويعاينه. مع ماركس ومفهومي الجدلية والصراع الطبقي، بشكل خاص، أصبح محالاً أن نعاين المجتمع كها كان يعاينه الذين سبقوا ماركس. ومع الفن الحديث، وبعد أن رسم بيكاسو كراسيه، كها يعبر روجيه غاردوي، أصبح محالاً أن نرى كرسياً كها كان يراه الذين سبقوا بيكاسو. ومع البنيوية ومفاهيم التزامن والثنائيات الضدية، والإصرار على أن العلاقات بين العلامات، لا العلامات نفسها، هي التي تعني، أصبح محالاً أن ترى الوجود ـ الإنسان والثقافة والطبيعة ـ كها كان يعاينه الذين سبقوا البنيوية (۱).

ونعيد ما قالته خالدة سعيد: «... غير أن الحداثة أكثر من التجديد... وترتبط الحداثة بالانزياح المتسارع وأنهاط العلاقات والإنتاج على نحو يستتبع صراعاً مع المعتقدات......

ثم تقول عن جبران: (... يجعل الإنسان مصدراً للمعايير بدلاً من أن يكون خاضعاً لمعايير من الخارج... كان جبران يستعيد للإنسان صلاحية وضع المعايير وكسر الشراثع وكشف الحقائق، (٢).

هذا هو تصور الحداثة والبنيوية للألوهية والحياة والكون والإنسان. إنه تصوّر معارض كل المعارضة للتصور الإسلامي، بل إنه مصادم له كل المصادمة، خارج عن حقائق الإيهان والتوحيد، وعن كل ما عرضناه في الصفحات السابقة.

⁽۱) د. كمال أبو ديب. كتاب جدلية الخفاء والتجلي. (ط: ٣) ١٩٨٤م - دار العلم للملايين. بيروت. (ص: ٨،٧).

⁽٢) مجلة الفصول. مجلد (٤) عدد (٣) (ص: ٢٥، ٣٦).

وهذا التصوّر الباطل الذي أوجزناه، ليس جديداً ولم يبتدعه أدونيس أو كهال أبوديب أو خالدة سعيد أو غيرهم من عند أنفسهم، وإنها نقلوه نقلًا عن أوروبا وفلاسفتها.

ولقد سبق معنا ما قاله «كانت» عن التنوير: «التنوير هو تحرر الإنسان من الوصاية القائمة بداخله. إن هذه الوصاية تعني عجز الإنسان عن الاستفادة من قدرته على الإدراك والفهم دون توجيه من غيره. والإنسان لم ترشده الغريزة، ولم تغذه المعلومات الجاهزة...»(۱).

ويقول رئدل كذلك: «... وهذا الفهم للحداثة يرتبط بالقضية الأوسع، قضية فلسفة علم الإنسان Anthropology. ومع امتداد الاتجاه العقلاني والثقافي الواسع امتداداً ضمّ عهد النهضة وعهد الإصلاح وعهد التنوير، فقد أخذت فلسفة علم الإنسان تعاد صياغتها لتدل على العلاقة بين الإنسان، أو الموضوع الإنساني "Human Subject" وبين عالمه الخاص، ليصبح هذا الموضوع الإنساني مستغنياً عن مصادر خارجية ... »(۱).

ولودفيج فيورباخ، كما ذكرنا سابقاً، جعل العقل والإنسان هو الإله. واعتبر الإنسان هو مركز الوجود كله. وقديماً قال ديمقريط وأبيقور: «إن هذا العالم لم يخلقه أحد». وقال لاميتري وغولباخ وديدرو الفرنسيين مثل هذا القول، وقامت النظرية المادية والجدلية. والنظرية المادية التاريخية على هذا التصور المادى الإلحادي.

وكما بينا سابقاً في فصل «جذور الحداثة» أن المادية والمثالية تشتركان بالانحراف الشديد عن الإيمان والتوحيد.

إن التصور الإسلامي الذي عرضناه عن الكون والحياة والإنسان يدّفع أدباً ملتزماً بالإسلام، وهذا التصور الذي عرضناه للحداثة عن الكون والحياة والإنسان يدفع أدباً آخر مختلفاً مصادماً للإسلام وتصوراته وأدبه.

والمذاهب الفلسفية الأوروبية كلها تتبنّى أفكاراً وتصورات مصادمة للإيهان والتوحيد. ومها اختلفت في مذاهبها فإنها تلتقى عند هذه المصادمة والانحراف.

⁽۱) جون. أف. رندل Origins of Modernity (ص: ۲،۱).

⁽٢) المرجع السابق، (ص: ٣).

إذن لا يمكن أن يكون السعي المتفلت من الإيهان، ولا يمكن أن يكون وعي العصور والحقب والأجيال، حسب التعريف الذي استشهد به محمد برادة، ولا يمكن أن تكون الرؤية للعالم والإنسان كها أرادها كهال أبوديب، ولا يمكن أن تكون المذاهب الفلسفية لمتعددة سبيلًا واحداً. كلا! إنها سبل شتى على رأس كل منها شيطان يدعو إليها، إذا كانت هذه السبل متفلتة من الإيهان، عازلة له، مهها زيّنت نفسها بزينة الألقاب وزخرف القول. هذا ما يقرره رسول الله على السلامة المناه المنا

The state of the s

الفصل الثانى

مصادر المعرفة بين الأدب الإسلامي والحداثة

تعتبر الحداثة أن مصدر العلم والمعرفة ليس غيبياً، ولا هو خارج عن نطاق الإنسان وعالمه. وأن الإنسان نفسه مصدر المعايير، وأن المعارف القديمة التي تحوّلت بفعل ثباتها إلى معتقدات تنزاح وتتحول مثلها مثل الإنتاج وأنهاط العلاقات، على نحو يستتبع صراعاً مع المعتقدات. وسبق أن أوردنا ما يقوله «كانت» عن الإنسان من أنه لم ترشده الغريزة ولا المعلومات الجاهزة وإنها عليه أن يوفر كل شيء من مصادره الذاتية. . . ! بمثل هذا المنطق والمحتوى تتردّد تعبيرات كثيرة من عند أدونيس وخالدة سعيد وكهال أبوديب وغيرهم من رجال الحداثة، وكذلك في أوروبا منذ عهد اليونان إلى العصر الحاضر.

إلا أن الإسلام يقرّر مصادر أخرى للمعرفة والعلم في حياة الإنسان، وأن هذه المصادر كلها ترتبط بالله سبحانه وتعالى، على أساس من نظرة الإسلام الحقة للكون والحياة والإنسان:

نعم! ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ * إِلَّا بِمَا شَاءً . . . ﴾ قاعدة أساسية في

العلم والمعرفة في ميزان الإسلام.

ويسر الله للإنسان مصادر للعلم برحمته وفضله، حتى يستطيع الإنسان أن يؤدي الأمانة التي حملها، ويقوم بالعبادة التي خُلِقَ من أجلها، ويحقق الخلافة والعمارة في الأرض، على منهج ربّانيّ حق.

وهذه المصادر كلها ميسرة للإنسان مع الزمن كله. وهي تترابط كلها فيها بينها حتى تبدو كأنها مصدر واحد. كيف لا! والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيءٍ مِنْ عِلْمِهِ ۗ إِلَّا بِمَا شَاءً ﴾

ويقول سبحانه وتعالى كذلك:

﴿ ... وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ الْمَوْدَ: ٢٨٢).

إن علم المعرفة "Epistemology" يرفض هذا التصور كله، كما عرضنا سابقاً. ويرفض المصادر التي يحدّدها الإسلام للعلم والمعرفة.

ولننظر في مصادر العلم والمعرفة كما يحددها منهاج الله. ونعيد ما قلناه سابقاً من أننا نورد هنا قبسات، والتصور الكامل المتناسق لهذه المصادر هو في منهاج الله.

وأول هذه المصادر ما علمه الله سبحانه وتعالى لأدم في الجنة، والفطرة التي فطر الله الناس عليها، وغرس فيها الإيهان والتوحيد، ووهبها القدرات والنوازع والرغبات، حتى كأنها مستودع لما وهمه الله للإنسان من قدرات وطاقات.

﴿ وَعَلَّمَ مَا دُمَ الْأَسْمَاءَ كُلُّهَا ﴾ (البقرة: ٣١)

﴿ فَأَقِدْ وَجَهَكَ لِلِدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيَهُ لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهُ ذَالِكَ ٱلدِّيثُ ٱلْقَيِّدُ وَلَاكِرَ أَكْ أَلْتَ السَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ ﴾

(الروم: ٣٠) والمصدر الثاني هو الوحي والنبوة، وما تبلغه النبوة لنا وحياً من عند الله، حقّاً مطلقاً، خُتِم بالنبوّة الخاتمة، بمحمد ﷺ، وبالمنهاج الربّاني قرآناً وسنة _لساناً عربياً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِالذِّكُرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ الْكِنَابُ عَزِيزٌ الْ لَا مَا فَدْقِيلَ لِلرَّسُلِ مِن يَدَيْهِ وَلَامِنْ خَلْفِةِ مَّ مَنْ يَلِي مَرْمِيدٍ اللَّهِ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا فَدْقِيلَ لِلرَّسُلِ مِن يَدَيْهِ وَلَامِنْ خَلْفِةً مَّ مَنْ لِلرَّسُلِ مِن مَنْ فَا أَنْ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَل

وكذلك:

﴿ وَأَنزَلْنَا ٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِ مُصَدِقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهُ ﴾ عَلَيْهُ ﴾

وكذلك:

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَىٰ صَرَطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۞ ﴾ صرط ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۞ ﴾

﴿ الْرَكِنَابُ أُخْرِكُمْتُ ءَايَنَانُهُ وَثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَرِيمٍ خَبِيرٍ ۞ ﴿ (مود: ١)

﴿ الْمَرْ تِلْكَ اَينَتُ الْكِنَابِ وَالَّذِى أَنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِكَ ٱلْحَقُّ وَلَكِنَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ ﴾ (الرعد: ١)

هذا هو المصدر الغنيّ العظيم الممتـدّ بالحق مع الـزمن، يظلّ المؤمنون ينهلون منه

(الذاريات: ٢١)

ليخوضوا بزادهم الكريم منه شتى الميادين، وليدفعوا بهذا الزاد الغني رواثع الأدب الإسلامي .

والمصدر الثالث هو الكون الممدود وسعي الإنسان الممتد فيه، يتعرف من خلال سعيه وبحثه ودراساته على سنن الله في الكون والحياة، وفي واقع الإنسان وتاريخه، وهو يسعى سعي المؤمن لينظر فيبصر، ويتأمل فيعتبر، حتى يكون له من سعيه علم مفيد يبلغه على سنن لله ماضية وحكمة غالبة، ليرى من خلال هذا آيات لله بينات في الكون والحياة:

﴿ ٱلْمَرْتَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَرَلَكُمْ مَّا فِي ٱلسَّمَ وَتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ وَظَهِرَةً وَبَاطِئَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَدِلُ فِ ٱللَّهِ بِغَيْرِعِلْمِ وَلَاهُدَى وَلَا كِنَبِ ثَمْنِيرٍ ۞ ﴾ (لفان: ٢٠)

﴿ سَنُرِيهِ مَ اَلْكِنَافِ ٱلْآفَاقِ وَفِي ٓ أَنفُسِمِ مَ تَى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُ ۗ أَوَلَمْ يَكُفِ بِرَبِكَ أَنَّهُ, عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدُ ۞ ﴾ (نصلت: ٥٣)

سخر الله الكون للإنسان ليجوب آفاقه على سنن لله ثابتة، وليجمع ما يكتب الله له أن يجمع، وليرى من ذلك كله آيات بينات تزيده إيهاناً بَربّه وخالقه، وتزيده علماً بسننه. وتمتدّ الآيات في الأرض علماً يسعى له الإنسان:

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَنَتُ لِآمُوقِنِينَ نَنَ ﴾ . (الذاريات: ٢٠).

وفي الإنسان نفسه:

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفلًا بُصِرُونَ ١٠٠

وفي تاريخ الإنسان فى الأرض:

﴿ يَعْلَمُونَ ظَنِهِ رَامِّنَ ٱلْحَيَوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُرِّغَنِفِلُونَ ۞ أَوَلَمْ يَنَفَكَّرُواْ فِيَ أَنفُسِمِمُّ مُّاخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَوَتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَاۤ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلِ مُّسَمَّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَنفِرُونَ ﴿ أُولَمْ بَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَكَانَ عَنِقِهُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوَاْ أَشَدَمِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَ آأَكُنْ مِمَاعَمَرُوهَا وَجَآءَتُهُم رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَاكَاكُ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(الروم: ٧ - ٩)

إن علم المعرفة (Epistemology)، وهو أحد العلوم التي تقوم عليها المسيرة التي عرضناها قبل قليل، يتجاهل مصادر العلم هذه بالصورة القرآنية. وكأن عصر التنوير وعصر الحداثة تنحصر علومها ونظرياتها في الآية (٧) السابق ذكرها أعلاه من سورة الروم: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَلِهِرًا مِّنَ الْحَيْرَةِ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهِ اللَّهِ اللَّهُ اللْمُولِمُ الللَّالَةُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ ا

ومصدر رابع للمعرفة هو ترابط الأجيال واتصال العصور وتصفية التراث بميزان أمين.

﴿ يَكَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّاخَلَقْنَكُمْ مِن ذَكْرِ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَكُو شُعُوبًا وَقَبَآبِلَ لِتَعَارَفُوأً إِنَّ اللهُ عَلِيمُ خَبِيرٌ عَنْ ﴿ وَأَنتَىٰ اللهِ عَلِيمُ خَبِيرٌ عَنْ ﴾ (الحجرات: ١٣)

إن انطلاقة الأمة المؤمنة في الأرض وهي تحمل رسالة الله وتبلغها لشعوب الأرض كلها تفتح المجال لتعارف الشعوب على أسس طاهرة نظيفة، وقواعد عادلة حكيمة، تغني معارف الإنسان وتجاربه وتنميها ولا تعني الآية الكريمة تعارف الفساد إلى الفساد والفتنة إلى الفتنة.

إن هذا التصور أو ذاك يلعب دوراً هاماً في صياغة الأدب وفي معناه، وفي مسيرته وفي عطائم، فتصوره مصادر المعرفة، كما عطائم، فتصوره ألحداثة، يدفع أدباً حداثياً مرتبطاً بهذا التصوّر.

وتصور الحياة والكون، وتصور الإنسان ودوره، وتصوّر مصادر المعرفة، من خلال منهاج الله، من خلال التوحيد والإيهان، يدفع أدباً آخر مرتبطاً بهذا التصور، مرتبطاً بمنهاج الله. هذا الأدب الذي يخرج من قلب هذا التصور الإيهاني هو الأدب الإسلامي، يخرج

رافضاً للأدب الـذي ينتج من التصور المبتوت عن التوحيد، المعزول عن منهاج الله، التصور الذي يرى الإنسان مركز الكون والحياة، ولابد أن نعطي هنا مثلًا لهذا التصور الذي يرفضه الإسلام، ويرفضه الأدب الإسلامي.

هذا أول موقف للأدب الإسلامي من الحداثة وأهم موقف، حين يرفض كلّ التصورات التي تحملها «الحداثة» عن الحياة والإنسان والكون وعن مصادر المعرفة، ويلتزم بالتصورات الإيهانية الربانية، كها يعرضها منهاج الله قرآناً وسنة بلسان عربي مبين، وكذلك يرفض الإسلام، والأدب الإسلامي، مصادر المعرفة التي تتوهمها الحداثة، كها بسطها كهال أبوديب وغيره، وكها عبرت عنها نظريات حداثية مختلفة لاتقوم على أساس العلم والمعرفة. هذه التصورات تلعب دوراً رئيساً في بناء الأدب ووظيفته في الحياة.

إذن هنالك قضيتان أساسيتان يختلف فيهما الأدب الإسلامي اختلافاً جذرياً وكلياً عن الحداثة، الحداثة، الحداثة كما عرضتها النصوص السابقة، وكما وصفها بها رجالها ودعاتها. هاتان القضيتان: النظرة والرؤية للحياة والكون والإنسان، ومصادر المعرفة في حياة الإنسان، ومن هنا نشأت القضية الثالثة الهامة وهي مفهوم النمو والتطور كما سبق أن عرضناها.

والخلاف واسع كبير، ذلك لأن الإسلام يربط الإنسان من خلال الإيهان والتوحيد بربة وخالقه أولاً ربطاً يقوم على عهد يوفي به، وميثاقي يلتزمه وولاء خالص لله لا يصح أن يُشرك به شيء أبداً، وحب عظيم لا يعلوه حب أبداً، وتضرع وخشية لا تجوز إلا لله الواحد الأحد رب السموات والأرض ورب العرش العظيم. إنه وعي صادق في الإنسان لحقيقة الألوهية والربوبية، ولحقيقة عبودية الإنسان لله، وعي يتمثل في صدق المهارسة الإيهانية في واقع الحياة. إنه وعي قوي ثابت للحياة الدنيا والأخرة، وعي لنيته ونهجه وأهدافه.

إن الإسلام، من خلال ما ذكرناه، يربط الإنسان بالكون كله ليرى فيه آيات بينات يخشع عندها فلا يستكبر ولا يطغى، ويربطه كذلك بنفسه، بذاته، ليرى ما قدم لغد، وليحاسب نفسه، على ميزان عادل أمين، ويربطه كذلك بالإنسان، بالبشرية، ربط رسالة ومهمة ودعوة، وربط مسئولية وحساب.

من هذا الارتباط يصبح للإنسان المؤمن مهمة حقيقية في الحياة وأهداف بينة واضحة

مشرقة، يؤمن بها ويسعى لتحقيقها ويجاهد من أجلها في سبيل الله، لينشر الخير والصلاح في الأرض، ويحارب الفساد والفتنة التي يحركها «المجرمون» كما سهاهم القرآن الكريم فتتحدد بذلك أهداف الأدب الإسلامي ليصبح أدب الأمانة والمسئولية. هذا الإنسان بهذه الخصائص هو حاجة البشرية كلها. هذا الإنسان بهذه الخصائص هو الذي كرمه الله سبحانه وتعالى، وهو الذي جعل الاعتداء عليه جريمة كبرى، وقتله جريمة أهون منها زوال السموات والأرض.

هذا الإنسان بهذه الخصائص، غير الإنسان الذي تحدث عنه «لودفيج فيورباخ»، وهو غير الإنسان الذي تحدث عنه «ماركس» ووفريدريك إنجلز» وهيجل» و«كانت»، ومن جاء بعدهم من أبناء الحداثة في عصرنا الحاضر.

ومن هذا الإنسان ينطلق العطاء في مختلف ميادين الحياة، على قَدْر ما يهبه الله من وسع هنا أو هناك، وعلى سنن لله غالبة وقدر لله ماض، وحكمة ربانية، والأدب ميدان من ميادين الحياة، يرتبط معها كلها، لتكون هذه الميادين كلُّها، على تناسقها وترابطها، صورة واضحة لمهمة الإنسان وأهدافه في الحياة الدنيا.

هذا الإنسان المؤمن يعلم أن الله سبحانه وتعالى خلقه وجعل له في الأرض مهمة ورسالة، عبر عنها القرآن الكريم بأربعة ألفاظ، كلُّ واحد منها يشير إلى نفس المهمة مع ظلال مختلفة: العبادة، الأمانة، الخلافة والعمارة، ويمضي الإنسان بمهمته هذه من خلال ابتلاء وتمحيص حتى تقوم الحجة له أو عليه يوم القيامة، فإما إلى جنة وإما إلى نار.

والأدب ميدان من هذه الميادين في الحياة الدنيا. ميدان ابتلاء وتمحيص، يدرك المؤمن أنه محاسب بين يدي الله على اللفظة والكلمة، وعلى الخطوة والموقف، وعلى الرأي والسلوك، ونعيد التذكير بحديث رسول الله على الله عاد رضي الله عنه، الحديث الشريف الذي جاء فيه: «... وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم»(١) الأدب الإسلامي هو أدب الوعي والمسئولية الممتدة في الدنيا والأخرة، هو أدب الإيمان

⁽١) سنن الترمذي كتاب الإيهان (١)، باب (٨). حديث رقم (٢٦١٦).

والتوحيد، وهو أدب النمو والتطور والتجديد على أساس من منهاج الله. إنه أدب البيان.

لقد أصبح هناك ألفاظ عائمة ومصطلحات تائهة تموج في فكر الحداثة وأدبها وتلتصق بها: اللامحدود واللانهائي، اللافن، اللاحقيقة، اللاواقع، الهيام من المحدود إلى المطلق، الانعتاق من كل القيود، الثنائيات الضدية الأساسية، العمل المغلق، اعتباطية الإشارة، الفحص الاستبدالي وكثير غير ذلك، مما يرسم معالم أدب الحداثة وفكرها، في تيه وغيبوبة وظلام.

أما أدب الإسلام فهو أدب الإنسان في أحسن درجات وعيه وصدقه، وبيانه ووضوحه، وسعيه وجهاده.

ومن التصوّر المنحرف للحداثة لم يعد لفكرها ولا لأدبها تصوّر سليم لحقائق الحياة، للولادة والموت، للسعي والجهاد. لا يعود الموت يحتل في أدب الحداثة مكانته الصادقة، ولا صورته الأمينة، فلا يستطيع أدب الحداثة أن يمد الإنسان بالقوة الحقيقية التي يحتاجها وهو يمرُّ في سعيه وجهاده، عن الحياة الدنيا كدار انتقال للآخرة، عن الموت وجلاله وهيبته ودروسه وعبرته، ليتحول هذا كله، من خلال الفكر الإسلامي والأدب الإسلامي إلى إيمان راسخ بالله، ووعي صادق لرسالة التوحيد في الأرض، ولمهمة الإنسان في هذه الحياة الدنيا، ولأماله وأشواقه للدار الأخرة.

زاد عظيم تحتاجه الإنسانية كلها، لا يقدمه إلا أدب الإسلام في صدقه ووعيه وإيهانه. ويمكن أن نوجز أهم القضايا التي عرضناها حتى الآن والتي تنحرف بها الحداثة عن الأدب الإسلامي ونهجه. بها يلي:

١ - النظرة للكون والحياة والإنسان وما ينتج عنها من قضايا ترتبط بهذه النظرة أو تلك:
 الولادة والموت، والحياة، والسعي والجهاد، العلاقة مع الكون كله، أهداف الحياة وغاية السعى ومهمة الأدب ودوره.

٢ _ مصادر المعرفة للإنسان.

وننتقل الآن إلى قضية ثالثة تختلف فيها نظرة الإسلام والأدب الإسلامي عن نظرة الحداثة. تلك القضية هي قضية النمو والتطور والسعي إلى الجديد في الجهد البشري وعطائه في الحياة الدنيا.



الفصل الثالث



النمو والتطور والتجديد بين منهجين الإسلام والأدب الإسلامي والحداثة ومذاهبها

إن المسوّع الذي تدّعيه الحداثة لنفسها هو البحث عن الجديد، والرغبة في النمو والتطور، والتغيير والتبديل في شتى ميادين الحياة. ولقد عرضنا نهاذج مختلفة في الفصول السابقة عن نزعة التجديد لدى مذاهب الحداثة المختلفة، وكيف أدت هذه النزعة إلى التطرف والمغالاة في البحث عن الجديد، حتى أصبح التجديد أقرب إلى التدمير والتحطيم ومصادمة سنن الله في الحياة.

والإسلام، والأدب الإسلامي، الأدب الملتزم بالإسلام، يدفع إلى النمو والتطور على أسلوب مغاير كلية لما تنهجه مذاهب الحداثة. فحين يدعو الإسلام إلى النمو والتطور والتجديد فإنه يظل يحتفظ بالثوابت ليقوم عليها التجديد.

نهجان مختلفان، ونظرتان متبانيتان، في قضية هامة في الحياة. ونظرة الإسلام والأدب الإسلامي تنبع من القضّيتين السابقتين: النظرة للكون والحياة والإنسان، ومصادر المعرفة.

وكما تدخل هذه القضية في تحديد موقف الأدب الإسلامي من الحداثة، فإنها تدخل كذلك في تقويم نظرية الحداثة. ولذلك يعتبر هذا الفصل مشتركاً بين الموضوعين الرئيسين في هذا الكتاب وهما: تقويم نظرية الحداثة، وموقف الأدب الإسلامي منها.

ولقد رأيت أن أنقل هذا الفصل إلى هذا الترتيب الجديد، بعد أن كان في الطبعة الأولى للكتاب يمثل الباب الثاني في فصليه. وسبب ذلك، كها رأيت، هو أن ترتبط الموضوعات الرئيسة التي تحدد موقف الأدب الإسلامي في باب واحد.

وإذا كان ما عرضناه في الأبواب السابقة يمثل جزءاً من تقويم ما يمكن أن نسميه نظرية الحداثة، فإننا يجب أن نضع الآن أسلوباً يُسهّل علينا الخروج من هذا الضباب، ويقربنا من العدالة والأمانة في الرؤية والتحليل والتقويم، ويُسهّل علينا ردّ الأمور إلى منهاج الله، ويسمّل علينا تحديد موقف الأدب الإسلامي منها.

من أجل ذلك، لابد أن نقر الحقيقة الأولى وهي أن البحث عن الجديد طبيعة في الإنسان، وجزء من فطرته، وظاهرة متميّزة في تاريخه. فلولا هذه الرغبة الملحة فيه للنمو والتطوّر، وللبحث عن الجديد والحديث، لما استطاع الإنسان أن ينتقل من عصره الحجري إلى واقعنا اليوم، ومن سكن الكهوف إلى الخيام إلى العمائر والقصور، ومن ركوب الدواب إلى ركوب السيارات والطائرات والصواريخ، ولما تقدّم الطب والهندسة وغيرهما من العلوم، ولما تقدمت الصناعات. وفي كل عصر من عصور الإنسان كان هنالك تطور ونمو، وبحث عن الجديد لم ينقطع أبداً. إنها سنة الله في هذه الحياة الدنيا، سنة ماضية، وستبقى ماضية على قدر من الله العزيز الحكيم.

فلا يُعْقَل إذن أن يكون اعتراضٌ على هذا المبدأ وعلى هذا السعي إلى الجديد والحديث، وهما سنة من سنن الله. ولكن الأصل في هذا التغيير والنمو والتطور هو أن يكون عملاً صالحاً، يحمل الخير للإنسان في حياته الدنيا، ويحمل الصلاح والسعادة له فيها، ويحمل النجاة والفوز في الدار الأخرة.

ومضت حياة الإنسان على الأرض فترة من الزمن كان الناس فيها أمة واحدة على دين الإسلام. وكان النمو والتطور ينطلق من واقع الإنسان وفطرته ودينه. ثم افترق الناس، وكفرت طائفة منهم، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، كما تبين لنا الآية الكريمة التالية في سورة البقرة:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِئَبَ

بِالْحَقِّ لِيَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اَخْتَلَفُوا فِيدٍ وَمَا اَخْتَلَفَ فِيدٍ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيْنَتُ بَغَيْنًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اَخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ مَاجَاءَ تَهُمُ الْبَيْنَتُ بَعْفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيْنَ عُمْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى مِرَطِ مُسْتَقِيم عَنْ ﴾ (البقرة: ٢١٣)

نعم! ﴿ فَهَدَى اللَّهُ ٱلَّذِينَ وَامَنُوا لِمَا أَخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْ نِهِ * ﴾

ومضى نهج الإيمان خطّأ ممتداً في حياة الإنسان، يدفع إلى الجديد الطاهر، ووالحديث النافع، والنمو والتطوّر. وكان نوح عليه السلام أوَّلَ الرَّسل إلى أهل الأرض، كما جاء في حديث الرسول على الذي رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، والذي جاء فيه: و... اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون يا نوح أنت أوَّلُ الرسل إلى أهل الأرض. ... اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون يا نوح أنت أوَّلُ الرسل إلى أهل الأرض. ... (رواه البخاري)(١).

ومنذ تلك اللحظة في تاريخ الإنسان أصبح هناك نهجان! وظلَّ نهج الإيهان عتدًا في الحياة لا يغيب عنها أبداً، تحمله الفئة الظاهرة التي حدَّثنا عنها رسول الله ﷺ، وهي تتعرَّض للفتنة بعد الفتنة، تُبْتَلَى وتظل صادقة على أمر الله، لا تساوم على حق ولا تتنازل عنه، ولا تضعف أمام فتنة ولا يخدعها زخرف، في أي ميدان من ميادين الحياة.

فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ لا يضرّهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». (رواه مسلم)(٢).

وعن جابر بن سمرةُ رضي الله عنه ، عن النبي على ، أنه قال : «لن يبرح مذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة » (رواه مسلم) (").

ويأتي هذا الحديث الشريف في تسع روايات صحيحة ، تضع كلها خصائص هذه الفئة الظاهرة في حياة البشرية وتجمعها ، لتظل هذه الخصائص تدفع الطائفة الظاهرة على النهج

⁽١) صحيح البخاري. كتاب (٦٠). باب (٣).

⁽٢) صحيح مسلم. كتاب (٣٣). باب (٥٣) حديث (١٩٢٠/١٧٢).

⁽٣) المرجع السابق والكتاب والباب، حديث: (١٩٢٢/١٩٢١).

الإيهاني، ولتظل تدفع الجهد الإنساني إلى كل خير وصلاح، على أكرم سبيل ونهج، لا على اضطراب، وعلى أهداف محددة لا في تيه مظلم، ومن خلال وسائل طاهرة لا تحمل الإجرام والفساد في الأرض.

وهي طائفة ظاهرة ماضيةً في الأرض، ماضية في الزمن، لا تستطيع قوة مادية في الأرض إزالتها. إنها قدر الله الغالب، ومشئيته الماضية، وحكمته العادلة. واستمع إلى كتاب الله يحدثنا عن مضى هذه الطائفة في الأرض والزمن:

﴿ فَكُوْلًا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْبِقِيَّةٍ يَنْهَوَّنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّاقَلِيلًا مِتَمَّنَ أَنِحَيْنَا مِنْهُمُّ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْمَاۤ أُتَّرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُحْرِمِينَ شَنْ ﴾ (هو: ١١٦)

إذن هنالك نهجان متهايزان: فهذا هو نهج الإيهان الممتدّ في الأرض والزمن:

﴿ . . . أُوْلُواْ بَقِيَةٍ يَنْهَوْ نَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ . . . ﴾ وذاك هو نهج الظالمين المجرمين الذين اتبعوا ما أُترفوا فيه وكانوا مجرمين!

نهجان متهايزان في تاريخ البشرية: نهج ممتد مستقيم لا يلتوي ولا يتناقض ولا يضطرب، يبحث عن الجديد، ويدفع إلى النمو والتطور على فطرة سليمة. فهذا هو نهج الإيهان. ونهج متناقض مضطرب، منقطع على فطرة قلقة منحرفة.

ونهج الإيهان نهج مستقيم! أما النهج الآخر فهو متعدَّد السبل، متشعب المسالك، كلُّ سبيل أو مسلك يدعو إلى ضلالة. وآية في كتاب الله وحديث لرسول الله ﷺ يوضحان الصورة ويقارنان بين النهجين. أما الآية فهى:

﴿ وَأَنَّ هَلَا اصِرَطِى مُسْتَقِيمًا فَأَتَّبِعُوهُ وَلَا تَنَّبِعُواْ السُّبُلَ فَلَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ * ذَلِكُمْ وَصَّنَكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَنْقُونَ مِنْ ﴾ (الانعام: ١٥٣) الباب الثالث الغطل الثالث

وأما الحديث فهو:

عن عبدالله بن مسعود قال: «خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطّاً ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خطّ خطوطاً عن يمينه وشهاله ثم قال: هذه سُبُل متفرقة، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه. ثم قرأ الآية: ﴿وأن هذا صراطى مستقيعاً...﴾»

صدق الله ورسوله! لقد رأينا التناقض في مصطلح الحداثة وفي ترجمته، ورأينا ذلك في التعريف، فرأينا سبلًا شتى، على رأس كل سبيل شيطان من أمثال أدونيس وكهال أبوديب وغيرهما. ألم يقولوا هم بأنفسهم: الحداثة قلق، حمّى، توتره، جرثومة، اضطراب وتناقض؟ وسنرى تأكيد ذلك في دراستنا الموجزة هذه.

من هذا العرض الموجز نرى بعض ملامح الحداثة في ميزان الإيهان ونرى شدة خروج خصائصها عن نهج الإيهان والتوحيد، حتى يكاد يظهر لنا أنه من الصعب أن نعتبر أن للحداثة نظرية ثابتة، أو «نهجاً واضحاً محدداً» ولكن هناك خصائص متناقضة مضطربة، متغيرة متبدّلة. وإذا قلنا «نظرية الحداثة»، فإن ذلك من باب التجاوز! وعندما يخرج الإنسان عن نهج الإيهان، تنفلت رغباته وشهواته وأهواؤه، لتقود هي النمو المضطرب والتطور المتناقض.

مضت إذن الرغبة بالتجديد والتغيير، والرغبة بالنموُّ والتطوُّر، الرغبة الراسخة في حياة الإنسان وفي طبيعته، بين هذين النهجين: نهج الإيهان، ونهج الظالمين المجرمين كها سهاهم القرآن الكريم.

وتصبح القضية إذن أن لا نرفض النموَّ والتطوَّر والسعي إلى الجديد، فذلك أمر في فطرة الإنسان، وهو أمر يدعو إليه الإسلام ويرعاه، ولكن أن نميّز بين اتجاه واتجاه، ومسعى ومسعى . فالسعي وراء الجديد وطرق التغيير في حياة الإنسان لم تأخذ منحى واحداً ولا اتجاهاً واحداً. وإنها ضرب هذا السعي في اتجاهات كثيرة. ولتسهيل الدراسة والتقويم،

 ⁽١) الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد. ترتيب وتأليف أحمد عبدالرحمن البنا. المجلمد (١٨).
 (ص: ١٤١). وقال المؤلف أخرجه مالك والنسائي وابن جرير وابن مردويه وصححه الحاكم.

وخضوعاً للقواعد الأربع التي ذكرناها في أوَّل حديثنا، فإننا نقسم جميع هذه الاتجاهات إلى نهجين متهايزين.

وفالحداثة الفظة استخدمها أصحابها، ووضعوا لها خصائص من عند أنفسهم، خصائص كانت عدّدة من الناحية النظرية، وكانت عدّدة في المهارسة والسلوك والمواقف. وأهم هذه الخصائص التي حددها مفكرو الحداثة في الغرب هو الانفصام عن الماضي، وعاربة التراث كله، وسينكشف لنا إصرار بعض الحركات الحداثية على هذه القضايا والتقاؤها عليها، مها كان بينها من اختلاف، حتى صار هذا المصطلح والحداثة بهذه الخصائص، عَلَماً عليهم وحدهم، ودليلاً على منهجهم. ولذلك لا نرى من المنطق أن يستعير أحد هذا المصطلح منهم، كما سبق أن استعرنا الاشتراكية والديمقراطية، وربها نستعير غداً البيروسترويكا ونقول: البيروسترويكا الإسلامية. وكلما نعق ناعق فزعنا لمصطلحه ومعناه ومبناه، نتسوًل، وقد أغنانا الله عنهم جميعاً.

وفالحداثة ، إذن سنستخدمها في دراستنا هذه لندل على هذا المنحى في السعي للتغير وطلب الجديد والتطور بهذه الخصائص الرئيسة . وبذلك يقابلها المصطلحان الغربيان "Modernism, Modernity" في آن واحد ، دون أن نفرق بينها هنا . وقد تكون التفرقة بين المصطلحين الغربيين مفيدة في غير هذه الدراسة . إذن هذا هو ونهج الحداثة ، الذي سنتابع دراسته وتقويمه . وهو يشمل جميع الاتجاهات والحركات ، وكل مسعى حمل هذه الخصائص في طلبه للتغيير وسعيه للجديد ، في أي ميدان من ميادين الحياة .

إن هذا التصوّر المنحرف للكون والحياة قديم في حياة الإنسان. لم يكن «كانت» ولا «هيجل» ولا «ماركس» أول من وضعه. إنه ابتدأ عندما افترق الناس فريقين بعد أن كانوا أمة واحدة، وبعد أن أرسل الله لعباده أول الرسل نوحاً عليه السلام، كما سبق أن ذكرنا.

ونجد في تاريخ الإنسان تصوراً لهذا الانحراف يعود إلى أيّام اليونان، حين قال «ديمقريط» ووأبيقور» اليونانيان: وإن هذا العالم لم يخلقه أحد»(١) وتابع هذا الكفر رجالً على مدّ التاريخ منهم المادّيون الفرنسيون: «لاميتري» ووغولباخ» وووديدرو»، والمادي الألماني

⁽١) المادية الديالكتيكية _ جماعة من الاساتذة السوفيت. (ص: ٣).

البأب الثالث الغالث

«لودفيج فيورباخ»، ثم جاء ماركس وإنجلز(١)، كها ذكرنا سابقاً.

لم يكن الانحراف عن الإيهان تُمثّله هذه النظرة المادية فحسب. ولكن النظرة والمثالية التي ظهرت في تاريخ الإنسان كانت تمثل انحرافاً حقيقياً عن الإيهان والتوحيد أيضاً. والفلسفة المثالية تعتبر أن الفكر أو الروح أسبق في الوجود من المادة. ما هو الفكر؟! ما هي الروح؟! الإجابة على هذه الأسئلة استغرقت تاريخ الفلسفة المثالية. وقد تبنّى هذه النظرة وأفلاطون اليوناني قديها، ووبيركلي، الإنجليزي في القرن الثامن عشر، ثم جاء «هيجل» الألماني في الربع الأول من القرن التاسع عشر ليخطوا بالفلسفة المثالية خطوات واسعة.

وإذا كان «رندل» يعتبر أن جذور «الحداثة أو العصرية Modernity هي عند «كانت» و«هيجل» و«ماركس»، فقد قدّم لنا بذلك دليلًا على أن «الحداثة» هي نقطة لقاء الفلسفتين المثالية والمادية، ولقاء الرأسماليّة والشيوعية، والديمقراطية والديكتاتورية، كما سيتضح معنا من سياق هذا البحث.

ولكن ما هي فحوى الفلسفة المادية والفلسفة المثالية؟ كلمات تتردَّد كثيراً على مسامع الناس، ولعل القارى الكريم يجد في نفسه الرغبة ليعرف شيئاً عن هذه وتلك. فلا بأس أن نقدّم هنا تصوّراً موجزاً للفلسفة المادية والفلسفة المثالية، دون أن ندخل في تفصيلات تخرجنا عن الموضوع، ولكن نقدّم ما نظن أنه يساعدنا على حسن متابعة دراستنا للحداثة ونشوئها ونموها.

لقد كانت القضية الأساسية التي تصوغ النظريات الفلسفية هي النظرة إلى هذا العالم. والنظرة إلى هذا العالم ومحاولة فهمه من خلال الجهد البشريّ وحده، والتفكيرُ المنطلقُ من تأمل الإنسان المجرّد وظنونه، طرح في تاريخ الفلسفة نظريتين أساسيتين: الفلسفة المادية والفلسفة المثالية. فأما الفلسفة المادية فتعتبرُ كلَّ الظواهر التي نُعَالجها والوجود كلَّه وجوداً خارجاً عن وعينا، منفصلاً عنه، كله مادة، لم يخلقه أحد، والطبيعة موجودة أزلياً، ولا وجود لقوى خارقة للطبيعة يُزعم وجودها خارج العالم.

⁽١) المرجع السابق. (ص: ٣).

الباب الثالث الغصل الثالث

وتعتبر أن هذا الوجود المادي هو الوجود الأسبق والأول، ثمَّ تلا ذلك الوعيُّ والعقلُّ والفكرة. فالمادة في هذه الفلسفة هي وحدها التي تحدد الفكر والوعي. والفكر والوعي والعقل، هذا كله هو ما تسميه الفلسفة «بالروح».

وأما الفلسفة المثالية فترى أن الروح هي الأسبق في الوجود، ويعتبرون أن الروح (الفكر والعقل والوعي) كانت موجودة قبل الطبيعة .

فالخلاف الأساسي بين الفلسفتين إذن هو السؤال: أيُّها أسبق الطبيعة (المادة والوجود)، أم الروح (الوعي والعقل والفكر). ولقد ظهر فلاسفة اعترفوا «بالبدايتين» معاً وباستقلال كل منها عن الأخرى. ويُسمى هؤلاء الفلاسفة بالثنائيين. فالفلسفة الثنائية تعترف بالمادة والروح كبدايتين مستقلتين، على أساس الفهم السابق للمادة والروح.

ولقد عرضنا بعضاً من ذلك في فصل جذور الحداثة. ونحن نعيد هنا بعض ما ذكرناه سابقاً لنؤكد الفكرة ولترتبط الدراسة هنا وتتناسق.

ولقد عرضنا سابقاً موجزاً عن الفلسفة المثالية الذاتية والفلسفة المثالية الموضوعية، وفلسفة الشك، مما كان يمثّل موجزاً سريعاً لحركة الفلسفة في تاريخ الإنسان.

ولقد سبق أن ذكرنا، حين قلنا إنها بدأت مع ظهور الانحراف عن الإيمان والتوحيد إلى الكفر بالله والشرك به، ومع إرسال نوح عليه السلام أول رسول للناس على الأرض، بعد أن كانوا أمة واحدة تدين بالإسلام ديناً واحداً، وتعبد الله وحده رباً واحداً لا شريك له.

ولسنا هنا في موضع نردُّ فيه على هذه الفلسفات كلها بالتفصيل، ولكن لابد من أن نعرض بعض القضايا الرئيسة لتكون عوناً لنا على التقويم، ولتعين القارىء الكريم على العودة إلى كتاب الله وسنَّة رسوله، حيث يجد الردَّ المفصَّل والإجابة اليقينية القاطعة.

فقول الفلسفة الماديّة إن الوجود كُلَّه وجود مادي لم يخلقه أحد هو وهم وظنَّ، لم يقيموا عليه برهاناً ولم يُقدِّموا حجّة أبداً. وإنها افترضوا ذلك فرضاً ثم اعتبروه حقيقة، ثمَّ بنوا فلسفتهم على هذا الظنَّ الباطل الذي لا حجة معه. وكذلك الفلسفتان، المادية والمثالية، كلتاهما نتاج الجهد البشري وحده. والإنسان جزء من هذا الكون، مخلوق، لا يبلغ علمه مهما نما إلا قدراً قليلًا جداً عن هذا الكون الممتد، الكون الذي يزيد البحث العلمي فيه

الباب الثالث الغصل الثالث

اتساع المجهولات فيه وزيادتها لا ضيقها وتقليلها، فلا حقَّ للإنسان أن يطلق من وهمه وعلمه القليل حقائق عامة يفرضها على الكون الذي يجهل الإنسان معظمه.

أما بالنسبة للمادة والروح، فإن المادة بعضها يقع تحت حواسنا وإدراكنا، وأما الروح فلا نعلم عنها شيئاً أبداً. لذلك تاهت الفلسفات كلها في معنى الروح، اعتبرت بعضها الروح هو «الوعى والفكر والعقل»، فرضاً من عند أنفسهم، ووهماً لا يقوم عليه دليل.

وَيَسْنَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَصْرِ رَقِّ وَمَاۤ أُوتِيتُ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(الإسراء: ٨٥)

وحول الخلاف بين الفلسفتين، أيهما أسبق المادة أم الروح (الوعي والفكر والعقل)، فإننا نقول عن إيهان ويقين بأن الله رب السموات والأرض وما بينهما، وربّ العرش العظيم هو الأسبق وهو الأول والأخر:

﴿ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَوَتِ وَٱلْأَرْضُ يُعِي وَيُعِيثُ وَهُوَعَلَىٰ كُلِّ شَى ءِ قَدِيرُ ۞ هُوَٱلْأَوَّلُ وَلَا يَعُرُونَ الْأَوْلُ وَهُوَ بِكُلِّ شَى ءِ عَلِيمٌ ۞ ﴾ (الحديد: ٢، ٣)

والله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء، يحيي ويميت، وضع لهذا الكون كله سنناً ماضية ثابتة. ومن هذه السنن أن يولد الإنسان على النحو الذي نعلم عنه بعض العلم، ثم يعيش إلى أجل مسمى، ثم يموت لتكون الحياة الدنيا دار امتحان وابتلاء وتمحيص، ولتكون الدار الأخرة بعد البعث والحساب دار جزاء، إما إلى جنّة وإما إلى نار، على حكمة غالبة لله، وعدالة حقّة ماضية، وعلم يحيط بكل شيء، وقدرة قادرة على كل شيء، له الأمر من قبل ومن بعد:

﴿ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهِ عَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحَيِّيكُمْ هَلَمِن شُرَكَا يِكُم مَن يَفْعَ لُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءً إِسُبْحَننَهُ, وَتَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ ﴾ (الروم: ٤٠) ﴿ هُوَ اللَّذِى خَلَقَكُم مِّن ثُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يَخْرِجُكُمْ طِفَلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوَّا أَشُدَكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُنُوفًى مِن قَبْلُ وَلِنَبْلُغُوّا أَمْرُك أَجَلَا مُسَعَى وَلَعَلَكُمْ تَعْقِلُون ﴿ هُوَالَّذِى يُعْي، وَيُمِيثُ فَإِذَا قَضَى آمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنُ فَيَكُونُ ﴾ والذ ١٦٠ ١٥٠

وأما مصدر العلم والمعرفة فها أصاب هؤلاء ولا هؤلاء بتحديدها وحصرها في مادة أو في تصوُّر. ففي نظر الإسلام كان أول المعرفة في حياة الإنسان ما علمه الله لأدم عليه السلام في الجنَّة.

﴿ وَعَلَمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلِّهَا ثُمَّ عَرَضُهُمْ عَلَى الْمَلَيْ كَةِ فَقَالَ أَنْبِتُونِي بِأَسْمَآءِ مَـُوُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَدِقِينَ ﴿ ﴾ (البفرة: ٣١)

وما نزل آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض إلا وهو يحمل علماً يقينياً، وتجربة حقيقية مع الشيطان، ليعرف كيد الشيطان معرفة يقين لا معرفة ظن. وجعل الله في فطرة بني آدم كلهم حقائق الإيهان والتوحيد، لا تغيب عنهم إلا بالمعصية والآثام وبها كسبت أيديهم. ثم كان العلم اليقيني كذلك الوحي الذي أنزله الله على رسله وأنبيائه الذين خُتموا بمحمد وختمت الرسالات بالقرآن الكريم الذي يحمل العلم الحق الصادق اليقيني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مهيمناً على الكتب السابقة كلها. بعد ذلك العلم الذي يجمعه الإنسان بالنظر في الكون وبالسعي في آفاقه، يزداد علمه هذا جيلاً بعد جيل، على قدر من الله سبحانه وتعالى، فلا يحيط الإنسان من هذا العلم إلا بها شاء الله، وقد سخر الله له ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ نعمه عليه:

﴿ ٱلْمَرْتَرُواْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَرَلَكُمْ مَّا فِي ٱلسَّمَوَتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱسْبَعَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ وَطَهِرَةً وَالْمَانِيَّةُ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَدِلُ فِ ٱللَّهِ بِعَيْرِعِلْمِ وَلَاهُدَى وَلَا كِنْكِمْ مَنِيكُمْ نِعَدِ فَي وَاللَّهُ مَن يُجَدِلُ فِ ٱللَّهِ بِعَيْرِعِلْمِ وَلَاهُدَى وَلَا كِنْكِ مُنِيرٍ فَ ﴾ وَالطَانَ اللهُ ا

وعلم عن ظاهر الحياة الدنيا وغفلة عن الأخرة:

﴿ وَعْدَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ, وَلَنَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ كَا يَعْلَمُونَ ظَلِهِرًا مِّنَ الْحَيَوْةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُرْغَلِفِلُونَ ۞ ﴾ (الروم: ٢،٧)

وآيات الله بينة في أنفسهم لويتفكرون:

﴿ أَوَلَمْ يَنَفَكَّرُوا فِي آَنفُسِمِ مُّ مَاخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَوَتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَ ٓ آ لِآلَا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلِ مُسَمَّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ۞ ﴾ (الرم: ٨) ولو ساروا في الأرض سيرة المؤمنين المتدبِّرين لجمعوا علمًا نافعاً:

﴿ أُولَة بِسِيرُواْ فِ ٱلأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَكَانَ عَنِقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوَا اَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا آَكَ ثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَتِ فِمَا كَاكَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوَا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۞ ﴾

(الروم: ٩)

ومن هذا التفكر في أنفسهم، ومن سيرهم في الأرض، ومن تأملهم في السموات والأرض وما بينهما، لا يجمعون من العلم ولا يحيطون إلا بها شاء الله:

هذا هو الكون الممتدّ: السموات والأرض وما بينها، العرش، الكرسي، الإنسان،

الباب الثالث الغصل الثالث

الملائكة، الشياطين والجن، ﴿..ويخلق ما لا تعلمون.. ﴾، فهؤلاء الفلاسعة المدّعون ماذا يعرفون من هذا الكون كله، ماذا يعرفون وكيف أباحوا لأنفسهم أن يطلقوا من جهلهم أحكاماً مطلقة لا حجة لهم معها، ولا برهان لهم عليها؟! قاتلهم الله أنّى يؤفكون. إنه الكبر والجهل والوهم والظن!

وعلم الغيب علم حقَّ لا مجال للإنسان أن يخترقه. هكذا قضى الله رب السموات والأرض رب العرش العظيم. أنَّى للفلسفة المادية أو الفلسفة المثالية أن تعرف خبر آدم وحوَّاء في الجنّة ونزولها إلى الأرض؟! أنّى للفلسفات البشرية كلها أن تعلم ماذا يوجد بعد الموت؟! وكيف تعرف نبأ البعث والحساب والجنّة والنار والملائكة والجن والشياطين، وكل ما خلق الله في السموات والأرض؟! ألا يستحي هؤلاء الفلاسفة من أنفسهم؟!



الفصل الرابع



نهج الإيمان في النمو والتطور والتغيير

لا نهدف هنا إلى أن نفصًل في خصائص هذا النهج الإيهاني المتميّز في النموِّ والتطوُّر والتغيير. فهذا التفصيل يحتاج إلى بحث مستقل لا تتسع له هذه العجالة في هذا البحث. وإنها نهدف هنا إلى إبراز أهم هذه الخصائص الإيهانية، لتساعدنا في مهمَّة هذا البحث، ولتُسَهِّل المقارنة بين فكر وفكر، وليَسْهُل التقويم بعد ذلك.

ولا نتحدث هنا عن التغيير في الكون كله ، ولا عن نهاذجه وأنواعه في الحياة الدنيا ، ولا نهدف إلى عرض جميع القواعد والتفصيلات ، بقدر ما نحرص على عرض الأسس والقواعد الرئيسة .

ونحصر حديثنا هنا كذلك فيها يتعلّق بالجهد البشريّ في الحياة الدنيا، وما يوفّره له الإيهان والتوحيد من خصائص في سبيل النموّ والتطور والتغيير في جهد الإنسان وعمله وسعيه.

ويجب علينا أن نؤكد منذ البداية أننا حين نعرض قواعد وخصائص تبدو للوهلة الأولى أنها تمس نشاط الفرد وحده، فإننا في الوقت نفسه نؤكد أن هذه الخصائص نفسها تمس الجهاعة والأمة ونشاطها. إنها تمس نشاط المجتمع المتحرّك العامل، المجتمع المؤمن العابد لربّه وخالقه، المجتمع المتهاسك بأفراده المؤمنين الذين يأمرهم الله أن يكونوا صفّاً كأنّهم البنيان المرصوص.

وإذا كانت بعض حركات الحداثة تحاول أن تجد المسوّغ الأوّل لفكرها بادعائها البحث عن الجديد وعن التغيير، فإنها لا تُحدّد خصائص هذا التغيير ومدى ارتباطه بمحاربة الفساد

الباب الثالث

والفتنة والشرِّ في الأرض. ولكنها تطرح كلمات عائمة ومصطلحات غامضه، كما قال رجال الحركة التعبيرية «أن على الحركة التمسُّك بالغموض، فإنها تموت إذا اتجهت إلى الجد والوضوح والاستقامة». كما سنوضع هذا كله بنصوص رجال الحداثة أنفسهم، في الصفحات المقبلة، لا نفتري عليهم.

وإذا كان هذا هو رأي الحركات الحداثية في أوروبا كالحركة التعبيرية، فإننا نأمل ممن يبحث عن الجديد والنمو والتطور في بلاد المسلمين أن لا ينهج هذا النهج، ونأمل أن نجد منهم من يحرص على دينه ودين أمته ويذود عنه. فليس كل من يرغب في الجديد والنمو والتطور، تحت أي اسم ادعاه كان فاسداً، إلا إذا نصَّ نصًا صريحاً على المساس بالدين والإيهان والتوحيد.

وهدفنا في هذه الكلمة ألا نطعن أو نجرّح أحداً، بقدر ما نهدف إلى أن نجمع القلوب كلها على كلمة الحق وخير الأمة، وأن نتألفها حتى تخشع القلوب كلها لله، وتصبّ الجهود كلها لحماية الديار والأمة والدين.

ونحن نعرض هنا نصوصاً تُناقَشُ بعدالة وأمانة ، من خلال قواعد مقررة ومنهج محدد، معيدين عن الإثارة ، قريبين إلى الحوار الهاديء المطمئن ، يملأ الحبُّ لله ولرسوله قلوبنا ، ليفيض هذا الحبُّ خيراً في الحياة الدنيا وأجراً من الله في الآخرة إن شاء الله .

ونحاول الآن أن نعْرض أهم القواعد الأساسية التي يُرسِّخها الإسلام لدفع النمو والتطور في حياة الإنسان ومسيرة البشرية، وفي توفير التغيير الصالح. ونوجز هذه القواعد الأساسية بها يلي:

ا ـ الفطرة الثابتة في الإنسان ؛

هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها تحمل الطاقات والنوازع في الإنسان، وتحمل الرغبات والشهوات وضوابطها. ولا نستطيع أن نحدًد جميع ما أودع الله في هذه الفطرة من قوى وكوابح، ولكننا نعرض طرفاً منها مما تعلمناه من كتاب الله وسنة رسوله، ومما نخلص إليه من واقع الإنسان ونشاطه حين نردة إلى منهاج الله.

فمن هذه القوى التي أودعها الله الإنسان قوة التفكير والتأمل والتدبر. وهذه القدرة

الباب الثالث الغطل الرابع

ضرورية للنمو والتطور. ولكنها قوة لا تعمل وحدها معزولة عن سائر القوى. إنها تعمل متناسقة مع القوى الأخرى المغروسة في فطرة الإنسان وطبيعته بصورة تخضع للسنن الربّانية التي جعلها الله جزءاً من كيان الإنسان وخلقه. فالعاطفة والشعور طاقة أخرى مغروسة في فطرة الإنسان، توفر له الرغبة والحوافز والإقبال والإدبار وتنطلق من هذه العواطف رغبات وشهوات وميول، تتوازن في حياة الإنسان في حالتها الطبيعية التي يولد عليها الإنسان. وكل رغبة أو شهوة في فطرة الإنسان أوجدها الله لتحقق غاية في حياته وحاجة لمسيرته فالشهوة الجنسية تحقق للإنسان قدر الله في تكاثره وتناسله، والحبّ يوفر للإنسان بمشيئة وجدت لتحقق غاية وحكمة ربّانيّة. ومن هذه الرغبات والميول في فطرة الإنسان حبّه النمو والتطور، ورغبته في التجديد والتغيير، ليحقق صورة من صور العبادة في حياته، وشكلا من أشكال الطاعة الصادقة لله ربّه وخالقه.

ولكن أهم هذه القوى والطاقات التي غرسها الله في فطرة الإنسان هي الإيمان والتوحيد. الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. الله الذي له الأسماء الحسنى كلها متكاملة متناسقة، إذا غاب عن الإنسان شيء من هذه الأسماء الحسنى ومن صفات الله اضطرب التصوّر الإيماني واختل اختلالاً قد يؤدي بصاحبه إلى الانحراف أو الشرك أو الكفر، على قدر ما يغيب من هذه الأسماء والصفات. ومن طاقة الإيمان والتوحيد المغروسة في فطرة الإنسان سائر خصائص الإيمان والتوحيد والتصديق بكل ما يتبع ذلك من ملائكة وجنّ وشياطين، ومن بعث وحساب، وجنة ونار في الدار الآخرة بعد الموت، ومن نُبّوة ورسُل، وكتب نزل بها الوحي الأمين، خُتمتْ كُلُها برسالة محمد على الله ورسولاً خاتماً، وبالقرآن الكريم كتاباً مهيمناً على كل ما سبقه من الكتب.

طاقة الإيهان هذه أودعها الله في فطرة الإنسان، لتكون أهم طاقة تعمل في حياته، وأهم طاقة تقرر مصيره. وإذا كان لكل طاقة أو رغبة في فطرة الإنسان غاية تؤديها وحكمة ربّانيّة تخضع لها، فإن من معاني هذه الحكمة الربانية ابتلاء الإنسان وتمحيصه من خلال نشاط

هذه القوى فيه وحركاتها وانطلاقتها إلى غاياتها التي خُلقت لأجلها، أو انحرافها عنها. وطاقة الإيهان والتوحيد ترعى هذه الطاقات في فطرة الإنسان، وتغذيها وتحفظ بينها التوازن في النشاط والعمل، حتى تظل في اتجاهها إلى غاياتها التي خلقت من أجلها. وباضطراب الإيمان والتوحيد يضطرب التوازن بين هذه القوى، ويضطرب الغذاء، فتنمو شهوة نموا زائداً وتضمر رغبة أخرى، وتخرج الرغبة أو الشهوة عن نهجها وتنحرف عن غايتها. فإذا اختل الإيمان والتوحيد، ونمت الشهوة الجنسية تبعاً لذلك وانحرفت عن غايتها يقع الزنا بدلًا من الزواج. وإذا اختل التصور الإياني والتوحيد واختل معه حبُّ الأرض والديار مثلًا، انحرف هذا الحبُّ عن هدفه وغايته، وتحوَّل إلى عصبية جاهلية وفساد في الأرض. ويقال الشيء ذاته عن حب الوالدين حين ينحرف عن صورة العبادة والطاعة لله إلى عصبية عائلية مبتوتة الصلة عن الإيهان والتوحيد. وهكذا تضطرب سائر الرغبات والشهوات والعواطف والقدرات، حين يضطرب الإيمان، وتنحرف عن نهجها ونهايتها، وتصبح فساداً في الأرض، وفتنة في حياة الناس، وشرًّا كبيراً. ومن هذه الرغبات الرغبة في النمو والتطور والتغيير. فعندما يرعاها الإيهان والتوحيد تظل هذه الرغبة تعمل على نهج الإيمان، وتنطلق إلى غايتها الكريمة وأهدافها الصالحة، لتكون خيراً في حياة الإنسان وصلاحاً. أما إذا اضطرب الإيهان والتوحيد، فتختلُّ هذه الرغبة وتنحرف إلى فساد وتلامير، وفتنة وضياع، وظلمة ومتاهة.

فالفطرة التي فطر الله الناس عليها عامل من عوامل النمو والتطور على منهجه الربّاني الطاهر النظيف، يرعاه الإيهان ويدفعه التفكير وتنضم إليه قوة مع قوة.

٢ ـ السنن الربانية الثابتة في الكون والحياة :

جعل الله في هذا الكون سنناً ثابتة. وجعل كذلك سنناً ثابتة في حياة الإنسان والبشرية وحركة المجتمعات. وجعل سنناً ثابتة في الرياح والأمطار، وحركة الشمس وغيرها. ففي حياة الإنسان تأتي الأيات الكريمة توضح ذلك.

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلٌ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۞ ﴾ (الفتع: ٢٣)

﴿ فَهَلَ يَنظُرُونَ إِلَّاسُنَّتَ ٱلْأُوَّلِينَ فَلَن تَجِدَلِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَلِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَعْدِيلًا وَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهِ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَيْ اللّهُ عَلَّا عَلَمُ

أما بالنسبة للكون فالآيات ممتدة في كتاب الله تلجُّ على الآيات البيّنات في الكون، الآيات التي تكشف عن ثبات هذه السنن الربّانية، وحكمتها، وتقديرها:

﴿ إِنَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَوَتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱلَّتِلِوَٱلنَّهَارِ لَآيَتِ لِأُولِى الْأَلْبَ إِلَّا لَهُ اللَّهُ وَيَنَفَحَّرُونَ اللَّهَ قِيكَمَا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَحَّرُونَ اللَّهَ قِيكَمَا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَحَّرُونَ اللَّهَ قِيكَمَا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَحَّرُونَ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَحَدُ اللَّهُ وَنَا عَذَا اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ وَلَا اللَّهُ اللِهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَّ

(القمر: ٤٩).

وكذلك: ﴿ إِنَّاكُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرِ ٢

وكذلك:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ وَلِي كُونَ لِلْعَلَمِينَ نَذِيرًا ۞ ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَعُ وَتِ وَأَلْأَرْضِ وَلَمْ يَنَّخِذُ وَلَـدُاوَّلُمْ يَكُن لَهُ شَرِيكُ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَلَا يَعْمُ وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكُ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَلَا يَعْمُ وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكُ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَلَا يَعْمُ وَلَا يَعْمُ وَلَمْ يَكُن لَهُ مُسْرِيكُ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَلَا يَعْمُ وَلَا يَعْمُ لَلْهُ وَالْمُ اللَّهُ اللَّهُ وَالْمُ اللَّهُ وَاللَّهُ اللَّهُ الْعُولَانَ وَلَا يَعْمُ لَلْهُ وَاللَّهُ اللَّهُ الللْهُ اللَّهُ الللَّهُ الللللْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُو

ولولا هذه السنن الثابتة ما استطاع الإنسان أن يخطو خطوة إلى الأمام، ولا أن ينمو أو يتطور. لولا ثبات هذه السنن ما تطورت السيارة ولا الطائرة، ولا قامت الصناعات، ولا نهضت العيائر، وما أمكن الاستفادة من أي مادة في هذه الحياة الدنيا، ولا أمكن كشف الفضاء القريب والتجوّل فيه. كل نشاط الإنسان في حياته الدنيا قائم على ثبات السنن الربانية في الكون والحياة، لا تتبدل. وحين يدرك أنه لم يوجدها الإنسان، وإنها أوجدها الذي أوجد الإنسان، وخلقها الله الذي لا إله إلا هو، الله الذي خلق الإنسان.

إن معنى خضوع الإنسان لهذه السنن أنها سنن ثابتة لا يستطيع تغييرها، وإنها سخرها

الله له، ويسرُّ له الاستفادة منها ومن ثباتها.

والإنسان مكلف من ربّه أن يتعامل مع هذه السنن ليبني في الأرض حضارة الإيهان، عبادة لله وطاعة له. فقد استخلفه في الأرض واستعمره فيها، أي طلب منه عهارتها بعبادة الله وطاعته، ليخلف في ذلك جيل بعد جيل:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَلِحَاْقَالَ يَنَقُومِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُمُ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرُكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُعَرَّ ثُوبُوَ اْإِلَيْهِ إِذَّ رَبِّي قَرِيبٌ ثَجِيبٌ ۞ ﴾

(هود: ٦١)

يريد رجال الحداثة، كما سنذكر بعد قليل، وتريد الفلسفة المادية كذلك، مصارعة هذه السنن والسيطرة عليها، أو يريدون إلغاءها. وسيمر معنا موقف الحداثيّ المستقبلي الشيوعي «مايا كوفسكي»، وكيف مَلَّ من حركة الشمس وشروقها وغروبها الدائمين. وجعل من هذا الملل «أدباً» يسمونه «الحركة المستقبلية». وهذا كمال أبوديب، كما مرّ معنا في تعريف الحداثة، يريد أن يغيّر كل شيء، ويقطع كل صلةٍ مع الماضي، ليبقى التغيّر مستمراً كل لحظة، حتى لا يبقى شيء ثابتاً. إنه هُوس وقلق وحُمَّى. إنه مرض، إنه جُرثومة كما سماها كمال أبوديب نفسه. وسئرى موقف بعض حركات الحداثة من هذه السنن، موقف العداء أو الإنكار، أو التجاهل.

هذه السنن الربّانية الثابتة عامل أساسي في النموّ والتطور والتغيير، في النظرة الإيهانية . وبغير النظرة الإيهانية يضطرب التصور لهذه السنن، وتضطرب العلاقة والتعامل والموقف، ويصبح موقفاً ينشر الفساد في الأرض، والفتنة بين الناس.

إن الفطرة السليمة تدفع الإنسان ليتأمل في هذه السنن الربانية في الكون، وتدفع الإنسان كذلك إلى السعي المنهجي الدائب في الحياة الدنيا على إيهان وتوحيد، لينهض كل نمو في الجهد البشري وكل تطور على أساس ثبات هذه السنن، ومضيها في حياة الإنسان. فثبات هذه السنن جزء من النهج الإيهاني والتطور الإيهاني، تتلقّاه الفطرة السليمة على يُسر وإيهان، وعلى وعي كامل لمسئولية الإنسان في هذه الحياة الدنيا، وللأمانة التي يحملها،

البأب الثالث الغصل الرابع

والخلافة التي أنيطت به، والعبادة التي خُلِقَ لها، على ابتلاء وتمحيص. فلن تكون الحياة في نظر المؤمن صراعاً مع الكون، ولا صراعاً مع سنن الحياة، ولكنها وعي وتدبّر، وعبادة وسعي، وابتلاء وتمحيص. ليدفع هذا التصوّر سنّة الله في النمو والتطور، على طهارة وبركة.

يمضي الإنسان بهذا التصوّر وهو يدرك معنى عظيماً للحياة، وهو يعرف الدرب الذي رسمه الله له، والأهداف الجلبّة التي حدّدها الله له، فيمضى على بصيرة ونور:

﴿ قُلْ هَاذِهِ ، سَبِيلِيّ أَدْعُوّ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِيٌّ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَاۤ أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٨)

٣ ـ التفكر والتحبر ،

لقد ألحّت الأيات الكريمة والأحاديث الشريفة على تميّز الإنسان بالتفكّر والدبر والتأمل، ورسمت للمؤمن نهجه المتميّز في ذلك كله، كما تميّز المؤمن بالنيّة والسعي.

إن هذا التفكير والتدبر مسئولية يحاسب عليها الإنسان، وسمة يجب أن تبرز في حياة المؤمنين، حتى يدفع التفكير والتدبر سعى المؤمنين بالنية الصادقة والنهج الصادق. فإذا تعطلت قوة التفكير أو اضطربت، انحرف النهج، والسعي، وضل الجهد عن أهدافه، وفقد سبباً هامًا من أسباب النمو في حياة المؤمنين وجهدهم.

إن ميدان التأمل والتدبّر في حياة المؤمن واسع جدّاً. إنه واسع اتساع ميدان السعي . فكما سخر الله ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ نعمه ظاهرة وباطنة، فإنه سبحانه وتعالى جعل السموات والأرض ميدان التأمل والتدّبر:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَوَتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَادِ لَآيَنَةِ لِأُولِى الْأَلْبَ فِي اللَّهَ وَيَنَفَ حَكَّرُونَ اللَّهَ قِيكَمَّا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَحَّرُونَ اللَّهَ قِيكَمَّا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَحَّرُونَ اللَّهَ قِيكَمَّا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَحَّرُونَ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى اللْهُ عَلَى اللْهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللْهُ عَلَى الللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَا عَلَى الْعَلَى اللَّهُ عَلَى الللّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللّهُ عَلَمُ عَلَى اللّهُ عَلَى الل

ألباب الثالث الفصل الرابع

هذا هو اتساع ميدان التفكير في حياة المؤمنين، لا ينغلقون عن الحياة، ولا ينغلقون عن الكون، ولا ينغلقون عن الكون، ولا يتركون هذه الميادين لغير المؤمنين ليجعل هؤلاء منها قوة لفسادهم وطغيانهم. فإن إثم المؤمنين إن فعلوا ذلك كبير، وعقاب الله شديد. إن الميادين مفتحة لسنة الله للناس كافة:

﴿ كُلَّانُمِدُ هَنَوُلآءِ وَهَنَوُلآءِ مِنْ عَطَآءِ رَيِّكُ وَمَاكَانَ عَطَآءُ رَيِّكَ مَعْظُورًا

(الإسراء: ٢٠)

وإن هذه الميادين هي ميادين ابتلاء وتمحيص حتى يميز الله الخبيث من الطيّب، وحتى تجلو هذه الميادين تمايز النهجين، وحتى يشرق نهج الإيهان بصدقه وقوته.

إن قوة التفكير هذه، وقوة التأمل والتدبر، أساسية في حياة المؤمنين، حين تدفعها النيّة الصادقة الخالصة لله، وحين يرويها الإيهان والتوحيد ويصوغها الإيهان والتوحيد والعلم الصادق بمنهاج الله قرآناً وسنة، إن قوة التفكير والتأمل والتدبر بهذه الخصائص هي منطلق هائل لنمو الجهد البشري المؤمن ولتطوره، ولاكتساب كل حديث نافع وجديد طاهر في حياة الإنسان، في الأرض، وفي آفاق الكون.

إن قوة التفكير هذه، وقد جعلها الله نعمة منه على الإنسان، تصبح في حياة المؤمنين مصدر خير وبركة كثيرة. إنها تعمل في حياة المؤمنين بخصائصها الإيهانية المتميزة: النيَّة التي تدفع وتوجه، الإيهان والعلم الذي يصوغ ويُغذّي ويُنمِّي، النهج المستقيم والأهداف المطاهرة الجلية. إنها تعمل وتؤتي ثهارها متناسقة مترابطة مع سائر طاقات المؤمنين، ليتضاعف العطاء. إنه ليس تفكير الناسك المنقطع عن الحياة، إنه تفكير المؤمن المرتبط بالسعي كها سنعرضه، بالجهد والعطاء، بالصبر والمداومة، بالأمل الممتد والرجاء الذي لا ينقطع، والبشرى التي تملأ حياة المؤمن في كل أحوالها.

إن قوة التفكير في حياة المؤمنين قوة ممتدة مع العصور والأجيال، غنية بالتجارب والخبرة والمران، نامية متطورة هي ذاتها بهذا كله، دافعة إلى كل نمو وتطور. فإن ظهر أنها توقّف في مرحلة من مراحل التاريخ، فإن الحقيقة ليست توقّف التفكير المؤمن فحسب، ولكنها ضعف الإيهان والتوحيد، وهوان القلوب والعزائم أولاً، وهذا الهوان والضعف أدّى إلى

اضطراب التدبّر والتأمل، واضطراب السعي، ومن ثمَّ التخلّف عن ميادين التنافس الحق، أو تركها للمشركين خالية من فرسان الإيهان ومواكب التوحيد، عاجزة عن النمو والتطور، عاجزة عن البحث عن الجديد النافع الطاهر. وفي هذه الحالة يصبح هؤلاء العاجزون يتتبعون سنن غيرهم، ويقلدونهم تقليداً أعمى، وينقضون عرى الإسلام عُرْوة عُرُوة.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله على قال: «لتتبعُنَّ سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جُحر ضَبِّ لتبعتموهم». قلنا: يارسول الله! آليهود والنصارى؟! قال: «فمن؟!» (رواه الشيخان وأحمد وابن ماجة)(١).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله على: «التُنْقَضَنَّ عرى الإسلام عروة عروة عروة المختم وآخرهن عروة . فكلم انتقضت عروة تشبّث الناس بالتي تليها. فأوّلهن نقضاً الحكم وآخرهن الصلاة».

هذا هو حال العاجزين ولو انتسبوا إلى الإسلام. إنه حال من ضعف إيهانهم وهان سعيهم وضل تفكيرهم، فعجزوا هم أنفسهم عن النمو والتطور، وعجزوا عن البحث عن الجديد النافع والحديث الطاهر، فقعدوا يتتبعون سنن غيرهم على ذلة وعجز وهوان.

أما المؤمنون الأقوياء، الفئة الظاهرة، الماضية مع العصور والأجيال، فإنها تظل تنهج الإيهان على عزّة وظهور لا يضرّها من خالفها، تدفع النيّة الصادقة تفكيرَها، يَرويها الإيهان والتوحيد والعلم بمنهاج الله، فيمضي جهده البَشريُّ على نموٌ وتطور، يطرق آفاق الحياة، على سُننٍ ربانيّة، وقدر غالب وقضاء ماضٍ، وعلى عبادة خَلَقَ الله الإنسان لها، وهمّله أمانتها.

أما تفكير المشركين الذين أشركوا بالله أو كفروا به، والذين فسدت نيَّتهم، واضطربت

⁽۱) البخاري: كتاب (۲۰) بآب (۱۶۳). حديث (۳٤٥٦). مسلم: كتاب (٤٧). باب (۲). حديث (۲/۲۲۹) مناجد: المسند (۹٤/۳)، الفتح (۱۹۷/۱) حديث (۲۳-۲۲).

⁽٢) صحيح الجياميع الصغير وزيادته للألباني. ج (٥) (ص: ١٥) حديث (١٩٥١). وقال تخريج

بذلك علاقاتهم بسنن الله، واضطرب فهمهم لها، اعتبر القرآن الكريم هؤلاء لا يفكرون ولا يبصرون ولا يسمعون إنهم كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلًا:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّدَ كَثِيرًا مِّنَ أَلِي مِنَ وَأَلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَمُمُ الْمَثَلَّ الْمَثَلَّ الْمُعْدَدِ رَأَنَا لِجَهَنَّ وَالْمَا مُعُونَ بِهَا أَوْلَتِهِكَ كَالْأَنْعَدِ بَلَ هُمْ أَضَلُّ أَوْلَتِهَكَ كَالْأَنْعَدِ بَلَ هُمْ أَضَلُّ أَوْلَتِهَكَ هُمُ ٱلْفَنْفِلُونَ فِي اللهِ اللهُ الله

فلا شكَّ بعد ذلك أن يبطل سعي هؤلاء بعد أن فسدت النيّة وفسد النهج والتفكير والسمع والبصر. لا شك أن الله سبحانه وتعالى لن يقبلَ من هؤلاء عملًا ولا سعياً أبداً مها حمل من زُخرف النمو الكاذب والتطور الخادع:

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَاعَمِلُواْ مِنْ عَمَلِ فَجَعَلْنَكُ هَبِكَآءُ مَّنتُورًا ۞ ﴾ (الفرقان: ٢٣).

٤ ـ السعس المنهجي الدائب للإنسان المؤمن :

السعيُ في الأرض طبيعة في الإنسان وسِمَة من سهاته، ومحاولة اكتشاف المجهول في حياته الدنيا رغبة ملحّة فيه. هكذا خلق الله الإنسان وهكذا جعل فطرته وطبيعته.

والناس كلهم يسعون في الحياة استجابة لهذه الطبيعة، وإدراكاً للحاجة لتحصيل الرزق.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ أَوْ إِلَيْهِ ٱلنَّشُورُ ﴾ (اللك: ٥١)

وجعل الله كذلك ما في السموات والأرض مُسخَّراً للإِنسان، ليطرق الإِنسان أبوابه، وليسعى فيها سعياً دائباً ممتداً مع العصور والأجيال، وليرى آيات الله من خلال سعيه، إذا سعى وهو مؤمن:

﴿ أَلَوْ تَرُواْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَلَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَا وَسَافِ ٱلْأَرْضِ وَٱسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ وَظَلِهِرَةً

وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَدِلُ فِ ٱللَّهِ بِعَيْرِعِلْمِ وَلَاهُدَى وَلَا كِنَبِ مُنِيرٍ ۞ ﴾

الفصل الرابع

وتتوالى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة لتبين لنا هذه الطبيعة العامّة في الإنسان، وهذه الأرض المذلّلة الممهدة لسعيه، وهذا الكون المسخر له.

ولكنَّ هذا السعي يتنوَّع وتتعدَّد مذاهبه في واقع الإنسان، كما نلمس ذلك في تاريخ الإنسان من ناحية، ومن ناحية أُخرى كما يقرِّر ذلك القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَقَّى ٢٠ (الليل: ٤).

ومـذاهب السَّعي كُلُها تجتمع في خطين متبـاينـين، ونهجين مختلفين: نهج الإيمان والتقوى، ونهج الكفر والتكذيب:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَأَنْقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَأَسْتَغْنَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ وَمَدَّقَ بِالْحُسْرَىٰ ۞ (الليل: ٥٠٠٥)

وهكذا يتهايز نهج الإيهان بالنيّة والإيهان والمنطلق، وبالدرب والأهداف، وبالوسائل والأساليب:

﴿ مَّنَكَانَ يُرِيدُ ٱلْمَاجِلَةَ عَجَّلُنَا لَهُ فِيهَا مَانَشَآءُ لِمَن نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمُ يَصْلَمُهُ اللَّهِ مَنْ كَانَ لَهُ وَمِنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَمَا سَعْيَهَا وَهُو مُؤْمِنُ فَي يَصْلَمُهَا مَذْهُو مُا مَّذُهُو كُورًا ﴿ وَهَا لَا يَعْمُ لَا نَمِدُ هَا وَلَا يَعْمُ لَمَا اللّهُ مَا اللّهُ عَلَيْهُ مَا أَوْلَتِهِ كَانَ سَعْيُهُ مَ مَّشَكُورًا ﴿ اللّهُ كُورًا ﴿ اللّهُ كُورًا ﴿ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللللّهُ الللللّهُ الللّهُ اللللللّهُ الللللّهُ اللّهُ الللللّهُ اللّهُ اللّهُ الللللللللللللللللّهُ الللللللللللللللللللللللللل

إِنْ هَذَهُ الآيات جليّة بيّنة لا تكاد تحتاج إلى تعليق إنها تقارن بين النهجين في النيّة ﴿مَّنَ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ . . . ، وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ والدرب ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ وفِيهَا مَا نَشَآءُ . . . ، وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَمُؤْمِنٌ ﴾ ، والنتيجة ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ رَجَهَنَّمَ . . . ،

فَأُوْلَتِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾.

ويؤكد القرآن الكريم هذا التهايز في سور عدة وآيات بيّنات، نأخذ منها قبسات:

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّعَاتِ أَن تَجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ مَامَنُوا وَعَيِمُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً تَغَيَّا هُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءً مَا يَعَكُمُونَ ۖ ﴾ (الجانية: ٢١)

سعيان مختلفان في حياة الإنسان، لا يعقل أن تكون نتيجتهما واحدة في الحياة الدنيا ولا في الأخرة. ولا تتم هذه المقارنة في موقف أو مرحلة، ولكنه تمايز في تاريخ الإنسان.

ومن هذا السعي الدائب المتميّز للإنسان المؤمن، ينطلق عمّله، وينمو ويتطوّر على خصائصه الإيهانية. ومع هذا السعي الدائب للأمة المؤمنة ينمو عطاؤها ويتطور على نهجه الإيهاني، وهي تسعى في آفاق الكون أمة عابدة لله قانتة له.

فبالإضافة إلى والنيّة التي يتفرّد بها سعي المؤمن، فإنه يتهايز كذلك بالنهج. فله دربه المتميّز، وله أهدافه المتميزة، وله كذلك أساليبه ووسائله. هذه كلها تدفع جهد المؤمنين ليظل نامياً متطوراً، وليكون النمو والتطور من خصائص المهارسة الإيهانية، من خصائص السعي المنهجي الدائب للمؤمنين، في مختلف ميادين الحياة. فإذا توقف النمو وجمد الجهد، فإن هذا يكون دليلًا على وهن في الجهد والعطاء، والإيهان والتصور، وعلى تقصير يحاسب عليه الإنسان المؤمن بين يدي الله العزيز الجبّار.

0 - قواعد الإيمان والتوحيد تصوغ الممارسة الإيمانية ،(١٠)

يرسم الإيمان والتوحيد نهجاً متميّزاً للجهد والعمل والسعي. ويفصّل منهاج الله هذا النهج أدق تفصيل، ويُسمّى هذا العمل والسعي «بالعمل الصالح». وتتأكد هذه القواعد في آيات كثيرة وسور عديدة، وترتبط كلها بالإيهان والتوحيد. ويتكرر النصّ للتأكيد والتثبيت: ﴿ . . . كُالَّذِينَ مَامَنُوا وَعَيمُلُوا الصَّلِلحَاتِ . . . ﴾.

 ⁽١) يرجع كتاب التوحيد وواقعنا المعاصر للمؤلف. الباب الثالث الفصل الرابع (ص: ٢٤٣ - ٢٧٥).

الباب الثالث الغصل الرابع

نهج الإيمان والتوحيد يوجه الجهد البشري إلى «العمل الصالح»، إلى المهارسة الإيمانية . ومن أهم خصائص المهارسة الإيمانية والعمل الصالح هو نمو هذه المهارسة وتطورها على نهج رباني إيماني، في كل ميادين الحياة الدنيا: الفكرية والعلمية والاجتماعية والأدبية والصناعية وغيرها، ليهدف هذا النمو والتطور إلى صلاح حياة الإنسان على طُهْرٍ وخير وسعادة، ولمحاربة الفساد في الأرض.

هذا النهج الإيهاني المتميز برسالة التوحيد، يجعل مصدر الطاقة الحقيقية للنمو والتطور في حياة الإنسان هو الإيهان والتوحيد، حين يكون التوحيد هو الذي يدفع الإنسان ويوجهه، ويصوغ له فكره ونشاطه، وحين يحمل الإنسان عقيدة الإيهان والتوحيد ليخوض مرابع الخير والصلاح. فيظل هذا النهج مرتبطاً منذ اللحظة الأولى «بالنيّة» التي تربطه بمصدر الطاقة الحقيقية، النيّة التي يتميز بها نهج الإيهان عن المناهج الأخرى التي يضل بها الناس، النيّة التي يبطل عمل المسلم إذا فسدت أو اختلّت.

ويرسي الإسلام على «إتقان» العمل دفع للعزيمة إلى تطويره ليبلغ أحسن حالاته. ودعوته فإصرار الإسلام على «إتقان» العمل دفع للعزيمة إلى تطويره ليبلغ أحسن حالاته. ودعوته إلى الإحسان في العمل كذلك هو دفع للسعي إلى بلوغ ذروة الإتقان، مرتبطاً بكل معاني الإيهان والتوحيد. ودعوته إلى المداومة على العمل، هي دعوة إلى متابعة الإتقان والإحسان في العمل كله. وكذلك دعوته إلى الرفق في العمل والأناة، إلى التدبر والتفكير، وإلى التعاون وانطلاق الحوافز الإيهانية والمبادرة الذاتية، والموازنة الأمينة، والإشراف والتوجيه، والنصح والتقويم، ومعالجة الأخطاء والتوبة، والشورى، ودعوته إلى طلب العلم حتى والنصح والتقويم، ومعالجة الأخطاء والتوبة، القواعد كلها، وكثيراً غيرها، تدفع بصورة جعله فريضة على كل مسلم ومسلمة، إن هذه القواعد كلها، وكثيراً غيرها، تدفع بصورة إيهانية نشاط الفرد والجهاعة والأمة، وكذلك نشاط البشرية إلى عبقرية النمو وجمال التطور، وجلال الإحسان والصلاح.

كل هذه القواعد ترتبط فيها بينها، وترتبط مع غيرها من قواعد الإيهان، وتتهاسك كلها في منهاج ربّاني معجز هو كتاب الله وسنة نبيه محمد عليه الله عنه الله وسنة نبيه عمد عليه وسنة المسادل المس

ونـأخـذ قبسـات من منهاج الله، لنرى عظمة هذا النهج الرباني وهو يحوط الإنسان

والبشرية كلها بأعظم رعاية وعناية:

﴿ · · · كَنَاكُ يَضِرِبُ اللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَطِلُ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاتُهُ وَأَمَّامَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمَكُنُ فِي ٱلْأَرْضِ كَنَاكِ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْنَالَ ۞ ﴾ (الرعد: ١٧)

توضح لنا هذه الآية الكريمة امتداد نهج الإيهان في الأرض وفي الزمن، وثبوته ورسوخه في حياة الإنسان. كيف لا؟! والفئة الظاهرة التي تحدثنا عنها قبل قليل ماضية في الأرض تحمل رسالة الله، لا تُقهر فإنها ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة، ماضية مع الزمن تُقدَّم ما ينفع الناس. هذه الفئة لم تعرِّفها الأحاديث الشريفة لنا بجنسياتها ولا بقومياتها ولا بأسهائها. إنّا قدَّمتها لنا بخصائصها الإيهانية وامتدادها الإنساني، بخصائصها التي تنبع من الحق، ومن منهاج رباني لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، على محجَّة بيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك. إنها تمثل حاجة الإنسان الحقيقية في الحياة الدنيا، حاجته الصادقة النافعة، حاجته النافعة التي تدفع النمو والتطور إلى الخير والصلاح:

﴿ ... وَأَمَّامَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمَكُثُ فِٱلْأَرْضِ ﴾

هذا هو النهج الحق الصادق الذي أعطى للإنسان حق التفكير والتدّبر، بل أمره بذلك، حتى تتناسق قواه كلها: فكره وعقله وعاطفته وغير ذلك مما أودع الله فيه وفي فطرته، لتتناسق كلها وتتعاون وتتكامل فتدفع بذلك نهج النمو والتطور، بدلاً من أن تتصارع وتتناقض فتتبدَّد، فلا يكون التغيير عندئذٍ إلا شرًا وفساداً، وفتنة وضياعاً.

وكذلك قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ فَوَلَا مِّمَن دَعَا إِلَى أُللّهِ وَعَمِلَ صَلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (مُصَلت: ٣٣)

هذا هو القول الحسن والعمل الصالح والمهارسة الإيهانية التي تجمع كل خصائص النهج الإيهاني ليتصل الإنسان بالإنسان فيدعوه إلى الحق، تدفعه النيَّة الصادقة والهدف الجليِّ والصراط المستقيم.

وعن شداد بن أوس قال: خصْلتان سمعتها من رسول الله على: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء. فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليُحدُّ أحدكم شفرته وليرحْ ذبيحته».

يمتدُّ الإحسان، وهو ذروة الإِتقان، حتى تشمل الرحمةُ الحيوانَ عند ذبحه، وقد أحل الله ذبحه وأُكله، وما أحل تعذيبه!

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

هذا هو الإتقان حين يكون قاعدة إيهانية ربّانية، تحمل في داخل الإنسان المؤمن معها جميع حوافز الإتقان، مرتبطة بالنيّة والإخلاص، متوجهة إلى هدف كريم يقود إلى هدف كريم، ثمّ ترتبط الأهداف كلها بالهدف الأسمى، بالجنة:

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَمَ اسَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَتِهِكَ كَانَ سَعْيُهُمِ
مَشْكُورًا ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَمَ اسَعْيَهَا وَهُو مُؤْمِنٌ فَأُولَتِهِكَ كَانَ سَعْيُهُم

وأما الآخرون الذين انحرفوا عن نهج الإيهان فقد اضطرب جهدهم، وكان مصيرهم النار:

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ وفِيهَا مَانَشَآءُ لِمَن نُرِيدُ ثُعَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَنِهَا مَذْمُومًا مَّذْحُورًا ۞ ﴾ (الإسراء: ١٨)

إن عظمة هذا الهدف في حياة الإنسان وجلاله، هدف الجنّة والسعي إليها، إن هذه العظمة وهذا الجلال يظلّان يُلحّان على ابن آدم في سعيه ونشاطه إلى النمو والتطور. فوضوح الهدف وجلاؤه يكون حافزاً هاماً للنمو والتطور، والوصول إلى الأفضل والأطيب

 ⁽۱) سنن أبي داود. كتاب (۱۰). باب (۱۲). حديث (۲۸۱۵) ورواه مسلم والترمذي وابن ماجة والنسائي والدارمي.

⁽٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم (١١١٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم (١٨٧٦).

والأطهر. وهو تنافس كريم بين المؤمنين، تنافس يُحرِّك كل حوافز الإيهان لتدفع العمل على النموِّ والتطوِّر. وتجتمع النية والدرب المستقيم والهدف العظيم لتكون أساس التخطيط.

﴿ تَعْرِفُ فِي وَجُوهِ هِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۞ خِتَامُهُ مِسْكُ وَفِي ذَالِكَ فَلْيَتَنَا فَسِ ٱلْمُنَانَ فِسُونَ ۞ ﴾ (الطففين: ٢٤-٢٦)

إن هذا الهدف وهذا التنافس يتطلبان الصبر والمثابرة. والصبر والمثابرة من قواعد الإيمان، وخصائص المهارسة الإيمانية والعمل الصالح. والمثابرة والمداومة كذلك صفة إيمانية تغذّي النمو وتدفع التطور إلى الخير والأصلح والأقوم. لذلك جاء حديث رسول الله ﷺ بين أن أحب الأعمال إلى الله أدومها حتى ولو كان عملًا قليلًا:

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله على قال: «أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قل ».

هذا هو النهج الوحيد لدى الإنسان، النهج الوحيد الذي يدعو إلى النمو والتطور، وإلى الموازنة والعدالة، وإلى صدق الحرّية وأمانتها، وإلى سلامة الأمن والأمان. إنه النهج الذي يدعو الإنسان إلى استخدام عقله وسائر ما وهبه الله من قدرات وطاقات، حين تتناسق كلها معاً، فيتعامل الإنسان حينئذ تعاملًا صادقاً مع الحياة وسنن الله في الكون، فينمو عطاؤه وجهده، ويتطور إنتاجه وواقعه، ليبلغ الجديد النافع والحديث الطاهر، وليسعد في دنياه وينجو في آخرته.

هذه القاعدة العظيمة تجمع خصائص التصوَّر الإيهاني ليكون تصوّراً قرآنياً ربّانياً، وليصوغ للإنسان ممارسته الإيهانية، وليكون النمو والتطور من أهم خصائص المهارسة الإيهانية. 7 - تعارف الشعوب، واتصال الإيهال، وبنا، اللهة :

إن تعارف شعوب الأرض ولقاءها في بناء حياة الإنسان على الأرض، لتحقيق معنى الاستخلاف و«الاستعهار» اللذي أمر به الله كها سبق أن ذكرنا ولمحاربة الفساد بكل أشكاله، ومحاربة الظلم والعدوان والطغيان والاستكبار في الأرض، إن تعارف الشعوب

⁽۱) صحیح مسلم. کتاب (٦) باب (۳۰). حدیث (۲۱۸/۷۸۳).

ولقاءَها وتعاونها طاعة لله وعبادة له وتحقيقاً لواجب الاسنخلاف وأداء الأمانة التي يحملها الإنسان في الحياة الدنيا، إن هذا التعارف هو ما يدعو إليه الإسلام:

﴿ يَكَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقَنْكُو مِن ذَكَرِ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَكُو شُعُوبًا وَقَبَا إِلَى لِتَعَارَفُوا أَإِنَّ اللَّهِ عَلَيْمُ خَبِيرٌ ﴿ الْحَجَرَاتَ: ١٣) الْحَجَرَاتَ: ١٣)

إن هذا التعاون بين شعوب الأرض على هذا النحو الكريم، يجمع الجهود البشرية لتنتقل الخبرات، وتتنافس الجهود وتتكامل، ويمضي النمو في حياة الإنسان صلاحاً، والتطور خيراً، والتغيير بناء وزيادة إيهان. ولقد تفرّد الإسلام في دعوته هذه، وأرسى جميع القواعد اللازمة للقاء الشعوب على هذه الأسس الربّانيّة لخير الإنسان على الأرض فمنع الظلم والعدوان فهما معطلان للنمو والتطور والخير، وأقر العدل والقسط بجميع تفصيلاته اللازمة للشعوب لتلتقي عليها، ورسم السبيل، وجاء منهاج الله مفصلاً بيّناً. وحدّد الإسلام الروابط الإيهانية الصادقة التي تربط الإنسان بالإنسان، والرحم بالرحم، والشعوب بالشعوب.

ولم يكتف الإسلام بذلك. لم يكتف بتعارف الشعوب وتعاونها في عصر واحد، وإنها دعا لاتصال الأجيال كلها، لتنتقل الخبرة من جيل إلى جيل، والأمانة من جيل إلى جيل، ودعوة الله من جيل إلى جيل، في أمة واحدة ضاربة في التاريخ، ممتدة مع المستقبل، هي أمة الإسلام.

هكذا يبني الإسلامُ الأجيال: الابن يدعو لأبيه ويبرّ أصدقاءه ويصلهم، ويقضي دينه وحجه وبعض عباداته، ويستغفر له. وهذا إبراهيم عليه السلام يصل الأجيال كلها لدعائه:

﴿ ٱلْحَمْدُلِلَهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَعِيلَ وَإِسْحَقُ إِنَّ رَبِي لَسَمِيعُ الْحَمْدُ لِلَّهِ اللَّهِ عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَعِيلَ وَإِسْحَقُ إِنَّ رَبِي لَسَمِيعُ اللَّهُ عَلَى مُقِيمَ ٱلصَّلَوْةِ وَمِن ذُرِّيَتِي رَبِّكَ وَتَقَبَلُ دُعَكَ وَ اللَّهُ عَلَى مُقِيمَ الصَّلَوْةِ وَمِن ذُرِّيَتِي وَبَنَكَ وَتَقَبَلُ دُعَكَ وَ اللَّهُ عَلَى مُقَامِ اللَّهِ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهِ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ اللَّهُ عَلَى الْعَمَالُولُ اللَّهُ عَلَى اللْعَلَى اللَّهُ عَلَى اللْعَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى الْعَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللْعُلِمُ اللَّهُ عَلَى اللْعَلَى اللَّهُ عَلَى اللْعَلَى اللَّهُ عَلَى اللْعَلَى اللْعَلَى اللَّهُ عَلَى الللَّهُ عَلَى اللْعَلَى اللَّهُ عَلَى اللَّهُ عَلَى اللْعَلَى اللَّهُ عَلَى الللّهُ عَلَى اللْعَلَمُ عَلَا عَلَى الْعَلَى اللَّهُ عَلَى الللَّهُ عَلَى الللّهُ عَلَى الللّهُ عَلَى ا

ونوح عليه السلام يجمع أجيال المؤمنين بدعائه:

﴿ زَبِ آغْفِرُ لِى وَلَوْلِدَى وَلِمَن دَخَلَ بَيْقِ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَلَا لَيْقِ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَلَا لَيْدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا لِلَّالِمُ ﴾ (اس: ٢٨)

وفي سورة الأنبياء يأي عرض مسيرة بعض الأنبياء منذ نوح عليه السلام: إبراهيم، لوط، نوح، داود، سليهان، أيوب، إسهاعيل، إدريس، ذا الكفل، ذو النون، زكريا، يحيى، وعيسى بن مريم، على الأنبياء جميعهم السلام، ثم يُختم هذا العرض العظيم بهذه الأية العظمة:

﴿ إِنَّ هَلَذِهِ الْمَتُكُمُ أُمَّةً وَرَحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُونِ ۞ ﴾ (الأنياء: ١٢)

وفي سورة المؤمنون كذلك يأتي عرض مسيرة بعض الرسل والأنبياء، ثم يختم هذا العرض بالأيتين الكريميتين التاليتين:

﴿ يَكَأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْمِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُواْ صَلِيحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٥٠ وَإِنَّ مَنذِمِةُ أُمَّةً كُرُ أُمَّةً وَحِدَةً وَأَنَارَبُكُمْ فَأَنَّقُونِ ٢٠٠ ﴾ (المؤسون ٥١، ٥٢)

ومكذا بين العبادة: ﴿ ... وَأَنَا رَبُكُمْ فَأَعْبُدُونِ ﴾ والتقوى: ﴿ ... وَأَنَا رَبُكُمْ فَأَعْبُدُونِ ﴾ والتقوى: ﴿ ... وَأَنَا رَبُكُمْ فَأَعْبُدُونِ ﴾ والتقوى: ﴿ وَإِنَّ هَاذِهِ عَلَمْ اللَّهِ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَاحِدَةً ... ﴾ و و إِنَّ هَاذِهِ اللَّهُ اللَّهُ أَمَّةُ وَاحِدَةً ... ﴾ .

وتتصل الأجيال المؤمنة لتدفع النمو والتطور في حياة الإنسان، ولتضمَّ جهداً إلى جهد، وفكراً إلى فكر، وعزيمة إلى عزيمة، فتنهض بذلك حضارة الإيهان بناءً وواستخلافاً» وواستعهاراً»، عدلاً وأمناً، قوة وعزةً، نمواً ماضياً مع الدهر يحمل الخير والصلاح للإنسان. هذا الاتصال بين الأجيال، وهذا التعارف بين الشعوب، وهذه القواعد التي يقوم عليها الاتصال، يريد أهل الحداثة قطعه، وفصله، وتحطيمه. أما سمعنا قول كهال أبوديب:

الباب الثالث الغصل الرابع

«الحداثة انقطاع معرفي...»، «... الحداثة انقطاع لأن مصادرها المعرفية هي اللغة البكر، والفكر العلماني، وكون الإنسان مركز الوجود...». ولو رجعنا إلى النصوص السابقة في التعريف للحداثة، لرأينا أكثر من شاهد على ذلك. وسنرى فيها يلي من فصول شواهد أكثر.

وإذا كان تعارف الشعوب عاملًا من عوامل النمو والتقدّم كما يقرّر الإسلام، وإذا كان الصال الأجيال عاملًا هاماً كذلك في هذا الصدد، فإن بناء الأمة الواحدة وروابطها الإيهانية عامل هام كذلك في بناء النمو والتطور، ودفع حياة الناس إلى التغيير إلى الأصلح وإلى الخير. ولقد رأينا في الآيات السابقة عظمة معنى الأمة المؤمنة الواحدة الممتدة في التاريخ، فهي كذلك أمة واحدة في كل عصر ترتبط بجميع الروابط الإيهانية.

نهجان متهايزان في سبيل النمو والتطور والتغيير، ونهج الإيهان يبرز بقواعده وتناسقه وتكامله، بخيره وصلاحه، بقوته وعزّته.

ونوجز أهم خصائص النهج الإيهاني في النمو والتطوّر والتغيير، وفي السعي للتجديد وطلب «الحديث» النافع الطاهر، كما عرضنا ذلك في الصفحات السابقة، نوجز هذا بنقاط محدّدة للتثبيت والتذكير:

١ ـ الفطرة السوّية السليمة ؛

الفطرة السوية السليمة وما تحمله من نوازع وطاقات أهمها الإيهان والتوحيد وما يرافقها من «نيّة» يتفرّد بها الإسلام، وكذلك التأمل والتفكير وكذلك الرغبة في السعي، والبحث وطلب النموّ والتطور، وطلب «الجديد» النافع و«الحديث» الطاهر.

٢ ـ السنن الربانية الثابتة في الكون والحياة :

إن ثبات هذه السنن الربانية أساس كل نمو وتطور، وبغيره لا يستطيع الإنسان أن ينمو ويتطور في سعيه وحياته، ولا أن يكتشف جديداً ولا يبلغ «حديثاً».

٣ ـ التفكر والتدبر والتأمل :

وهذه ميزة الإنسان، يحمل بسببها المسئولية والأمانة، ويحمل معها القدرة على البحث المستمر عن الجديد، وعن وسائل النمو والتطور، ويحمل بسببها مسئولية التمييز بين الطيب

والخبيث، والحق والباطل.

٤ ـ السعى المنهجي الحانب للإنسان المؤمن :

والسعي كذلك سمة من سهات الإنسان، سَهل الله له سبيلها، وذلل الأرض له من أجلها، وسخر له ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، لتكون الحياة ميدان سعي للإنسان وابتلاء، ولتدفع سعيه النية الخالصة لله، على نهج إيهاني وأهداف إيهانية، ووسائل وأساليب إيهانية كذلك، تحقق له مع سائر الخصائص السابقة إمكانية النمو والتطور، من خلال المهارسة الإيهانية بكل خصائصها.

0 ـ قواعد الإيمان والتوحيد تصونح الممارسة الإيمانية :

إن قواعد الإيهان والتوحيد، حين تصوغ المهارسة الإيهانية، تجعل النمو والتطور في الجهد البشري من خصائص المهارسة الإيهانية. ونورد هنا قبسات من هذه القواعد الإيهانية:

- أ _ النية مع العزيمة والتصميم.
 - ب ـ الإتقان والإحسان.
 - ج _ الرفق والأناءة.
- د ـ التفكّر والتدبّر والموازنة الأمينة.
 - هـ ـ التعاون.
- و ـ ـ انطلاق الحوافز الإيهانية والمبادرات الذاتية .
 - _ النصيحة والتعاون من خلالها.
 - ح ـ الرأي والشورى.
 - ط _ الإشراف والمراقبة والتوجيه.
- ي _ معالجة الأخطاء بالأساليب الإيهانية الصادقة النظيفة.
 - ك _ التوبة إلى الله والاستغفار، والدعاء والذكر.
 - ل _ العلم الصادق بمنهاج الله والواقع.
 - م _ النهج والتخطيط، والإدارة والتنظيم.

- ن _ وضوح الدرب وجلاء الأهداف.
- س التنافس في العمل الصالح وطلب الآخرة، لا التنافس على الدنيا وشهواتها.
- ع إن تميّز نهج الإيهان بالنيّة الخالصة لله، وبجلاء الدرب والأهداف، والوسائل والأساليب، إن هذا التميّز يدفع إلى نموً متميز وتطور طاهر نظيف.
- ف الإيهان والتوحيد هما مصدر الطاقة العظيمة التي تغذِّي النشاط وتُنمِّي طاقات الإنسان ومواهبه على صفة متوازنة عادلة، تسمح لكل طاقة أن تحقق أهدافها.
- ص هذه الخصائص الإيهانية كلها تجمع طاقات المؤمنين لتصبّ كلها في مجرى واحد من الخير والبركة للإنسان كله على الأرض، توفّر بذلك الفرصة الأكبر للنمو الطاهر والجديد النافع.

٦ ـ تعارف الشعوب، واتصال الأجيال، وبناء الأمة :

إن تعارف الشعوب واتصال الأجيال وبناء الأمة المسلمة الواحدة، إن هذا كله حين يتم على أساس من قواعد المنهاج الرباني، تستقر قواعد الأمن الحق والسلام العادل في حياة الإنسان، في حياة الشعوب كلها، لتوفّر بذلك الجهود وتجمعها على أفضل درب وأكرم سبيل للنمو والتطور.

ومع يقيننا بأن النهج الإيماني يحتاج إلى دراسة أوسع، إلا أننا عرضناه هنا بالقدر الذي نشعر أنه يناسب موضوعنا ودراستنا.

بهذا التصور للنمو والتطور والتجديد يكون العمل والعطاء خاضعاً لقواعد ربانية، ومن هذا التصور ينطلق الأدب الإسلامي.



الفصل الخامس

TO SERVICE SER

الماضي ، التراث ، الأسطورة بين الأدب الإسلامي والحداثة

يقول «إزرابوند Ezra Pound» في مقالة عن الشعر الفرنسي: «إن جميع الجهود التي تُبذل لتكون شاعرياً "Poetic" ، على هذا النحو أو ذاك لا تبلغ هدفها» . ويعلق «لويس ميناند» في كتابه «اكتشاف الحداثة Discovering Modernism » فيقول: «مع ما في هذا القول من وجاهة ، لكنه يترك السؤال الهام حائراً يبحث عن إجابة ، ألا وهو: كيف يمكن وصف النبضة التي تكون القصيدة بغير هذه الجهود» (١) ذلك لأن «الشاعرية Poetic » أصبحت تحمل معنى هائماً في اللاوعي ، وأصبحت الحداثة تدفعها بعيدة في عالم الغيبوبة والسكر ، كما وصفه لنا أدونيس وغيره . وأصبحت كلمة «الأدب» موضع صراع شديد بين المذاهب ، صراع فوضوى .

يقول «إزرابوند» في رسالته إلى «هارييت مونرو»: إن أيَّ جملة أدبية أو نشاط أدبي التورية التعالى التعالى

ويقول «لويس ميناند» في كتابه المذكور أيضاً: «جرت العادة لدى بعضهم أن يصف

Louis Menamd Discovering Modernism , Eliot and His Context,-- Oxford University Press- 1988. (1)

⁽٢) المرجع السابق. (ص: ٥٥).

«الحداثة Modernism» بأنها مذهب شكلي تظهر ملامحها على صورة ردود فعل للحياة العصرية أكثر مما هي انعكاس لها. ذلك أن بعض الناس اعتاد أن يصف الحياة بالفوضى وانعدام الشكل والقيم، مما لا نزال نسمعه حتى اليوم». ثم يقول: «ولكن يمكن أن نرى الحداثة من بعض الوجوه بأنها محاولة لتطبيق المصطلحات الأدبية ومعاييرها على الأساليب المختلفة لقياس القيم الاجتماعية وأعمالها المختلفة، دون أن يفقد الأدب ما تمتع به كميدان تقليدي للعطاء والمحاولة»(١).

لقد ظلت أسئلة كثيرة في عالم الأدب الحداثي وفكره قلقة حائرة تبحث عن إجابة. وظلت التصوُّرات للحداثة في صراع ممتد لا يزيدها الصراع إلا غموضاً واضطراباً. ومع ذلك فقد بقي لها من خلال هذا الصراع ملامح عامة مشتركة، كان الغموض والاضطراب أحدها، كما رأينا في النصوص التي سقناها أعلاه وفي الصفحات السابقة.

وحين تحدثنا عن جذور الحداثة مررنا بمراحل ثلاث: الأولى: «كانت» و«هيجل» و«ماركس» عند «جيدنر». والثانية... اليونان ووثنيتها. والثالثة عصور غابرة في التاريخ تعود إلى عهد الرسالة الأولى مع نوح عليه السلام. ومها اختلف وجهات النظر، فإن الجذور اليونانية لا يختلف عليها أحد.

ومن أهم هذه الجذور «الأسطورة» التي نبعت في الفكر اليوناني وأدبه، وامتدت في الحياة الأوروبية منذ تلك العصور حتى يومنا هذا، وحتى أصبحت سمة ملازمة لفكر الحداثة وأدبها. يقول «هنري سوسهان Henry Sussman في كتابه: «الصور البعدية للحداثة وأدبها. يقول «هنري سوسهان الخداثة اليوم أحيوا الأوديسا والملاحم الأخرى لتكون دليلًا لهم في جولاتهم القصصية. وأصبحت كتب «هوميروس» تُكون الإطار الحقيقي للقصة والقاعدة للنهج البنيوي، النهج الذي يُطعم به «أزرا بوند» السلسلة الحائرة من قصصه والمادة الثقافية التي يتناولها مع غيرها من حضارات الصين وإيطاليا وفرنسا. الخ» (٢) ويوضح «سوسهان» امتداد هذه الظاهرة إلى جذورها اليونانية فيقول:

⁽١) المرجع السابق. (ص: ٨).

⁽٢) الصور البعدية للحداثة (ص: ١). (Afterimages Of Modernity)

ويمكننا أن ندرك السبب الذي من أجله أصبحت الأساطير وصناعتها، وهي أداة ثقافية دائمة ومتغيرة، موضوعاً متميزاً في التحليل البنيوي. ذلك لأن أساطير الأثار الكلاسيكية احتلت دوراً، في الثقافة الغربية على الأقل، مماثلاً للدور الذي احتلت الأحماض النووية "nucleic acids" في القرن العشرين، (۱). ويقول كذلك: "an- "buim ليفي ستراوس "Claude Levi Shauss" فإن رجل علم الإنسان -an- "thropologist" عنده يمثل الصورة الحديثة لأوديسوس، وبالنسبة لرولان بارت Roland" فإن «الأسطورة» تمثل النموذج المتفوق للغة ضد نفسها. والأسطورة عند بارت تمثل المجتلد في المسرح الروماني، أو حلبة المصارعة، حيث تُطلق الثقافة وتكشف عن علاقاتها (۱)والأسطورة تقيم علاقات قوية بين ما يسميه سوسيير "Langue"، وما يسميه علاقات في تحليله الألسني، كما يوضح ذلك سوسهان.

أدلة كثيرة واضحة على أهمية دور الأسطورة والخُرافة في أدب الحداثة وعلومه من تحليل بنيوي وغيره. وهذا ما يرفضه الأدب الإسلامي.

الخرافة والأسطورة، كما جاءت بها المثيولوجيا اليونانية، تمثل في نظر الإسلام صورة من صور الانحراف عن الإيمان والتوحيد. ولا نشك في أن كل أمة في الأرض قد بلغتها رسالة الله، فذلك ما نصّ عليه القرآن الكريم. ونلمس بعض الآثار المنحرفة عن الإيمان والتوحيد عند اليونان كما نلمسها عند غيرهم من الشعوب التي انحرفت عن الإيمان والتوحيد، وبقي لديها شعارات وألقاب، وحركات وتمتهات، انقطعت عن نبعها الحق فجفّت وذبلت وفسدت. المؤمن يؤمن بالغيب الحق كما جاء من عند الله في منهاج الله وحياً على عبده ورسوله محمد على مطلقاً لا ريب فيه. فذلك مصدر أساسي من العلم الحق.

﴿ الْهَ ۞ ذَلِكَ ٱلْكِ تَلْكِ الْكِ تَلْكِ الْمَالِيَ الْمُنْقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُوْمِنُونَ يُوْمِنُونَ مِنْ وَلَيْمَ مُنْفِقُونَ ۞ ﴾ (البقرة: ١-٣)

⁽١) المصدر السابق. (ص: ٣). (٢) المصدر السابق. (ص: ٧).

الباب الثالث الغامس

المؤمن يؤمن بالغيب الحق لا بالخرافات والأساطير. أما إذا انقطع الإنسان عن الغيب الحق وانقطع عن منابع الإيهان والتوحيد، ومصادر العلم الحق والتصوّر الأمين، تحوّل بسبب هذا الانقطاع إلى اللجوء إلى الخرافة والأساطير والآلهة التي يصنعها له هواه والشيطان، بدلاً من أن يلجأ إلى الله الواحد القهار، عالم الغيب والشهادة العزيز الغفار. وبتحوله هذا يندفع في سبل شتى كها مر معنا في حديث رسول الله في فصل سابق ويمضي الإنسان مع هذا الانحراف، إذا وقع فيه، ليُفرز بين عصر وآخر نهاذج متنوعة من هذا الانحراف تطلقها الأساطير ويصوغها الهوى والعلم المضطرب المحدود. وتصبح الأساطير ملجأ الإنسان التأثه، ومنهج السعي، ومنطلق الفهم للحياة والكون والإنسان، ومصدر خصائص العمل والسعي. فلا عجب إذن، وقد أخذت الأساطير هذه المكانة في فكر الحداثة وعلومها وأدبها، أن تمتد سائر خصائصها موسومة بالغموض والتناقض فكر الحداثة وعلومها وأدبها، أن تمتد سائر خصائصها موسومة بالغموض والتناقض والاضطراب، بالحيرة والقلق والحمى. ولا عجب أن نجد أن حياة الإنسان، والإنسان الأوروبي خاصة، لم تعرف الطمأنينة والاستقرار في هذه الحداثة التي تظهر في تاريخه، بل ملأتها الحروب والمجازر والأطهاع والظلم والعدوان، وانتشر فيها الفساد وظهر في البر والبحر بها كسبت أيدى الناس.

أما المؤمن فيلجأ إلى الحق الجليّ الصادق، لا إلى الأساطير والأوهام والظنون. إنه يلجأ إلى الغيب الحق الذي نبأنا به الله سبحانه وتعالى، في منهاج ربّاني متكامل متناسق، ليقدّم للإنسان الخير والصلاح في الأرض، وليوفّر له الملجأ الأمين والحمى من عند الله، فيمضي على نور وهدى وطمأنينة. وتصبح كلمته كلمة خير وصدق، وأدبه أدب بناء وإصلاح على هدى من عند الله على صراط مستقيم، ينهل من مصدر غني بالعلم الحق اليقيني.

فالأدب الإسلامي ينهل من علم الغيب الحق كها جاء في منهاج الله، ليفتح له هذا العلم آفاق الدنيا والآخرة، وليجول الأدب الإسلامي جولات الحق في هذا الميدان الواسع، وليجول جولات الحق في حياة الإنسان والبشرية، بعيداً عن الأساطير والأوهام والظنون.

الحداثة تتعامل مع الأساطير والأوهام والظنون لتحمل الخصائص التي عرضتها لنا

النصوص السابقة، ولتنحرف كذلك بهذا التعامل عن النهج الحق الذي يمضي عليه الأدب الإسلامي، ولتمثل الحداثة في ذلك القضية الرئيسة الرابعة التي تُحدَّد موقف الإسلام والأدب الإسلامي الواضح من الحداثة برفضه الأساطير والخرافة.

وتقدم الأساطير بهذا الدور في الحداثة صورة من صور التناقض التي تعيش فيها الحمداثة. فحين تدعو الحداثة دعوة جماعية، كما مرَّ معنا في النصوص المختلفة، إلى الانقطاع عن الماضي كله، عن التراث كله، تعود هي فتتصل بالماضي متناقضة مع نفسها ومبادئها. ولكنها لا تتصل مع الماضي كله، وإنها تتصل مع أسوأ ما في الماضي وتراثه، الأساطير والأوهام، وتترك الخير والحقَّ الذي يمتدُّ في تاريخ الإنسان، تحمله النبوة مع العصور كلها والأجيال كلها، الحقَّ الذي أكمله الله بالنبوة الخاتمة.

والأدب الإسلامي، وهـو يرفض صبغة التناقض هذه، وصبغ الاضطراب والشك والوهم والأسطورة، يرفض كذلك الانقطاع عن الماضي، أو تجاهل الحاضر، أو السعي للمستقبل سعياً معزولاً عن الماضي والحاضر. وهذه هي القضية الخامسة.

والأدب الإسلامي يرى، كما يرى الإسلام، أن العصور متصلة والأجيال مترابطة عجمعها التصور الصادق الواحد والأهداف الواحدة في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ويمتد هذا الاتصال على نور وإشراق حتى يربط الدنيا بالآخرة، وليكون هذا الاتصال كله نبعاً غنياً للأدب الإسلامي، يقدِّم به النهاذج الرائعة للإنسان في الأرض كلها، على إيان وتوحيد ثابتين، وعلى أهداف واضحة ثابتة، وعلى نهج واحد وصراط مستقيم، ويدفع بذلك الجهد البشري لينمو ويتطور ويقوى ويشتد، ليساهم بدور عظيم في جهاد الإنسان لبناء الحياة الطاهرة النظيفة على الأرض، ولبلوغ الجنة في الدار الآخرة. واستمع إلى دعاء إبراهيم عليه السلام يربط الأجيال كلها في دعاء وميثاق وعروة وثقى:

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوْةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبِّكَا وَتَقَبَّلُ دُعَلَءِ ۞ رَبَّنَا وَتَقَبَّلُ دُعَكَء ۞ رَبَنَا وَتَقَبَّلُ دُعَكَء ۞ رَبَنَا وَتَقَبَّلُ دُعَكَ وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَمِن يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۞ ﴾ (ابراميم: ١٠٠٠)

وكذلك:

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَ يَنِ لِكَ وَمِن ذُرِّ يَتِنَآ أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْعَلَنَاً أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْعَلَنَا أَمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَابْعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَئتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ النَّكَ الْنَ الْعَنِ يُزُلُقَ عَلَيْهُمْ ءَايَئتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكَاكِنَةِ وَلَيْ يَعْلَمُهُمُ الْكَلِنَةِ وَلَيْ عَلَيْهُمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَنِ يُزُلُقَ كَلِيمُ هُا ﴾

(البقرة: ١٢٨، ١٢٩)

وآيات وأحاديث كثيرة تربط أجيال المؤمنين في الأرض كلها لتكون أمة واحدة تعبد ربًّا واحداً ولها نهج ربّاني واحد هو الإسلام:

﴿ إِنَّ هَنَذِهِ * أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَحِدَةً وَأَنَارَبُكُمْ فَأَعْبُدُونِ ۞ ﴾

(الأنبياء: ٩٢)

إنها نقطة فراق كبيرة بين الأدب الإسلامي والحداثة. إن تصوّر الأدب الإسلامي في هذه القضية وغيرها نابع من الإيمان والتوحيد ومن أسس المنهاج الرباني. وتصور الحداثة نابع من تصورها المختلف عن الحياة والكون والإنسان. إن جميع مذاهب الحداثة عبّرت عن هذا الانقطاع عن الماضي وأكدته. وأكثر من ذلك فإنها في الواقع الحالي تمزّق روابط الجيل الواحد، وتحطم الأسرة، وتغيّر من وظيفة المرأة في الحياة. يكتب «جورج هيم» من رجال الحركة التعبيرية في يومياته (٣ كانون الأول سنة ١٩٩١م): «كان باستطاعتي أن أصبح واحداً من أعظم الشعراء لو لم يكن لي مثل هذا الأب الخنزير»(١) هكذا أصبحت نظرة الابن لأبيه في مجتمع تقطعت فيه وشائج الأسرة.

والأدب الإسلامي يرى الأسرة نواة المجتمع البشري، ويرى أهمية علاقات الأبناء بالآباء كها رسمها منهاج الله، ويرى ترابط الأرحام على نحو لا تعرفه الحداثة الغربية أبداً، الحداثة التي تسلَّلتُ إلى المجتمع الإسلامي، وأخذت تقطع هذه الروابط الإيهانية،

⁽١) مالكم برادبري وجيمس ماكفارلن، كتاب «الحداثة»، (ص: ٢٦٩).

الباب الثالث الغاس

وأصابت نجاحاً نرجو أن يكون أقل مما حققته في الغرب ونرجو أن لا يمتد.

إن انقطاع الحداثة عن سلامة التصور الإيهاني للحياة والكون والإنسان وانقطاعها عن مصادر المعرفة الحقة، واعتهادها الأساطير، وانقطاعها عن الماضي بها فيه من حق وخير، وتقطيع روابط الأجيال، هذا كله، مع ظروف المجتمع الأوروبي وتطوراته بالثورة الصناعية والفلسفات المادية والمثالية هذا كله دفع المرأة إلى ميدان غير ميدانها الذي خلقت له، فخلعت سترتها وكشفت عورتها، وأصبحت لهيب شهوة تُخدِّر وتحرق وتفسد.

وتبنّى الأدب الحداثي هذا الدور للمرأة، وأصبح الحبُّ في الأدب الحداثي لا يعني إلا المرأة والجنس والشهوة الملوّثة وطويت معاني الحبّ الصادق: حب العبد لربه وخالقه ولرسوله محمد على ليكون أعظم حب في حياة الإنسان كها نص القرآن والسنة على ذلك. وغابت معاني حُبِّ الإنسان لوالديه وأرحامه، حُبّ برَّ وإيهان، وحب الإنسان للصلاح والخير والحق، وحبُّ المؤمن، وحبُّك الإنسان في طريق الدعوة والبلاغ لرسالة الله لعباده، رسالة الإيهان والتوحيد، وحبُّ الرجل للمرأة في ظلال الزواج الطاهر، والسكن والحنان، والأمومة الغنية بالبر والعاطفة والإشراق، كل هذه المعاني الرائعة اختفت ليمثل الأدب الحداثي الحبّ في قطاع كبير منه الشهوة الملوّئة المحرَّمة، أو ليستبدل بالحبّ كراهية وحقداً على البشرية كلّها. غابت أعظم معاني الحُبّ في حياة الإنسان، وأصبح الحب كها تصوّره الأساطير اليونانية آلمة تعشق رجلًا، وآلهة تغضب أو ترضى للشهوة. وامتد هذا التصور وتسلّل إلى مجتمعاتنا حتى كادت تنحرف كلمة «الحُبّ» عن نهجها القرآني وجلالة دوره في حياة الإنسان.

يختلف الأدب الإسلامي عن الحداثة في معالجة قضية المرأة ودورها. تصوَّران مختلفان. تصور ينبع من الإيهان والتوحيد، ومن مصادر المعرفة اليقينية لا الظنية. وتصور ينبع من انقطاع عن ذلك كله، والتزام بالأساطير والوهم والظنون.

لقد أخذ بعضهم اليوم يدرك خطورة ما آلت إليه أوضاعهم حين دفعوا المرأة إلى العري والفجور، وإلى المصانع والوظائف العامة. فهذا «جورباتشوف»، في كتابه «البيروسترويكا»، تحركت فطرته في لحظة من لحظات الوعي قبل أن تعود وتغيب ثانية

الباب الثالث الغامس

فيقول: «ولكن في غمرة مشكلاتنا اليومية الصعبة كدنا ننسى حقوق المرأة ومتطلباتها المتميّزة المختلفة بدورها أمّاً وربَّة أسرة. كما كدنا ننسى وظيفتها الأولى التي لا بديل عنها مربّية للأطفال. . »(١) وبهذا الاختلاف يختلف حجم كبير من الأدب، أدب المرأة ودورها في الحياة.

قضايا متعددة تختلف فيها الحداثة عن النهج الحق الذي يرسمه الإسلام ويتبعه الأدب الإسلامي: الانقطاع بين الأجيال أو الروابط بينها، الأسرة والأرحام وروابطها، المرأة ودورها في الحياة، الحبُّ ودوره ومنزلته. كل قضية من هذه القضايا تستحق دراسة مستقلة. ولكننا في هذه العجالة نكتفي بهذه الإشارة وهذا الإيجاز.

وقضية أخرى هامة ترتبط بها سبق. ألا وهي الانقطاع عن التراث كله ومحاربته، كها بينت نصوص رجال الحداثة أنفسهم. وهذه قضية مجُمَع عليها في الفكر الحداثي : رفض التراث ورفض التقليد. والمؤسف أن هذه الشعارات أصبح طنينها مألوفاً حتى عشقته آذان عدّة، وهوته نفوس كانت نافرة منه قبل حين. ويبدو أن ذلك كان تحت تأثير الضغط الإعلامي الهائل في واقعنا اليوم، مع ما يشكو منه واقعنا الإسلامي من خلل واضطراب في التصور الإيهاني في قطاع واسع، مهد لقبول زينة وزخارف تحملها الحداثة وتطرحها في واقعنا، دون أن يجد الفرد المسلم فرصة للتمحيص والتدقيق. أصبحت كلمة «التقليد» منفرة للنفوس. والإسلام يُنكر التقليد الأعمى دون وعي، ينكر التقليد الذي يمضي لمجرد التقليد، لكنه يأمر باتباع الحق ولو كان فيه تقليد، مادام يرافق التقليد وعي وفهم وتمحيص وستولية. إن الإسلام يضع ميزاناً واحداً ثابتاً تُردُّ إليه الأمور كلها: منهاج الله وسنة ـ كها بلغنا إياه النبيُ الحاتم محمد عليه لساناً عربياً مبيناً. فها وافق هذا الميزان قبلناه ولو كان من الماضي، وما خالفه رفضناه ولو كان في واقعنا اليوم. وردُّ الأمور إلى منهاج الله ليكون هو الميزان الوحيد للإنسان قضية أساسية في الإيهان، يضطرب الإيهان دونها ويختل. ليكون هو الميزان الوحيد للإنسان قضية أساسية في الإيهان، يضطرب الإيهان دونها ويختل. ليكون هو الميزان الوحيد للإنسان قضية أساسية في الإيهان، يضطرب الإيهان دونها ويحتل والإسلام شدّد على الذين يأخذون دينهم عن آبائهم مقلدين دون وعي وتمحيص، ودون

⁽١) البيروسترويكا لجورباتشوف، (ص: ١٦٦).

تدبر ودراسة، ويظلُّ الإنسان هو المسئول في جميع الحالات.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَمُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ مَا بَآءَ فَأَ أَوَلَوْ كَاتَ اللهُ وَاللهِ عَلَيْهِ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ مَا أَلُونَا كَانَ عَلَيْهِ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ مَا اللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ عَلَيْهِ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ مَا اللّهُ وَاللّهُ عَلَيْهِ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ مَا اللّهُ وَاللّهُ عَلَيْهِ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ مَا اللّهُ وَاللّهُ عَلَيْهِ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ مَا اللّهُ وَاللّهُ عَلَيْهِ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ مَا اللّهُ وَاللّهُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ مَا اللّهُ اللّهُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ مَا اللّهُ اللّهُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ مَا اللّهُ عَلَيْهِ مَا اللّهُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْكُولِكُ اللّهُ عَلَيْهِ عَلَيْهُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلْهُ اللّهُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْكُولِكُ مَا لَا يَعْمَا لِللّهُ عَلَيْهِ عَلَّهُ عَلَيْهِ عَلْمُ اللّهُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَلْهُ عَلَيْهِ عَلْهِ عَلَيْهِ عَلَيْ

وحين ينعى الإسلام على هؤلاء الذين يتبعون آباءهم دون وعي وتمحيص واتباع للحق وبحث عنه، فإنه يأمر بالنظر في الماضي والإيمان به وربطه بالحاضر مادام حقا بميزان منهاج الله:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَكَا بِٱللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَهِءَ وَإِسْمَعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوقِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوقِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن زَيِّهِ مِّهِ لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدِ مِنْهُمْ وَنَحَنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۞ ﴾ (البفرة: ١٣٦)

التراث في نظر الإسلام قوة وضرورة مادام مرتبطاً بمنهاج الله، مادام يمثل مسيرة أمة الإسلام وهي تحمل رسالة الله إلى الناس على مرّ العصور، لتربط الماضي بالحاضر والمستقبل، ولتربط الدنيا بالأخرة. كيف يرضى الإسلام لأحد من أبنائه أن يتبع على غير هدى أو يقلد تقليدًا أعمى دون وعي ومسئولية، مادام الإنسان محاسباً بين يدي الله:

نظرتان مختلفتان، ونهجان مختلفان، وموقفان مختلفان من التراث والتقليد: منهج يشرق من الإيهان والتوحيد، ومنهج فيه عتمة الانجراف وظلمته، وستظلُّ العتمة صفة من صفات الحداثة. يقول: «أنتوني جيدنيز» في كتابه: «نتائج الحداثة للحداثة يقول: «أنتوني جيدنيز» في كتابه: «نتائج الحداثة تحمل جانباً مُعتِها، جانباً أصبح شديد الوضوح بعتمته في القرن العشرين»(۱). ويقول: «إن القرن العشرين هو قرن الحروب. إن عدد الحروب التي

Anthony Giddens: The Consequences Of Modernity. (۷: ص) (۱)

البأب الثالث الغاس

رافقها خسارة كبيرة في الأرواح كانت أكثر بكثير مما حدث في أي من القرنين السابقين. ففي القرن الحالي حتى الآن (١٩٩٠م) كان قتلي الحرب أكثر من مائة مليون إنسان. وإذا وقع نزاع يستخدم أسلحة الدمار الشامل، فإن الإنسانية معرضة للاستئصال»(١) إنها نتيجة طبيعية للفكر والأدب الذي كان يقود الإنسان في دهاليز العتمة قروناً طويلة ابتلاء من الله سبحانه وتعالى. إن جميع المذاهب الفكرية والفلسفية والاجتماعية والأدبية، وهي تحمل جذورها من الوثنية اليونانية كها عرضنا، مع ما أضافته لنفسها من العتمة مع العصور والأجيال، إن هذا كله كان لابد أن يؤدي إلى العتمة الحداثية والقلق والحيرة والشك. وإن جميع مذاهب الحداثة حملت معها هذه السيات: «الحركة الانحطاطية» ثم «الرمزية» و«الانطباعية»، «المستقبلية»، «التعبرية»، «الدادائية»، «السريالية» و«الأدب المهنة -Pro fessionalism »، «التصويرية»، «الذاتية egoism »، و«السميولوجية»، «البنيوية» و«مابعد البنيوية» و«التشريحية»، جميع هذه الحركات حملت معها العتمة والتناقض والقلق والاضطراب. جميع هذه الحركات كانت للبحث عن إله تعبده من دون الله. وكل حركة كانت تأخذ جزئية في الحياة تحاول أن تجعل منها حقّاً مطلقاً تفسر به الحياة كلها، وعندما تكتشف فشلها تصاب بالصدمة فتنهار، فتظهر حركة جديدة هي ردّ فعل للحركة السابقة، تأخذ جزئية جديدة تحاول تعميمها فتصل إلى ما وصلت إليها سابقتها. اتخذوا العلم وثناً، وآخرون اتخذوا الفرد، وآخرون اتخذوا الجنس والحياة الجنسية، وهكذا في تناقض متوال ظاهر.

إن «ولتر بنجامين Walter Bengamin »(٢). يُصوِّر آثار الحداثة تحت عنوانين رئيسين: «معاناه الصدمة وفقدان العطر والهالة». . (٣) ولقد ظلت حركات الحداثة، مهما اختلفت ومهما هاجمت التراث والماضي والقديم، ظلت تبحث عن جذور لها في القديم. فعندما تأسست «الجمعية الثيوصوفي» في أمريكا عام ١٨٧٥م حاولت الاستفادة من الوثنية الشرقية

⁽١) المصدر السابق، (ص: ٨).

⁽٢) ناقد ألماني له مقالات عن تاريخ الفلسفة، احداها .The Angel Of History

Afterimages Of Modernity: (۱۳: س) (۳)

كالبوذية والفيداوية، وكذلك من الوثنية اليونانية. وظهر لذلك اتجاهات متناقضة من أجل الدعوة إلى حرية الفرد أو حرية الجهاعة أو الفوضوية. . (١)

يقول «إليوت» في قصيدته الأرض اليباب سنة ١٩٢٧م: «أنا تايرسياس أعيش حياتين على الرغم من العمى. أنا رجل عجوز ذو ثديين أنثويين متعفنين، إلا أنني أستطيع أن أرى في اللحظة الحاسمة» (١٠). غموض وتناقض. نعم! إنه يستطيع أن يرى في اللحظة الحاسمة الحقيقية لا كما يحسبها هو. إنها لحظة الحساب بين يدي الله:

﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَلَا أَنَّكُشُفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ (ف: ٢٢)

. وفي رواية كتبها وإلياس كانيتي، سنة ١٩٣٥م، يحاول فيها بطل الرواية أن يتلمس الطريق بين رفوف مكتبته وهو مغمض العينين، حتى لا يشغله الأثاث الجميل. ثم يبدأ يختار كتبه كالأعمى ويرتكب أخطاء الأعمى . غموض وتناقض وعمى . . . (٣) ويقول بارثس: وإن الفكرة وليدة المصادفة وإن الحظ يساعدك على قطف الثهار» . (١) لجوء إلى الحظ والمصادفة مثل اللجوء إلى الأساطير بعد أن غابت إشراقة التوحيد. إنه الغموض والتيه «والممرات المعقدة» اللجوء إلى الأساطير بعد أن غابت إشراقة التوحيد. إنه الغموض والقلق والحمّى، تقول: وانزك الملائكة» في مقدمة المجلد الثاني لديوانها: «أما قصيدة «الأقعوان» فقد عبّرت فيها من الإحساس الحفي الذي يعترينا أحياناً بأن قوة مجهولة جبّارة تطاردنا ، تطاردنا مطاردة نفسية مُلحّة . . » (٩) . وتقول كذلك : « . . إن هذا الأقعوان يطاردنا باستمرار وسدى

⁽١) مالكولم برادبري وزملاؤه ـ الحداثة. (ص: ٧٥ ـ ٧٩).

⁽٢) مالكولم برادبري وزملاؤه ـ الحداثة. (ص: ٨٩).

⁽٣) مالكولم برادبري وزماؤه ـ الحداثة. (ص: ٩).

⁽٤) مالكولم برادبري وزملاؤه ـ الحداثة (٩١).

⁽٥) ديوان نازك الملائكة، المجلد الثاني ـ دار العودة بيروت ـ الطبعة الثانية (١٩٨١م). (ص: ٢٦).

نتهرب منه، حتى إذا لُذنا باللابرنث Labyrinth ، وهو تيه معقد المسالك يدخله المرء فلا يملك مغادرته لالتواء طرقه . . . » (١٠) . . نعم هذا شعور من لا يلجأ إلى الله ولا يلوذ بحماه ، بل يلوذ ، كما تقول «نازك» : « . . حتى إذا لذنا باللابرنث . . » ولقد صور القرآن الكريم هذه النفسيات كلها في جميع أحوالها من الظلمة والخوف والقلق . ونأخذ قبسات هنا فقط :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَصَاءَتْ مَاحَوْلَهُ. ذَهَبَ ٱللهُ بِنُورِهِمْ وَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَنت لِلَّا يُبْصِرُونَ ٢٠٠٠ صُمُ ابْكُمُ عُمْنُ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ٢٠٠٠ ﴾.

(البقرة: ۱۸،۱۷)

﴿ اَوْكَظُلُمَنَ فِي بَعْرِلَجِي يَغْشَنَهُ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَعَابُ ظُلُمَتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضِ إِذَا أَخْرَجَ يَكَدُهُ لَمْ يَكَذَيْرَنَهَا وَمَن لَزَيَجْعَلِ اللّهُ لَهُ رُولًا فَمَا لَهُ مَ مِن نُورِ ۞ . ﴾ (النور: ٤٠)

امتدت الشورة الحداثية بصورتها المهووسة حتى طالت الطبيعة كما يفهمونها. فهذا «ماياكوفسكي» رجل الحركة المستقبلية الحداثية في روسيا، في قصيدة له أسهاها: «مغامرة خارقة قام بها ماياكوفسكي في كوخ صيفي» فإنه يدعو الشمس إلى قدح شاي لكي يعوق شروقها وغروبها الأبديين المملّين له. فهو يحاول أن يعبّر عن ثورته على الطبيعة وعلى سنن الله الثابتة في الكون، السنن التي لا يؤمن بها هو ولا فكره ولا أدبه (٢٠). ولكن الشمس بقيت تشرق وتغيب على سنة لله ثابتة، وأما «ماياكوفسكي» فقد مات منتحراً. القلق والصدمة والتناقض قد يؤدي كله إلى الانتحار. و«هيوكوبول» متصوف دادائي أخرج صحيفة أسهاها: «الهروب من الزمن» و«هانزآرب» دادائي آخر يقول: «نحن نفتش عن فن قائم على أسس ثابتة من أجل معالجة جنون هذا العصر» (٣)، ولقد أصدرت الحركة المستقبلية

⁽١) المرجع السابق. (ص: ٢٦).

⁽٢) الحداثة. (ص: ٢٥٨).

⁽٣) مالكولم برادبري وزملاؤه ـ الحداثة. (ص: ٢٨٧).

الروسية بياناً أسمته: «صفعة في وجه الذوق العام»(١) وأصدرت الحركة التعبيرية مجلة قال فيها صاحبها: «إن المجلة جاءت لتقوّض المجتمع القائم. . »(١).

وحين يريد «ماريتيتي»، رجل الحركة المستقبلية الإيطالية، أن يصف الإبداع فإنه يقول: «يبدو أن اليد التي تكتب تنفصل عن الجسد وتأخذ بالابتعاد المستقل عن الدماغ» (٣) ويعبر مارينيتي عن حركة ناقل السيارة بإشارات «+-+-++» وتذكرنا هذه بقصيدة لأحد الحداثيين جاء فيها: «سيتزن سيتزن سيتزن». وينص مارينيتي في كتابه «زانك تم تم» ويقول: «سي سي سي سي سي» أهي قصيدة؟! أهي أدب؟! أهي لغة؟! اشتد القلق والاضطراب والحيرة والشك حتى أصدر «مارينيتي» كتاباً أسهاه: «الحرب هي العلاج الوحيد للعالم». وأصدر «أبولينر» كتاباً أسهاه «العداء المستقبلي للتراث» (١٠).

لقد تسللت هذه الحركات الصوتية، وهذه الرموز الرياضية، وهذا العداء للتراث والقلق والتناقص إلى ميدان الأدب في عالمنا العربي والإسلامي، وبرز في النثر والشعر والفكر.

الأدب الإسلامي لا يعيش حياة القلق الذي رأيناه، ولا حياة التناقض والغموض والاضطراب، ولا حياة اليأس. إنه أدب الوضوح والاطمئنان، والثقة والقوة والجهاد في سبيل الله. إنه أدب يخرج من مؤمن يحمل رسالة في الحياة، يعرف أهدافه ودربه، ويعرف نهجه وغايته، أدب يتجه بكل كلمة يقولها إلى الجنة، لتكون هي الهدف الأكبر والأسمى، ولتهبه العزة والقوة والثقة.

إن هذا النهج الإيهاني والأهداف الربّانية هي التي تصوغ الأدب الإسلامي ليأخذ من نهجه وأهدافه أعظم بعد إنساني وكوني.

⁽١) مالكولم برادبري وزملاؤه ـ الحداثة. (ص: ٢٥٦).

⁽٢) مالكولم برادبري وزملاؤه ـ الحداثة. (ص: ٢٦٨).

⁽٣) مالكولم برادبري وزملاؤه ـ الحداثة . (ص: ٣٣٦ ـ ٣٣٨).

⁽٤) المرجع السابق. (ص: ٢٣٢ ـ ٢٤٩).

«الهيام من المحدود إلى المطلق» «الانعتاق من كل القيود»، «اللاحقيقة»، «اللاواقع»، هذه هي بعض مصطلحات الحداثة (١)، أفرزتها الأسطورة والخرافة وما يتبعها من اضطراب وغموض، ومن ابتعاد عن حقيقة الإنسان وجوهره وحقيقة الكون وامتداده. ويقابل ذلك كله التعبير الأمين الدقيق، الحق الصادق في الفكر والتصور والمارسة، والارتباط بالحقائق الكونية من المشهد والغيب، مما يمثل سمة الأدب الإسلامي.

هذا القلق والاضطراب في فكر الحداثة وأدبها لم يأت من فراغ، لقد دفع هذا القلق عدداً من رجال الحداثة مثل «ماياكوفسكي» إلى الانتحار، وعدداً من رجال «السريالية» إلى الهوس والهستيرية والتهريج.

إذا أخذنا بوجهة النظر القائلة إن حداثة اليوم ولدت في القرن التاسع عشر، فقد رافق ولادتها أحداث هامة في واقع الإنسان الأوربي. زحمة هائلة في العلوم والاكتشافات في مختلف الميادين، حتى قال أحدهم واهماً: لم يعد للإنسان شيء جديد يخترعه أو يكتشفه. وقد أورثته زحمة هذه العلوم غروراً حتى كاد الناس يؤهّون العلم أو أهوه فعلاً. وأورث الغرور اضطراباً في الرؤية وتفلّتاً في الشهوات ونقمة على الدين المسيحي ورجاله، حتى عزلوا الدين في الكنائس وأعلنوا قيام المجتمع اللاديني «العلماني» والدولة اللادينية، -sec ولكن بقى للدين في واقع المجتمع آثار هامة:

أولاً: الأثر النفسي العاطفي لدى الناس، الأثر الذي يقوى ويضعف على فترات تختلف بين مكان ومكان وأحداث وأحداث.

ثانياً: استغلال السلطة وأرباب المصالح لهذه العواطف لدى الجماهير لتسويغ عدوان ظالم على الشعوب، ولنهب خيراتها وثرواتها.

ثالثاً: دفع الحركة التنصيرية إلى خارج بلادهم، بعد أن حجزوا الدين في الكنائس في بلادهم، لتكون هذه الحركات عمّدة للغزو والعدوان.

اجتمعت هذه الصورة في ظل النظام الاقتصادي الرأسمالي، الذي صاغ النظام

⁽١) بين الأصالة والحداثة. أحمد فرح عقيلان. الطبعة الأولى ١٤٠٦هــنادي الطائف الأدبي. (ص: ٣٢).

الباب الثالث الغصل الخامس

السياسي الديمقراطي ليوفّر لنفسه الحماية ولسلطته النفوذ، وليوفّر للناس من خلال الحرية المتفّلته خدر الشهوات الجنسية والخمور والإباحية في فجور يزداد مع الأيام، ليكون هذا الفجور أبرز مظاهر الحداثة الأوروبية. ولقد ساعد على هذا كله الثورة الصناعية التي دفعت المرأة إلى قلب المصانع لتنشر لهيب الفتنة والشهوة باسم النظام والقانون.

وكان من أبرز ردود الفعل للنظام الرأسهالي وللديمقراطية ظهور الاشتراكية وديكتاتورية الطبقة العاملة.

وكذلك ظهرت الحركة الصهيونية لتستفيد من مختلف التناقضات القائمة في معظم ميادين الحياة: الاقتصادية والسياسية والاجتهاعية والإعلامية ولتمدّ نفوذاً يتزايد أو ينقص هنا وهناك، بين أوروبا وأمريكا، حتى أصبحت الحركة الصهيونية جزءاً من مصالح القوى الظالمة المعتدية هنا وهناك. هذه التناقضات كان من أبرز آثارها في القرن العشرين امتداد الحروب كها ذكرنا، وارتفاع عدد الضحايا بشكل مربع، ونزول القنابل النووية على اليابان، على هيروشيها ونجازاكي، في أفظع جريمة في تاريخ البشر يرتكبها النظام الديمقراطي وهو يبحث عن حقوق الإنسان بين الآرائك والمؤتمرات، ثم يفني الناس غير المقاتلين بالملايين، ويفنيهم بالجوع والقتل والإبادة.

ثم انتشار الجريمة وانعدام الأمن، حتى أصبح المجتمع الغربي مجتمع الجريمة. وانتشار الأمراض الجنسية والعصبية وغيرها. فشلت الديمقراطية في معالجة مشكلات الإنسان فشلاً ذريعاً، عالجت الحروب بالعدوان والحروب وامتداد الظلم. عالجت الأمراض في جسم الإنسان ولم تعالج مستنقع الجراثيم في مجتمعه. عالجت مرض الإيدز عالجة الجسم، وتركت مستنقع الزنا واللواط يتسع ويمتد وتنمو فيه الجراثيم ليمتد الإيدز نفسه، ولتشجعه الديمقراطية والديكتاتورية.

فلا عجب إذن إذا دفع هذا المجتمع ذلك القلق والاضطراب، ليدفع أدب القلق والاضطراب، ويقع الكثيرون فريسة والاضطراب، والحيرة والشك، لينتحر هذا ويجنّ هذا وينهار ذاك، ويقع الكثيرون فريسة الأمراض الفتاكة.

غرورٌ في زحمة العلوم والاكتشافات وعزل للدين، واستغلال قبيح له، وطمع وعدوان

الباب الثالث الغصل الخامس

وظلم ممتد في الأرض، لا تهدأ نارحتى تشتعل نار أخرى فجور مريع وزنا ولواط، وانفكاك الأسرة والأرحام وروابطها، اشتراكية ودكتاتورية، رأسهالية وديمقراطية، ظهور الحركة الصهيونية لتشعل النار والفتنة في الأرض متعاونة مع سائر قوى الفتنة والفساد في الأرض، في الديمقراطية أو الدكتاتورية، في الرأسهالية أو الاشتراكية، بين دوي آلات الثورة الصناعية، وهدير أمواج الأطهاع الاقتصادية، وجنون الشهوة التي لم تهدأ. من قلب هذا الظلام الهائج جاء القلق والاضطراب «الصدمة وفقدان العطر والهالة»، الحيرة والشك، التناقض بين اللامعقول واللاحقيقة واللافن، ليكون هذا كله من معالم الأدب الحداثي الرئيسة.

ألباب الثالث الغصل السادس



اللغة بين الأدب الإسلامي والحداثة

اللغة في نظر الإسلام، وبذلك في نظر الأدب الإسلامي، آية من آيات الله، دالة على وجود الخالق وعظمته. إنها ترتبط مع سائر آيات الكون في قلب المؤمن في موكب من الجمال والجلال. ومن هنا تنطلق نظرية الأدب الإسلامي في فهم اللغة، لتصبح جزءاً من تصوره الإيهاني. وبهذا يختلف الأدب الإسلامي مع الحداثة ونظرياتها في اللغة، حيث انقطعت صلة هذه النظريات بقضية التوحيد:

﴿ وَمِنْ اَيْنَاهِ عَلَقُ ٱلسَّمَوَتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْلِلَفُ ٱلْسِنَاكُمُ وَٱلْوَنِكُمُ ۚ إِنَّ فِي وَالْمَالِكِ لَا يَسْتَمَا وَٱلْوَنِكُمُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَاَيْتِ لِلْعَلِمِينَ ﴿ وَلِينَ اللَّهِ مِنْ الرَّمِ: ٢٧)

فارتبط اختلاف اللغات والألسنة مع خلق السموات والأرض، مع اختلاف الألوان، مع سائر الآيات التي تعرضها سورة الروم في جولة رائعة بين الإنسان والكون، بين الدنيا والآخرة، مع البعث والنشور في مشهد حافل غني يموج به الجمال.

وهذا المفهوم للغة هو الذي يجب أن يطلق الدراسات اللغوية لمعرفة أصولها وسنن الله الشابتة فيها، ولمعرفة فقهها وتاريخها، لتظل هذه الدراسات مرتبطة بالتوحيد، مرتبطة بجذور ثابتة.

ومن هذا المفهوم نرى أن اللغة جعلها الله آية تقوم في حياة الإنسان، ليتفاهم الناس فيها بينهم، وليحققوا المنهاج الرباني في واقعهم، بالتفاهم والتعارف والتعاون على الحق، وبكل وسيلة شرعها الله للمؤمنين.

الباب الثالث الغصل السادس

فإذا فقدت اللغة معانيها وتاريخها، فقدت بذلك الأجيال صلتها مع بعضها بعضاً، وفقدت الشعوب أهم وسيلة لتعارفها، وتعطلت سبل تحقيق معاني العبودية لله رب العالمين، وتعطلت سبل العبادة.

إذا أفرغت الكلمات من معانيها، كما أراد «أدونيس» وإذا ألغينا علم المعاني، وطرحنا المعاجم والنحو، فهاذا بقي من اللغة إذاً؟! إذا فعلنا ذلك وأخذنا بنظرية الشاعرية Poetics، فما هي فائدة اللغة عندئذ في حياة الإنسان؟! ومن هنا يتبين خطورة الخلاف الجذري بين نظرية الأدب الإسلامي ونظرة الحداثة.

واللغة العربية لغة الوحى ، لغة القرآن الكريم والسنة النبوية ، لغة العبادة في الإسلام . منذ أن نزل الوحي لم تعد اللغة العربية لغة العرب وحدهم، ولا لغة قوم بعينهم. إنها أصبحت لغة الأمة المسلمة، لغة الإنسان. وما نزل الوحى الكريم بها، ولا اختارها الله سبحانه وتعالى إلا لأسباب مخزونة فيها وإعجاز تحمله في بيانها. لقد بلغت اللغة العربية ذروة النمو والنضج حين نزل بها القرآن الكريم الذي تعهد الله بحفظه، وبذلك تعهد بحفظ لغته وبيانه. وما عرفت لغة في الأرض عدواناً وحرباً كما عرفت اللغة العربية في تاريخها الطويل الذي هو تاريخ الإسلام. ومع ذلك فقد ردّت بقدر من الله كلّ عوادي الطغيان، وظلت عزيزة قوية غنية تَمدُّ الإنسان بالمدد الوفير مع الزمن كله. فاللغة العربية هي لغة الأدب الإسلامي الأولى. وإذا مر المسلمون بلحظات ضعف في التاريخ كالتي نمر بها اليوم على فرقة وشتات، وإذا برزت اللغات القومية نتيجة ذلك لتقدم أدباً كريهاً يعتـز به الإسلام والأدب الإسلامي، فإنها هي مرحلة عابرة إن شاء الله، يستيقظ فيها المسلمون ليعوا أن الله سبحانه وتعالى أمرهم أن يكونوا أمة واحدة ، ويجعل من أكرم أهداف المسلم ومن أجلّ أبواب العبادة السعى الدائب لتحقيق هذا الهدف، مع سائر الأهداف الربانية المحددة في منهاج الله. ولذلك يكون من مسئوليات الأدب الإسلامي حماية اللغة العربية، والمساهمة في سبيل بناء أمة الإسلام. الأدب الإسلامي له لغة أساسية يعتز بها كل مسلم مهم كان جنسه، لأنها لغة قرآنه وصلاته وعبادته، ولأنها لغة تدبره ووعيه لمنهاج الله. فلا يرضى الأدب الإسلامي بالهوان الذي تريده بعض مذاهب الحداثة للغاتها.

الباب الثالث الفصل المأدس

أستطيع أن أقول باطمئنان بعد استعراض الثروة الغنية في الفكر والأدب في اللغة العربية، وبعض اللغات الرئيسة، أستطيع أن أقول إن أجمل لغات الأرض وأغناها هي اللغة العربية، وحسبنا برهاناً على ذلك أنها لغة الوحي، وأنها اللغة التي اختارها الله رب العالمين.

لقد شنت الحداثة حرباً شديدة على اللغة، هربت مذاهب الحداثة إلى الرمز عسى أن تجد فيه نجاة من التناقض والاضطراب. فزاد الرمز أدبهم غموضاً واضطراباً. وهربوا إلى هيام الخيال، عادوا إلى الواقع، هربوا من الواقع، حتى ظنوا أن اللغات لم تعد تشفي غليلهم فأعلنوا حربهم على اللغة، وهبطت التعبيرات والأفكار لدى بعض الأدباء بشكل غريب مزرٍ.

لقد جعل «مارينيي» عنواناً لمقدمة كتابه على النحو التالي: «تحطيم النحو ـ خيال لا سلكي ـ كلمات حرة»، وانتشرت لفظة «كلمات حرة». يريدون من حرية الكلمات أن تكون وثيقة مرور لكل تيه وضياع وتحطيم للغة. كان «كوستاف كان» أول من ابتكر تعبير «الشعر الحر» فتلقف «مارينيي» اللفظ والفكرة، وأخذ المستقبليون في إيطاليا يقولون: «بعد الشعر الحر أصبح عندنا كلمات حرة». وكما ذكرنا قبل قليل أصبحت الكلمات عند «مارينيي» أصواتاً مثل سي سي، ورموزاً رياضية مثل: «+-+--+». والحركة المستقبلية الروسية حاولت اعتماد الأصوات بدل الكلمات تمثلها أبيات شعرية لـ«كروجونيخ» في قصيدة حداثية روسية مترجة إلى اللغة الإنجليزية لتقدم أصواتاً تبحث عن معنى. يقول: «دربل إشكل، أببشكر، سكم، في سوبو، رل ينره(۱) ولقد طالب أحد بيانات المستقبلين «بإعطاء الشعراء الحق في رفد مفردات الناس بكلمات مبتكرة لا أصل لها باللغة، وأعلنوا الكراهية اللامحدودة للغة التي ورثوها» (۱) وجاء «أدونيس» لينقل مع غيره من الحداثيين الحرب على اللغة، ولقد سبق أن ذكرنا بعض النصوص من «أدونيس» ونُذكّر هنا ببعضها:

⁽۱) مالكولم برادبرى الحداثة. (ص: ۲۵۷).

⁽٢) مالكولم برادبري الحداثة. (٢٥٦).

وإن تحرير اللغة من مقاييس نظامها البراني والاستسلام لمدها الجُوّاني يتضمنان الاستسلام بلا حدود إلى العالم . . . وهذا يؤدي إلى القضاء على علم المعانيه (۱) وجاء وتزارا» في الحركة والدادائية وليا ليتابع الحرب على اللغة ، وليكتب بلغة غير مترابطة ، ضارباً عرض الحائط بقواعد النحو والعقل ، مغرقاً بالفوضى والتناقض . وكان يرى أن على الحركة والدادائية أن تبقى شاردة غير قابلة للتدقيق . إنها تموت إذا اتجهت إلى الجد والوضوح والاستقامة (۱) ويسعى والسرياليون بعد ذلك إلى محاولة اختراع لغة جديدة للناس . وطرحت من جميع حركات الحداثة ، مع تناقضها فيها بينها ، تعبيرات ومصطلحات عائمة كثيرة واشتقاقات جديدة محيرة ، يصعب سردها هنا . وجاءت الحركة البنيوية وما بعد البنيوية والتشريحية لتحول تلك الحرب التي امتدت مع الحركات الحداثية إلى نظريات وقواعد . المدرسة الشكلية واتجاة النقد الألسني والسيميولوجية ، وما تبنته من نظرية الدلالة والإشارة ، دفع الغموض إلى مجالات أوسع . من الصعب أن نناقش هذه النظريات كلها هنا ، ولكننا نقدم بعض التعريفات منها لنرى مدى ارتباط التصوّر فيها مع ما عرضناه سابقاً .

«النصّ إشارة حرّة تمثل دالًا عائماً يتوجه دائماً نحو مدلول غير محدود...»(١) وكذلك: «وبمقدار ما تستطيع إشارات النصّ على الانعتاق من قيد المعنى المحدد تكون طاقتها على الإبداع وعلى التنوع حسب أبنيتها الكلية داخل أعراق جنسها وسياقاتها. وهنا يتحول القارىء من مستهلك للنصّ إلى منتج له،(١) وفي صدد الحديث عن العلاقة بين النصّ والمؤلف يقول الحداثيون: «هل نعلن إلغاء المؤلف إذن ونعزل النصّ عنه؟!» سؤال هام للحداثة. ولكن الرحمة تتحرك في قلب الحداثة فيشفقون على إلغاء المؤلف، ويقولون إجابة على السؤال: «الجواب لا! بكل تأكيد! ولكننا فقط نعلن موت المؤلف كها فعل «رولان

⁽١) أدونيس ـ مقدمة للشعر العربي ـ (ص: ١٣٨).

⁽٢) مالكولم برادبري الحداثة. (ص: ٢٩٢).

⁽٣) د. عبدالله محمد الغذامي ـ الموقف من الحداثة ومسائل أخرى. الطبعة الأولى ١٩٨٧م مطابع دار الميلاد جدة (ص: ١٠٩١).

⁽٤) المرجع السابق (ص: ١١).

بارت، فموت الرجل لا يعني إلغاء اسم الوالد من شجرة النسب (١)! تناقض ومراءً. ولنوضح خطورة التحليل البنيوي في الأدب نضرب مثلين عمليين للحداثة في هذا المجال. يحلل الدكتور كهال أبوديب في كتاب وجدلية الخفاء والتجلي، أبياتاً رائعة لابن الرومي:

بجنة نَفَحتْ رِيحاً وريحانا موسوسا وتداعى الطير إعلاناً تسمو بها وتمس الأرض أحياناً والغصن من هَزُه عطفيه نشوانا

حيَّتك عنا شهالٌ طاف طائفها وهبَّتْ سُخَيْراً فناجى الغضنُ صاحبه وُرْقٌ تغني على خضر مهدلة تخال طائسرها نشوان من طرب

يقول أبوديب في تحليله: وتبدأ القصيدة بتشكل ثنائية أساسية هي الأنا والأنت، تسود بين طرفيها علاقة بعد مكاني تشير إليه التحية التي تحمل للربح. عدا البعد المكاني ليس للعلاقة بين الأنا والأنت من طبيعة محدودة. . . » ثم يمضي بهذا الأسلوب حتى ننسى الأبيات والشعر وموسيقاه ومعناه، ويعطي لهذه حرف "A" ولتلك حرف "B" خلال تسع صفحات ننسى معها ابن الرومي والنص كله والشعر والأدب في متاهة طويلة. ثم يهبط بنا فجأة في هذا الظلام إلى وحل الجنس الملوث. فيقول: وأخيراً تتلاقى في القصيدة حركتان ضديتان مجمد تلاقيها النهائي توحد التصورات. هاتان الحركتان هما الحركة الشاقولية ثم الحركة الأفقية، تنضحان بشهوة جنسية تنبع من حركة الاتصال الأفقية، والاهتزاز الشاقولي الصاعد الهابط» (").

هذا نموذج واحد من التحليل البنيوي للأدب. إنه مرض متفشَّ حين يرى بعضهم أن الجنس الهابط الملوث هو محور كل شيء. ألم يفعل «فرويد» الشيء ذاته في دراسته النفسية ، حين أدخلنا في ظلام كظلام كهال أبوديب. كان «فرويد» مريضاً يحتاج إلى طبيب نفسي ليعالجه. واجتمع المرضى النفسيون في تاريخ طويل ليرسموا مسيرة مظلمة للانحراف عن

⁽١) المرجع السابق، (ص: ٨٧).

 ⁽۲) كيال أبو ديب جدلية الخفاء والتجلي (ص: ٦٩). د. عدنان علي رضا النحوي الحداثة في منظور
 ايباني ـ الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ/١٩٨٩م دار النحوي للنشر والتوزيع. (ص: ١٣٩ ـ ١٤٠).

التوحيد، في الفلسفة والفكر والأدب.

في كتابي «الحداثة في منظور إيهاني» قدمت نهاذج أخرى تبين هذا الاضطراب والتيه والـظلام، مما لا يتسع له المجال هنا. ولكن أسوق مثلًا آخر لنبينٌ كيف تحوّل النبيوية والحداثة المفهوم الواضح للأحاديث الشريفة والآيات الكريمة. الحداثة بجميع مذاهبها تعلن الحرب على الماضي والتراث كله كما رأينا. ولكنها تعود متناقضة مع نفسها إلى التراث لتحاول أن تبحث لها عن هوية «انتساب» لهذه الأمة، فتؤول الآيات والأحاديث من ناحية، وتتناقض مع نفسها من ناحية أخرى. لقد بيّنا سابقاً جذورها الممتدة في أوربا. والحداثة في بلادنا تعلن الحرب نفسها، كما رأينا، على الماضي كله، وعلى التراث كله، ثم تعود لتناقض نفسها، فتبحث عن هوية لها في ماضي أمتنا، وفي تراثنا، ومن خلال هذه العودة تَشوّه الماضي والتراث. يعود بعضهم إلى ابن سينا ليرووا عنه أنه قال إن «الكلمة حَرّة . . . ١٧٠ أو إلى الغزالي، أو إلى عبدالقاهر الجرجاني، أو إلى غيرهم. ولا ننكر أن كل مصادر اللغة عندنا تشير إلى أن للكلمة معاني وظلالًا غير المعنى المحدد في المعجم. ولكن هذا المعاني والظلال لا تفرغ الكلمات من معانيها كما أراد «أدونيس» وغيره، ولا تتحوّل إلى إشارات في عالم الهيام والتخييل، متفلَّتة من جذورها وتاريخها في المعجم أبداً. ولو سمحنا جذا التفلُّت في اللغة لضاعت معاني القرآن الكريم وأحاديث الرسول علي من أيدي الناس لو أخذوا بذلك. لقد ذكرت في كتابي والأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته، أن الكلمة في اللغة العربية وهبها الله سبحانه وتعالى من خلال تاريخها الذي نَمَتْ فيه حتى نضحت أربع خصائص: المعنى المحدد في المعاجم، والظلال الممتدة منه ومن تاريخها، النغمة والجرس، قوة الارتباط مع غيرها (١). وجذه الخصائص الأربع تتحرك الكلمة بين يدى الأدب، حتى لا نقع في تأويل يفسد المعنى ويضيع الوضوح، ويبعد عن الهدف. والأدب الإسلامي هو أدب الصدق والوضوح. ويأخذ بالرمز والتخييل في الحدود البيانيَّة التي يسمح بها تاريخ

 ⁽١) الموقف من الحداثة: (ص: ٦٥)، د. عبدالله الغذامي. الخطيئة والتكفير الطبعة الأولى. ١٤٠٥هـ/ ١٤٠٥م النادي الأدبي الثقافي ـ جدة (ص: ٤٨).

⁽٢) د. عدنان على رضا النحوي ـ الأدب الإسلامي، إنسانيته وعالميته، (ص: ٥٠ ـ ٥٠).

اللغة وبناؤها وقوانينها المستقرة، ولذلك كانت الكناية والاستعارة والمجاز وسائر قواعد البلاغة والبيان، مما قدّم نموذجاً فنياً رائعاً في تاريخ الإنسان لا تكاد تجد له مثيلًا يضاهيه في أي لغة أخرى.

ولنبين خطورة هذه القضية وأهميتها الكبيرة في الأدب الإسلامي من ناحية وفي الفكر الإسلامي من ناحية أخرى، نقدم مثلًا ونموذجاً لانحراف الحداثة عن ذلك انحرافاً شديداً في تأويل نصوص الإسلام.

يحاول بعض الحداثيين أن يثبت نظرية «الشاعرية» التي يدعون لها بتأويل خاطى، منحرف لأيات الله وأحاديث رسول الله على ، فيقول بعضهم سواء في كتاب «الخطيئة والتكفير»، أو «الموقف من الحداثة»: «الشعر تحرر للغة والإنسان وانعتاق من كل القيود. والشاعر ليس إلا هائماً منطلقاً خارج نفسه وخارج واقعه». ثم يستشهد على ذلك بالآية الكريمة:

﴿ وَالشَّعَرَآءُ يَنَّبِعُهُمُ الْعَاوُدَ ١٠ الْوَزَرَ أَنَّهُمْ فِكَ لِوَدِيهِ بِمُونَ ١٠٠٠ ﴿ وَالشُّعَرَآءُ يَا لَمُ مُ الْعَادُونَ ١٠٠٠ ﴾

(الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٥).

ويتابع حديثه فيقول: «وكل محاولة لتقييد الشعر فهي تآمر ضده وهي مخالفه. . لأصوله . . ولذلك فإن حالة الوعى تصبح أسوأ حالات التلقى للشعر»(١).

إنه لعجب كبير أن يتحوّل المعنى القرآني الكريم الجليُّ إلى هذا الانحراف المؤذي، وأن تؤكد هذه النصوص الحداثية ما سبق أن أوردناه عن «أدونيس» بخصوص «الشعر والشاعرية». فالآيات في سورة الشعراء تعرض نوعين من الشعر: نوع يُحرمه الله سبحانه وتعالى ولا يقبله ويَذُمُّه. ولذلك يرفضه الأدب الإسلامي ويرفض أسسه وفكره ونظرياته. وشعر كريم عبَّرت عنه الآيات الكريمة من سورة الشعراء:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ مَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّنلِحَنتِ وَذَكَّرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱسْصَرُواْ مِنْ بَعْدِ

⁽١) الخطيئة والتكفير_ (ص: ٢٦٢) الموقف من الحداثة. (ص: ٦١).

مَاظُلِمُوأُ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ۞ ﴿ (الشعراء: ٢٢٧).

تحاول الحداثة ونظريتها «الشاعرية» أن تدعم وجهة نظرها بالآيات الأولى التي تتحدث عن الشعر الذي يرفضه الإسلام ويرفضه الأدب الإسلامي. وتتجاهل الآية (٢٢٧) الأخيرة من سورة الشعراء. إن النوع الفاسد من الشعر تنكره السورة وتوضح أنه من الشياطين. وأنه قول كُلِّ أفاك أثيم. ولنقرأ الآيات الكريمة كلَّها:

﴿ هَلَ أُنِيتُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّينطِينُ ﴿ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَاكٍ أَيْهِ مِنَ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَحْتُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿ وَالشَّعَرَاءُ يَتَبِعُهُمُ الْعَاوُنَ ﴿ اللَّهُ الْمَاوُنَ اللَّهَ مَلَ أَنَّهُمْ فِكُلِ وَأَحْتُمُ الْعَاوُنَ ﴿ اللَّهُ الْمَاوُلُونَ اللَّهُ الللللْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللللْمُ اللَّهُ اللللْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللللْمُ اللَّهُ اللَّهُ الللللْمُ اللَّهُ اللللْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللللْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللللْمُ اللَّهُ اللللْمُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللللْمُ اللَّهُ اللللللْمُ اللللْمُ اللَّهُ اللَّهُ الللللْمُ الللللْمُ الللِمُ الللللْمُ الللللْمُ الللللَّهُ اللَّهُ اللللْمُ الللللْمُ اللللللْمُ الللللْمُ ال

ذاك هو شعر الحداثة كما وصفته الآيات (٢٢١، ٢٢١). وهذا هو شعر الإيمان، شعر الأدب الإسلامي، كما تصفه الآية (٢٢٧) وتحدد رجاله ونهجه وأهدافه.

نهجان مختلفان. نهج ينبع من جذوره التي عرضناها في سياق هذه الدراسة، جذور مرتبطة بالوثنية فكراً وعاطفة وجهداً وموقفاً، ونهج ينبع من الإيهان والتوحيد ويتغذى من القرآن الكريم والسنة النبوية.

أدب الحداثة وشعرها وصفوه هم، رجالها ودعاتها، وربطوه بالشياطين والإفك والهيام في كل واد. هم قالوا ذلك لا نفتري عليهم وأما الأدب الإسلامي فهو:

وسحر البيان بالتوحيد من حديث من الكتاب المجيد كل روض نداوة من عود عليها فعادت روائعاً من نشيد(١) شرف القول من هدى الحقّ أدب يرتوي البيان لديه رفّ بالطيب عودهُ فتمنى هو في الكون آية حَوّم المجد

⁽١) كتاب الأدب الإسلامي انسانيته وعالميته ـ (ص: ٣٣٤ ـ ٣٣٦). من قصيدة ـ مهرجان القصيد.

الباب الثالث الفصل السادس

ومثل آخر: يقول: وفاللغة إذن هي مفتاح الحقيقة وهي ما يميز الإنسان عن الحيوان فهي إذاً (الأمانة)، كما ورد في الآية الكريمة . . . ه(١) إن الأمانة التي عرضتها الآية الكريمة في آخر سورة الأحزاب أكبر من ذلك . إنها الأمانة في كل شيء، وعلى رأس ذلك الأمانة في عارسة منهاج الله في الواقع البشري، والأمانة في عدم تحريف كتاب الله أو تأويله على غير وجهه . وبهذا التأويل الخاطىء تنقل الحداثة لنا أفكار السابقين من الماضي القديم، من الأوروبيين . فإن «هيجل» «كان يعتبر اللغة أهم محدّد لديه، إنها النموذج الذي يجمل الانعكاس الذاتي للعقل في أعلى صوره العملية، وبهذا تمكن الجنس البشري من أن يعكس نفسه على علاقته مع العقل» (١).

لانزال نجد الدليل بعد الدليل على شدّة التناقض في فكر الحداثة وأدبها. تعلن الحرب على الماضي والـتراث والتقليد، ثم تعود إلى التراث والنقل والتقليد بطريقة مباشرة ولكنها غير معلنة كالنقل عن اليونان وأوروبا. أو بطريقة تحمل تأويل الماضي وتُشوِّهه، كما يُبَيِّنُ لنا المثل السابق نفسه عن تأويل الآيات الكريمة.

تريد الحداثة أن تجعل من الشاعر نبياً، حاملًا لروح البشرية... الخ. فتأخذ من الحديث الذي لم تثبت صحت : «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري... الخ» لتجعل منه شعراً، حيث تقول «الحداثة»: «وهكذا تتحول الفلسفة إلى شعر» (٩).

ومن حديث الرسول ﷺ: وإن من البيان لسحرا، تجعل الحداثة مخرجاً لتسويغ نظرية التيه والغياب. يقول المؤلف: وإن الشاعر يحرّر الكلمة من معانيها، مما علق بها من غبار السنين فيطهرها ويغسلها ويطلقها حرة تحلّق. . . فالشاعر حامل روح البشرية، وهو بحساسيته المفرطة يرتقي فوق كل قيود الواقع . . . ومع تسبيح الكلمات . . لتصبح هي

⁽١) الخطيئة والتكفير. (ص: ١٦).

⁽۲) Origins of Modernity

⁽٣) الخطيئة والتكفير. (ص: ٢٠٥).

وجوده وهي حريته من كل قيود المادة. . . وهذا هو سحر البيان، (١).

سحر البيان لدى الحداثة هو تطهير الكلمة من غبار السنين وغسلها وتحليقها في الفضاء الواسع محرَّرة من كل القيود، غامضة مبهمة متناقضة. والإسلام يرى سحر البيان وضوحاً وجلاءً. فالبيان: «اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى»، كما يقول الجاحظ (١٠) ويقول تمامة بن أشرس يصف بيان جعفر بن يحيى: «... ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك» (١٠). هذا بعينه هو سحر البيان، لا ضبابية الحداثة وشرورها.

إن تحرير الكلمة وتطهيرها من الماضي لم يأت بها حداثيو العالم العربي إنهم نقلوها نقلاً عن حداثي أوروبا. يقول (ج. م. هايد) في حديثه عن المستقبلية الروسية: «إن القضية المركزية لجماليات المستقبلية هي السعي لتطهير الكلمة نفسها من طلاء التراث الأدبي، (4).

يقول الحداثيون: «ولذا فإن الشاعرية انتهاك لقوانين العادة، ينتج عنه تحويل اللغة من كونها انعكاسات للعالم أو تعبيراً عنه أو موقفاً منه، إلى أن تكون هي نفسها عالماً آخر ربها بديلًا عن ذلك العالم، فهي إذاً (سحر البيان) الذي أشار إليه الأثر النبوي الشريف. وما السحر إلا تحويل الواقع وانتهاكه وقلبه إلى (لا واقع). أو هو تخييل على لغة القرطاجني أي تحويل العالم إلى خيال»().

هذه الغيبوبة والخروج من هذا العالم إلى عالم آخر تصوره الأوهام والأحلام، ليس هو سحر البيان. ومن العجب أن يختلط المعنى على أحد يعرف اللغة العربية وأساليبها، فيجعل معنى «سحر» هنا، ويجعل أن المقصود منها ليس السحر العادي. ولقد جاء هذا النص «إن من البيان لسحراً» في قصّة الزبرقان وعمرو بن الأهتم وهما عند رسول الله

⁽١) الخطيئة والتكفير. (ص: ٧٧).

⁽٢) الجاحظ - البيان والتبيين - الطبعة ١٩٦٨م - دار الفكر للجميع. (ص:٥٥).

⁽٣) البيان والتبيين. (ص: ٧٩).

⁽٤) الحداثة. (ص: ٢٥٤) الخطيئة والتكفير . (ص: ٢٦٩).

⁽٥) الخطيئة والتكفير. (ص: ٢٦).

(١). والذي عناه رسول الله ﷺ قوة الحجة المقنعة وسلامة المنطق وبيان المعنى وبلوغ الغاية .

والأدب الإسلامي يرفض الغيبوبة والخدر والسكر في عالم الأوهام والظنون. ذلك أن الأدب الإسلامي يوجهه كتاب الله وسنة رسوله. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم صرف الكلام ليسبي به قلوب الرجال أو الناس، لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»

فحدّد رسول الله ﷺ نهج الأدب وغايته، ودربه وأسلوبه. ونهى عما يصرف الناس عن الوعى والوضوح والبيان.

«الشاعرية» كما تقصدها الحداثة هي ترجمة لكلمة "Poetics" بالإنجليزية. ومع أن كلمة "Poetics" غير موفقة في لغتها، فكانت ترجمتها أبعد عن التوفيق. الكلمة الأجنبية صفة يطلقونها على الكلام إذا اتصف بالغيبوبة التي عرضناها أعلاه. فهي لا تتعلق بالتفرقة بين النثر والشعر، ولكل جمالة وخصائصه. ولا يتسع المجال هنا للإفاضة في هذا الموضوع، ولقد فصلت فيه في كتابي والحداثة في منظور إيهاني».

ولكن لابد هنا من الإشارة السريعة إلى أن الاستعمال الخاطيء هذا لكلمة والشاعرية الخذه بعضهم حجة لقيام الشعر الحر أو المنثور. أما إذا كان يقصد جمال الخيال، فذلك يمكن أن يُعبر عنه النثر أو الشعر في الأدب الإسلامي ، ولكل جماله الخاص وأسلوبه الخاص. ويظل الشعر يحمل الحقائق المميزة له. فكلمة وشَعرا تعني في المعاجم: علم به وفطن له وعقله. وفي قاموس المحيط: ووالشعر غلب على منظوم القول لشرفه بالوزن والقافية . فالشعر إذا يرتبط بالوعي والعقل وشرف الوزن والقافية . ولم يقل أحد في تاريخ هذه الأمة إن الوزن والقافية كانا عبين في الشعر إلا الحداثيون اليوم . ففي اللغة العربية

⁽١) سنن أبي داود. كتاب الأدب (٣٥). باب (٩٤). حديث (٥٠٠٧). البيان والتبيين (ج: ١). (ص: ٤٤).

⁽۲) أبو داود. (۳۵) باب (۹٤) حديث (٥٠٠٦).

لا يصبح الكلام أدباً لأنه عمل الوزن والقافية فحسب، ولابد أن تتوافر فيه أولاً عناصر الجمال الفني الذي تجعله يستحق أن يدخل دائرة الأدب، سواء أكان نثراً أم شعراً. فإذا ارتقى الكلام بصياغته وشكله ومعناه وأسلوبه وبسائر خصائص الجمال الفني حتى أصبح أدباً، عندئذ نفرق بين النثر والشعر. والنثر والشعر في الأدب الإسلامي لا يكون تائها في عالم الغيبوبة والغموض المفسد ولكنه أدب الصدق والوعي يستمد جماله من صدقه ووعيه، دون أن يمنع ذلك من استخدام الرمز الذكي أو الاستعارة النبيهة أو المجاز الأمين، ليضيف جمالاً إلى جمال. والوزن والقافية في الشعر ليسا من عند الخليل بن أحمد، ولا هو وضعها. إنها من خصائص اللغة العربية وتاريخها وفقهها، نمت ونموا معها من خلال قرون طويلة.

وهنا يثور السؤال: إذا خلا الكلام من الأوزان والقافية كها نشأت ونمت مع اللغة. فلهاذا الإصرار على تسمية الكلام شعراً؟! ما هو المسوّغ لذلك من علم أو منطق أو أدب أو تاريخ أو إيهان؟! إذا ارتقى الكلام بشروطه الفنيّة فأصبح أدباً فلنسمّه نثراً. وإذا سمينا كل كلام يحمل جمالاً فنيّاً شعراً، فهاذا يبقى للنثر في ميدان الأدب عندئذ، وماذا نقول عن كتاب الله وأحاديث رسول الله عليه؟! وهل هنالك نية مبيّتة ضد الأمة ودينها؟!

إن نظرية «الشاعرية Poeticcs» التي تدعو لها الحداثة كها عبر عنها أدونيس وكهال أبوديب وغيرهما نقلًا عن الغرب، وكها أشرنا إليها قبل قليل، هي نظرية الانتقال من عالم إلى عالم، هي نظرية الغيبوبة والسّكر كها سمّوها هم. إن هذه النظرية بهذه الخصائص مرفوضة من الأدب الإسلامي.

واقتحمت الحداثة عالم الكلمة، وأخذت تشتق كلمات جديدة تزيد من «اللاوعي و«اللاحقيقة»، وتخترق قواعد اللغة. فأضافوا في اللغة الإنجليزية "Ism" لكل كلمة يريدونها، واشتقوا كلمات قد لا نجدها في قواميس اللغة. أما في اللغة العربية فنضرب أمثلة على ذلك: الممرئية، التموضع الزمكاني، النحن، اعتباطية الإشارة، اللاحقيقة، بالإضافة إلى ما ذكرناه في فصول سابقة.

إن الوزن والقافية في الشعر العربي شرف وقوة. هكذا كانا مع التاريخ كله. هكذا رآه

الباب الثالث الغصل السادس

أصحاب اللغة أنفسهم أبناؤها وهكذا أرادوه أن يكون. وليس لأحد اليوم، وخاصة من رجال الحداثة، وقد عجمت ألسنة الكثيرين وجهلت قلوبهم، وقل زادهم، حتى كادوا يصبحون غرباء عن اللغة، وكادت اللغة العربية تصبح غريبة عنهم. ليس لأحد أن يدّعي أن له حقّاً بإلغاء الوزن والقافية، وقد أبى ذلك أصحاب اللغة وأهلوها الحقيقيون، واعتبروهما شرفاً وعزاً.

الوزن والقافية، عند الشاعر المتمكن من اللغة، هاديان مرشدان لجواهر اللغة ولآلئها. إنها يفردان اللغة كلَّها للشاعر ويفتحان له أبوابها، وينثران أمامه أغلى جواهرها ودررها، ثم يرشدانه إلى الأغلى، والأصفى، ليأخذ الشعر جماله الفني المتميز: الوزن والقافية عون للشاعر الحق لا عقبة أمامه ولا قيد له.

على شاعر العربية اليوم أن يعرف أولاً لغته فلا يكون غريباً عنها. على الشاعر اليوم أن يعيد انتسابه إلى لغة القرآن فيقطع غربته، قبل أن يغوص في الشعر فيؤذي ويسيء. عليه أن يحدُّد هويته وأصالته. عندئذ ينساب منه الشعر انسياباً ويهديه الوزن والقافية إلى أجمل أسرار اللغة.

إن الأدب الإسلامي، ومثله الأعلى الذي لا يوازى أبداً هو القرآن الكريم والمسنة النبوية، يرفض كل هذه التصوّرات من جذورها وفروعها وثهارها. إن الأدب الإسلامي لا ينقل التصوّرات الفكرية الأوروبية، كها نقلتها الحداثة، ليغرسها في تربة غير تربتها. إن الأدب الإسلامي ينهل من أعظم وأغنى تصور فكري عرفته البشرية كلها، ألا وهو الوحي المنزل على النبوة المتهاسكة في تاريخها الطويل، النبوة التي ختمت بمحمد على البشري الرباني _ قرآناً وسنة _ جاء لساناً عربياً مبيناً. والنبوة متهاسكة كلها في التاريخ البشري تدعو لدين واحد هو الإسلام.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها فجعل النّاس يطوفون بالبنيان

ويعجبون منه ويقولون لو تمَّ موضع هذه اللبنة. فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة» (رواه أحد والترمذي وغيرهما)(١).

فهذه ناحية هامّة من جملة النواحي التي يتميز بها الأدب الإسلامي، مادام متمسّكاً بها عاضًا عليها بنواجذه. والناحية الأخرى هي اللغة العربية نفسها، أجمل لغات الأرض وأغناها وأقواها، وقد ارتبطت هاتان القضيتان معاً حتى لم يعد فصلها عن بعضها ممكناً أبداً، وليقدما النبع الرائق الطاهر الصافي للبشريّة كلها على مدى العصور والأجيال، ليخرج الأدب الحق للإنسان في أجمل صوره وأروع عطائه. إنه المنهاج الرباني -قرآناً وسنة.

إن الكلمة في اللغة العربية حرّة بطهارتها وغناها وقوتها، فلا حاجة بها لتتفلت فتفرغ من معانيها وظلالها في المعاجم كما طلب أدونيس، ولا حاجة لأن تغيب في الوهم وتتفلّت في فضاء الضياع والضباب كما يريد آخرون. إنها غنيّة تُغني الزمن كله بطاقتها التي أودعها الله فيها وخصّها بها. فلا نستطيع أن نطبّق على لغتنا ما يريد الغرب أن يطبقه على لغاته، ولا حاجة بنا لأن نحذو حذوهم. الأولى أن يتعلموا هم منا ويأخذوا عنا، لو كنا نحن الأقوياء. فزادنا أعظم ونهجنا أقوم.

والعجب كل العجب أن لا يجد بعض الناس عندنا نموذجاً للنمو والتطور إلا في تهديم اللغة، وآخرون في تهديم الفكر، وآخرون في نشر الفاحشة والخمر. عجباً كل العجب، فياليتهم تركوا هذا كله وحملوا الآلة والسيارة والطائرة وجمعوا لأمتهم من أسباب القوة والمنعة ما يحمي ويصون، وما نحن بحاجة لأن ننمو ونطور فيه، ولأن يكون هو صورة «الحداثة» حقاً.

إن الكلمة من روابط الأمة في جميع ميادينها ومستوياتها بوضوحها وجلائها، وغناها وقوتها. فإذا تاهت الكلمة وأفرغت فإن الأمة، لا الكلمة أو اللغة وحدها، تستسلم إلى

⁽۱) أحمد عبدالرجمن البناء الفتح الرباني - ترتيب مسند الإمام أحمد دار الشهاب - القاهرة. (ج: ۲۱) (ص: ۲۸۳) محمد ناصر الدين الألباني - صحيح الجامع الصغير وزيادته الطبعة الثالثة الثالثة (٦٩٣٧) حديث (٩٦٣٠).

العالم، كما رغب في ذلك أدونيس. هل كان يريد «أدونيس» استسلام اللغة أم استسلام اللغة والأدب والأمة؟!

الكلمة والتعبير واللغة كلها في الأدب الإسلامي مرتبطة بالوعي لا بالخدر، مرتبطة بالإيان والتوحيد لا بالانحراف، بالعقل والعلم لا بالغفوة والجهل. يقول الحداثيون: «... لأن الشعر حالة غير عقلية، (۱). ويقولون أيضاً: «... ولذلك فإن حالة الوعي أسوأ حالات التلقي للشعر، (۱). وفي الأدب الإسلامي الكلمة حالة العقل والوعي أرقى حالات التلقي.

ويقول سوسير: «إن الكلمة في البنية لا تكتسب قيمتها إلا من بروزها كمعارض لكل ما هو سابق لها أو لاحق بها أو لمعارضتها معاً. وهذا يلغي الوجود الجوهري للكلمة ويؤسس العلاقة كقيمة أولى لنشوء وظيفة لهاه^(٣) وفي اللغة العربية وفي الأدب الإسلامي الكلمة مرتبطة متناسقة لا معارضة لتاريخها وحاضرها ومستقبلها. ولها وجودها الجوهري النابع من اللغة وتاريخها وفقهها، وجودها الجوهري يؤسس علاقاتها ووظيفتها على الزمن كله. وسيظل للكلمة خصائصها الأربع التي ذكرناها قبل قليل، حتى نستطيع أن نفهم كتاب الله وسنة نبيه، وحتى نستطيع أن نحمل رسالة الله إلى الناس كافة في الأرض فيفهموا كلامنا وخطابنا ودعوتنا، وحتى يصبح الأدب الإسلامي قوة حقيقية في الأمة، لا تُفرغُ فيها الكلمات من معانيها، ولا نهبط إلى الاستسلام الذي أراده أدونيس، وأشرنا إليه في صفحات سابقة.

فلابد، بعد هذا العرض، من أن نسوق بعض الأمثلة من أدب الحداثة في الشعر، لنبين حقيقة ما يرفضه الأدب الإسلامي، ثم نسوق أمثلة من الأدب الإسلامي، لنوضح كذلك ما نقله:

⁽١) الخطيئة والتكفير. (ص: ١٠٣).

⁽٢) الخطيئة والتكفير. (ص: ٢٦٢).

⁽٣) الخطيئة والتكفير. (ص: ٣٩).

يقول عبدالعزيز المقالح:

«كان الله _ قديماً _ حبا كان سحابه

كان نهاراً في الليل، وأغنية تتمدّد فوق جبال الحزن،

ثم يقول:

«صار الله رماداً صمتاً رعباً في كف الجلادين. . . »(١).

هنا استخدم الشاعر اسم الجلالة الله سبحانه وتعالى، بأسلوب مرفوض ومعنى مرفوض وتعبير مرفوض. الأدب الإسلامي يلتزم التقديس لاسم الجلالة. ويلتزم ذكره بها هو مفروض على العبد المخلوق تجاه ربه وسيده وخالقه الله، والذين لا يعتبرون الله سيدهم وربهم وخالقهم، ولا يخشعون بذكره خشوع إجلال وتقديس، سيبحثون عن إله آخر يخشعون عنده. واختار عبدالعزيز المقالح، بعد أن تصور أن الله أصبح رماداً تعالى الله عها يقولون علواً عظيماً، اختار الثورة ليخشع عندها.

ويقول صلاح عبدالصبور:

«هذا زمان السأم، نفخ الأراجيل سأم، دبيب فخذ امرأة بين إليتي رجل سأم (١٠٠ ويقول: «وأن الله قد خلق الأنام ونام، وأن الله في مفتاح باب البيت (٢٠).

هبوط في اللفظة والتعبير والصورة. لا موسيقى ولا صورة! أين الأدب في هذه الصورة والتعبير. إنه شيء آخر. إنه خروج عن العلم والأدب والإيهان والتوحيد.

وينقل لنا كمال أبوديب قصيدة لـ الوركا، من أغاني الفجر:

في وسط الخافق الصخري، خناجر البسيط، جميلة من بدم المتنافسين، تلتمع وترهج مثل الأسهاك، ضوء قاس كورقة اللعب، ويقطع عبر الخضرة الهشة، خيول ثائرة وخطوط

⁽۱) اضاءات نقدية لعدد من الكتاب عن عبدالعزيز المقالح الطبعة (۱) (۱۹۷۸م) ـ دار العودة بيروت. (ص: ۱۱).

⁽٢) صلاح عبد الصبور ديوان أقول لكم الطبعة الخامسة (١٩٨٢م). دار الشروق ـ سروت، القاهرة (ص: ٥٠).

⁽٣) المرجع السابق. (ص: ٨٦).

إطارية لراكبين، وفي كأس شجرة زيتون، ثمة امرأتان هرمتان تبكيان ثور العراك...» (١).

الذين علّقوا على هذا «الشعر» كادوا يجمعون على أنه إذا أردنا أن نفهم ونتابع المعنى فلن نجد حاجتنا، ولكن إذا اعتبرنا الشعر، كما يقولون، خلقاً شعرياً مُكْتَنِهاً في عالم آخر لا نعرفه ولا نفهمه، فعندئذ يقال إن هذا شعر. أما الأدب الإسلامي فله مهمة في الحياة، ومسؤلية كبيرة، وأمانة تحملها الأجيال، لذلك يريد الأدب الإسلامي أن يفهمه الناس، يفهمه الأدباء! يريد أن يكون أدباً واعياً.

يقول شاعر آخر خاطب وطنه:

لك وحدك أملك أن أرخص نفسي، لك وحدك أحني رأسي، لجلالك وحدك أرفع عموراً رأسي. . . ياذا الملكوت باسمك نبدأ واسمك آخر ما ننطق حتى نموت (١٠). ثم يذكر وطنه.

وعند محمود درويش تموت الكلمة والتعبير والنحو والصرف واللغة ويموت الفكر والأدب:

«كلُّ الرواية في (دمِّي) مفاصلها: تفضل الحقد كبريتاً على شفتي»^(٣).

ويقول: «عسل شفاهك، واليدان كأسا خمور... للآخرين... الروح مروحة وحرش السنديان مشط صغير للآخرين...» (*).

لا أعتقد أن هذا الانحراف الصريح يحتاج إلى تعليق، ولكننا نرى بوضوح قوة الارتباط بجذور الوثنية في تاريخ الإنسان، وبالعصبية الجاهلية التي أفسدت حياة الإنسان على الأرض، والتي يأتي الأدب الإسلامي لينقضها ببعده الإنساني وساحته العالمية.

⁽١) جدلية الخفاء والتجلي. (ص: ٥١).

 ⁽٢) الشعر في جرش المهرجان ١٩٨٦م: شقير وعكشة للطباعة والنشر والتوزيع. سنة ١٩٨٨م. (ص:
 ٦٥).

⁽٣) محمود درویش دیوان ـ دار العودة بیروت الطبعة (۱۳). ۱۹۸۹م. (ص: ۹).

^(\$) المرجع السابق. (ص: ١٠).

وإذا قدّمت الحداثة نصّاً تريد أن تسميه شعراً، فإننا ننظر إليه أولاً، هل يحمل خصائصه الجمالية التي يرتقي بها إلى مستوى الأدب أم لا؟ فإذا حمل شيئاً من ذلك ندرس بعد ذلك أين نضعه: أفي الشعر أم النثر؟!

أما الأدب الإسلامي فهو أدب غنيُّ يملأ التاريخ عطراً وعبقاً، ويزينه بأروع الجواهر واللآليء، فريدة في التاريخ البشري.

وأول أمثلة نسوقها هي من النثر وليست من الشعر أبداً، نسوقها قبسات من كتاب الله، ذروة الأدب والبيان، والأدب المعجز للإنسان، لنرى آية الجمال وموكب الجلال يملأ الكون نوراً وهدى:

﴿ اللّهُ نُورُالسّمَوَتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكُوةِ فِهَا مِصْبَاحُ الْمِصْبَاحُ فِي اللّهُ نُورُالسّمَوَتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكُوةِ فِهَا مِصْبَاحُ الْمِصْبَاحُ فِي اللّهُ اللّهُ الْمُرْقِيّة وَلَا ثُرُجَاجَة كُأَنَّهَا كُوكَ اللّهُ لِنَورِهِ مَن يَشَاءً عَرْبِيّة مِيكَادُ زَيْتُهَا يُضِيّ وُ وَلَوْلَعْ تَمْسَسْهُ نَازُّ نُورُعَلِ نُورِيَهُ دِى اللّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءً عَرْبِيّة مِيكَادُ زَيْتُهَا يُضِيّ وَلَوْلَعْ تَمْسَسْهُ نَازُّ نُورُعَلِ اللّهُ لِنَورِهِ مَن يَشَاءً وَيَضَرِبُ اللّهُ الْأَمْثُلُ لِلنّاسِ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيدٌ ﴿ ﴾ (النور: ٣٠)

ومن حديث الرسول على: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله على: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل. ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعةالله الجنة، (رواه الترمذي) (١٠). هذه قبسات من منهاج الله تظل أبد الدهر نوراً يتعلّم منه الإنسان اللغة والأدب والفكر والنهج، يصوغه الحق المطلق من عند الله.

ونموذج آخر، نموذج من الصحابة، من عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«أيها الناس! إنه لم يبلغ ذو حقّ في حقّه أن يطاع في معصية الله ، وإني لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث: أن يؤخذ بالحق ويعطى بالحق ويمنع من الباطل. وإنها أنا ومالكم كوليّ اليتيم ، إن استغنيت استعففتُ وإن افتقرتُ أكلت بالمعروف . . . » .

جمال في اللغة والجرس والنغمة ، تنساب الكلمات مترابطة سهلة بيّنة ، وجلاء في المعنى ،

⁽١) سنن الترمذي: أبواب صفة القيامة (٣٨). باب (١٨). حديث (٢٤٥٠).

وقوة في الفكر، وغنى في الصدق والعاطفة.

ومن ميدان الجهاد تخرج أبيات الشعر فوّاحة بالشذى من قلب مؤمن مقبل على الموت في سبيل الله، في أروح لحظات يمرُّ بها الإنسان، يسجل بها خلجات نفسه، عاطفته وفكره، طاقتان تتوقّدان معاً في لحظة غامرة من اليقين، فتنطلق الومضة الغنية منها، تطلقها الموهبة من وهج الإيهان:

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النّفاد غير التقى والرّ والرّ شاد

لا غيبوبة ولا خدر. كلمات مؤمنة واعية مسئولة، تحمل الخير للإنسان، تحمل الصلاح والصدق، لتعطي له الأمان الذي يبحث عنه، فلا يجده في عالم الغيبوبة وأمواج التيه. هذا هو أدب الإسلام: «ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد»!

وذلك هو أدب الحداثة: «دبيب فخذي امرأة بين إليتي رجل».

الفصل السابع



الجمال الفني وولادة النص الأدبى وانطلاقته

كيف يتولد النص الأدبي وما هي سهات الجهال فيه؟! قضية تحتل ساحة واسعة من الدراسات الأدبية والنقدية. رد أفلاطون الجهال إلى مثل أزلي وثني، واعتبر الفن من بقايا ذكريات الروح وأقام نظرية المحاكاة. نقض أرسطو فكر أفلاطون ليركز على الواقع ووظيفة اللغة. وامتدت آثار هذه التصورات في أوروبا. واعتبر بومجارتن في القرن الثامن عشر أن الجهال مرتبط بالحس والشعور. أما ديدرو في القرن الثامن عشر أيضاً فقد ركز على الإدراك للعلاقات بين الأشياء والأجزاء. واعتبر «كانت» «أن الفن غاية في ذاته». وتأثر به «مدام دي ستايل» و«فكتور كوزان» و«توفيل جوتييه». و«جوتييه» هو القائل: (لا وجود لشيء جميل حقاً إلا إذا كان لا فائدة منه. وكل ما هو نافع فهو قبيح). وتوالت نظريات الجمال مع «فيتشه» و«شوبهور» و«هيجل» و«بندتوكروتشيه» لتتضارب التصورات وتتناقض. ويقول إليوت: «إن الجمال في العمل الأدبي غير ذاتي وهو مستقل عن مؤلفه»(۱).

وظهرت أفكار الجمال النسبي والجمال الحسي وغير الحسي، وأفكار متضاربة كثيرة تحملها المذاهب الأدبية المختلفة، كأن كل مذهب كان رد فعل للمذهب السابق، وكل مذهب يأخذ جزئية بني عليها حكماً عاماً. يقول أدونيس: «والجمال لا نهائي، وهو يرتبط بالإنسان

⁽۱) محمد غنيمي هلال ـ النقد الأدبي الحديث ـ دار الثقافة بيروت ـ ودار العودة بيروت ـ (۱۹۷۳م). (ص: ۳۱۲ ـ ۳۱۲).

لا بالغيب. إن الجمال الحقيقي هو المرئي لا العيني، (١) وآخر يقول: «الشعر حالة غير عقلية . . . ، (٢).

وجاءت الدراسات اللغوية لتبرز معاني أخرى للجهال، ولتبرز عوامل متعددة تدفع النص الفني، ولتحدّد العلاقة بين النص وصاحبه والمتلقي، مما عرضنا أطرافاً منه في الصفحات السابقة، ومما بينا جذوره العميقة في تاريخ أوروبا وبالوثنية اليونانية وغيرها، حتى تبين لنا من ذلك الاستعراض السريع أن أهم العوامل المؤكدة للنبضة الفنية، حسب ما دارت عليه المذاهب الفكرية والأدبية، كانت ترتبط بالنظرية المادية للحياة "Materialism" أو المثالية "Idealism"، وكلاهما بعيد عن نظرة الإيهان والتوحيد كها جاء في منهاج الله حقاً مطلقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وكانت تلك النظريات تأخذ في معظم الأحيان جزئية أو أكثر تبنى عليها حكماً عاماً.

فحملت الحداثة في مذاهبها المختلفة نظريات في الجهال متناقضة مختلفة. يرى بعضهم أن الحداثة أتت بتجديد جمال واقتحام وعدم تواصل (٣). ويرى آخرون أن الحداثة أتت بأدب غير واقعي خال من المضامين الإنسانية، ويركز على القضايا الأسلوبية والتقنية والشكلية. ويقول «فلوبير»: «كل ما أريد أن أفعله هو أن أنتج كتاباً جميلاً حول لا شيء وغير مترابط إلا مع نفسه وليس مع عوالم خارجية. . »(١) وتعتقد «فرجينيا وولف» بأن والأسلوبية الجديدة جاءت نتيجة التغيير الذي حصل في العلاقات الإنسانية»(١) وطلع علينا القرن العشرون بإنتاج عدد من الأدباء الحداثيين: الروائي النمساوي (فرانزكافكا Franz القرن العشرون بإنتاج عدد من الأدباء الجداثيين: والروائي الإيرلندي «جيمس جويس القرن الإنسانية» والشاعر الأمريكي «إزرا بوند Ezra

⁽١) مقدمة للشعر العربي. (ص: ٥٩).

⁽٢) الخطيئة والتكفير (ص: ١٠٣).

⁽٣) مالكولم برادبري وزملاؤه الحداثة . (ص: ٢٥).

⁽٤) المرجع السابق: (ص: ٢٥).

⁽٥) المرجع السابق: (ص: ٢٥).

اليوت ١٨٨٥ م - ١٩٧٢م شاعر الغموض، والشاعر الناقد الإنكليزي «توماس ستيرنس اليوت ١٨٨٥ م - ١٩٦٥م»، وهو من أبرز عملي الشعر الحر وصاحب نظريات نقدية، يربط بها الأدب بالدين المسيحي. وانطلقت علوم اللغة مع «فرديناند دوسوسيير Ferdinand de Saussure » وغيره، وطلع كذلك فلاسفة متعددون، مثل «مارتنت هيديجار ١٨٨٩م - ١٩٧٦م» الفيلسوف الوجودي الألماني. وحشد كبير من الكتاب والروائيين والشعراء والفلاسفة اضطربت بهم النظرية الجمالية وتناقضت إلى حد بعين الفكر والعاطفة والواقع وغير ذلك.

أما في الدراسات الأدبية عند المسلمين فقد احتلت دراسة الجهال مساحة حسنة. إلا أنها كانت تختلف في منحاها عن الدراسات عند اليونانيين خاصة والأوربيين عامة ، إلا عند من تأثير بدراساتهم. إن معظم القضايا النقدية التي كانت موضع دراسة عند المسلمين يمكن إيجازها بها يلي: اللفظ والمعنى ، المصنوع والمطبوع ، وحدة القصيدة ، الصدق والكذب ، العلاقة بين الشعر والدين ، المفاضلة بين الشعراء ، والسرقات ، وعمود الشعر . وقضايا أخرى هامة برزت في دراسة الجهال الفني في الأدب مثل: الاعتدال ، والموازنة ، البديهة ، والإيهان بالله سبحانه وتعالى . ويتحدد للشعر عمود من ست نقاط تكون هي محور الجهال الفني فيه ، وهي : شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، إصابة الوصف ، المقاربة في التشبيه ، الغزارة في البديهة ، كثرة الأمثال السائدة والأبيات الشاردة (١٠) .

ما موقف الأدب الإسلامي من هذه النظريات كلها؟ كيف يرى الأدب الإسلامي النبضة الفنية التي تدفع النص الفني؟ ما هي العوامل التي تهبه الجمال؟ ما علاقة النص بصاحبه وبالمتلقي والواقع؟ هل النص ثمرة عاطفة وتجربة شعورية فحسب؟ أم ثمرة فكر فقط؟!

لابد أن يكون للأدب الإسلامي موقفه ورأيه من قضايا الأدب هذه. إن الرأي الذي

⁽١) د. إحسان عباس ـ تاريخ النقد الأدبي عند العرب ـ الطبعة (٤) ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م. دار الثقافة بيروت.

الباب الثالث الغصل السابع

أقدمه هنا عن هذه القضية أبنيه على أساس من طبيعة الإنسان وتعامله مع الواقع كها يعرض ذلك منهاج الله _ قرآناً وسنة _ فإليهها أرد الأمر كله، وكذلك على أساس فهمي للأدب ومهمته في الحياة وفي واقعنا من خلال منهاج الله، ومن خلال دراسة الواقع، وكذلك المعاناة والتجربة الشخصية في ميدان الأدب.

الكون كله مفتوح أمام الأدب الإسلامي، وحياة الإنسان كذلك، وأحداث التاريخ والمواقع. الكون كله، بها فيه الدنيا والآخرة، تمد الأدب الإسلامي بالموضوعات الحية الفنية، يتخير الأديب المسلم منها ما يستطيع أن يصوغه صياغة تتوافر فيها عناصر الجمال الفني، حتى يصبح الموضوع بصياغته الفنية أدباً يستحق الدراسة والتقدير.

الأدب عطاء الأديب المسلم. يخرج منه، من طاقته، من كيانه وطبيعته حيث تعمل قوى وطاقات، وغرائز وميول، وأهواء وشهوات. يتفاعل الأديب المسلم مع الحياة، مع الواقع، مع الكون، فتتحرك فيه الطاقات، وتتولد النبضة التي تدفع النص الأدبي. ولكن كيف يتم هذا التفاعل؟! إنها عملية معقدة في خلق الإنسان لا نستطيع أن ندرك دقائقها. ولكننا نتلمس أهم معالمها وآثارها وحركاتها.

حسب المذاهب الأدبية المختلفة التي أشرنا إليها فإن أهم العوامل المؤثرة في إطلاق هذه النبضة حسب ما دارت حولها الدارسات أو تناولتها الأبحاث والمذاهب هي: العاطفة والشعور، الفكر، الواقع، التجارب وغيرها. وكل مذهب اختص بعامل واحد أو عاملين، كما رأينا في العرض الموجز قبل قليل. «بومجارتن» يرى العاطفة هي التي تولد النص الأدبي، و«بندتوكروتشيه» يرى الفكر، وغيرهما يرى الواقع، فتتولد الواقعية بأشكالها المختلفة. ولكننا نعتقد أن الإسلام يرى غير ذلك.

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان على الفطرة، وأودع في فطرة الإنسان ما شاء من أسرار كشف لنا سبحانه وتعالى بعضها، وأخفى عنا بعضها، وهو علام الغيوب.

إن أول هذه القوى التي غرسها الله في كل إنسان هي الإيهان والتوحيد، جعلهها الله عهداً وميثاقاً، حين أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم. فشهدوا وأقروا بأن الله واحد لا إله إلا هو، كها نصت سورة الأعراف على ذلك. وكها نصت

سورة الـروم:

﴿ فَأَقِدْوَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَالِكَ الدِّيثُ الْقَيِّدُ وَلَاكِنَ أَكَ أَلْكَاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ﴾

(الروم: ۳۰)،

وكها جاءت الأحاديث الشريفة بذلك أيضاً. وجعل الله في فطرة

الإنسان ميولاً وشهوات، كل واحدة لها مهمة محددة تؤديها في حياة الإنسان على نحو محدد ولتحقّق غاية محددة. وتعمل هذه الميول والرغبات متناسقة متوازنة مادامت الفطرة سليمة لم تتشوه، ومادامت تعمل في رعاية الإيهان والتوحيد، فمنها تتغذى كل واحدة من هذه الميول، ومنها ترتوي. ويظل الإيهان والتوحيد القوّة التي تحفظ التوازن والتناسق بينها كلها. وتؤدي كل قوة من هذه القوى وظيفتها التي خلقت من أجلها ما لم تنحرف الفطرة ويضطرب الإيهان وغتل. في هذه الحالة، حين لا تنحرف الفطرة ولا يضطرب الإيهان، تكون هذه الميول والقوى في الإنسان قوى إيهان وميول تقوى. فإذا انحرفت الفطرة واختل الإيهان، فإن هذه القوة أو تلك تصبح قوى فجور، وتنحرف إلى الفساد على قدر خلل الإيهان وانقطاعه:

﴿ فَأَلْمَهَا فَجُورَهَا وَتَقُولُهَا ﴾ (الشمس: ٨).

وجعل الله الإيهان والتوحيد علماً حقاً غرسه في الإنسان، فعلمه حقائقها، وعلمه الأسهاء، وعلمه كذلك ما لم يعلم:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلُّهَا ﴾. • (البقرة: ٣١).

﴿ عَلَمُ ٱلْإِنسَانَ مَا لَرَيْعَلَمُ ۞ ﴾. فهنـالك علم علمه الله للإنسان، جعله في فطرته وطبيعته، عرفنا منه طرفاً. ألباب الثالث الفصل السأبع

وجعل الله كذلك في فطرة الإنسان القدرة على التعلم والاكتساب آية منه سبحانه وتعالى، وجعل الله السمع والأبصار والأفئدة منافذ للتعلم وللاتصال مع الكون، ليرى الإنسان آيات الله فيتعلمها، فينمو إيهانه ويزداد.

من بين هذه القوى العاملة في الإنسان قوتان واضحتان لنا، ثابتتان فيها نحس به ونشعره ونارسه، وفيها نتعلمه من منهاج الله. هاتان القوتان هما: أولاً العقل والفكر، وثانياً: العاطفة والشعور. فالأولى هي قدرة الإنسان على التأمل والتدبر، والتحليل والدراسة، والنظر والاستكشاف، والفهم والاستيعاب. ونسمى هذه القوة وما يتصل بها لأداء مهمتها أصطلاحاً بالفكر. والثانية هي العاطفة والشعور والإحساس، ونسميها اصطلاحاً بالعاطفة. إنها القوة التي تهيء العين فتدمع، وتدفع القلب فيخفق، وتشد النظرة فتتحدد. إنها القوة التي تحرك الحنان أو القسوة، الرحمة أو الغلظة. والقوتان تعملان معاً في كيان الإنسان وطبيعته وفطرته. وقد تختلف قوة هذه أو تلك حسب المواقف والقضايا والواقع، وحسب ما يحمله الإنسان من زاد، وما وهبه الله من طاقة لهذه أو تلك على حكمة لله غالبة. ولكن الفكر والعاطفة قوتان تعملان معاً مهم اختلفت نسبتهما، ويتعذر على واحدة منها أن تعمل في حياة الإنسان أو أن تدفع عطاءه دون مشاركة من الأخرى، مهما قلَّتْ هذه المشاركة. فكل عطاء يخرج من الإنسان سواءً أكان فنياً أم علمياً أم عملياً، فلابد أن تساهم هاتان القوَّتان على الأقل في إخراجه ودفعه. والفكر يوجه العاطفة ويضبطها، والعاطفة تغذي الفكر وتنميه، ويظل بينهما تفاعل قائم في حياة الإنسان لا يتوقف، والإيمان يرعى هذا التفاعل ويرويه ويغذيه، كما يروي ويغذي سائر الطاقات والميول والشهوات، لتعمل على توازن وتناسق، وعلى حكمة لله غالبة، لا نعلم عنها إلا القليل، ولتظل ميدان بحث للإنسان يكتشف من خلاله آيات بينات لله.

ومع مسيرة الإنسان في الحياة الدنيا يمر بتجارب أو يتلقى علماً، وذلك عن طريق السمع والبصر والفؤاد. وكل حادثة، أو معاناة من فرح أو حزن، أو علم يكتسبه الإنسان وطبيعته وفطرت لينمي فكره من ناحية وعاطفته من ناحية أخرى، ويتفاعل هذا كله في كيان الإنسان ليولد ما نسميه اصطلاحاً بالإدراك. «فالإدراك»، وكما نصطلح عليه، هو ثمرة

البأب الثالث الفحل المابع

العاملين، الفكر والعاطفة معاً، وهو عملية الوعي لا الغيبوبة، عملية الوعي الكامل من الفكر والشعور معاً، لتنشأ عندئذ المسئولية، مسئولية الإنسان عن حركته وكلمته وعمله ونيته.

إن جميع الدراسات والعلوم التي استعرضناها في الفكر الغربي، في الأدب وفي سواه، أهملت دور الإيهان والتوحيد، والنية، والمستولية، وأهملت امتداد العمل بين الدنيا والآخرة. والإسلام يفصل في كل قضية من هذه القضايا تفصيلاً واسعاً، نحن نحاول إيجازه هنا. ولذلك يتميز الأدب الإسلامي الذي يلتزم التصور الإيهاني، بهذه النظرة الصادقة العميقة للإنسان، لجوهره وفطرته وطبيعته، لعلاقته مع الكون والحياة، لمهمته في الحياة، لأماله وعواطفه ورغباته. تصور فريد يجب أن ينتج أدباً فريداً. إنه تصور فريد يعرضه منهاج الله بكل تفاصيله آيات بينات وحقاً مطلقاً. ومن هذا التصور ومن هذه التفصيلات تنطلق نظرية الأدب الإسلامي بكل عناصرها.

وحين يريد الإنسان أن يعمل، أو يتحرك ليعمل، أو يفكر، فعندئذ تتحرك فيه طاقة هامة وقدرة مسئولة هي «النية». وهي قدرة الإنسان على القصد والتوجه والعزم. فإذا كانت فطرته سليمة يعمل فيها الإيهان بصورة صحيحة، فإن «النية» تتوجه مع كل عمل أو فكر أو كلمة إلى الله سبحانه وتعالى. وفي هذه الحالة تفتح النية نبع الإيهان والتوحيد ليصب من فيضه، فيروي طاقات الإنسان العاملة مع تلك اللحظة رياً يتناسب مع حاجة الجهد المطلوب، ويحفظ التوازن والتناسق أثناء العمل والسعي والتفكير والإحساس، كها كان يرويها ويحفظ توازنها على قدر لازم قبل الحركة والعمل. ويمضي العمل عندئذ في طريق التقوى والخير والصلاح في حياة الإنسان وحياة البشرية كلها. أما إذا اختل الإيهان بسبب فساد الفطرة وانحرافها، أو تعطل الإيهان، فإن «النية» عندئذ تتجه لغير الله سبحانه وتعالى، وتغيب في أمواج الأهواء والشهوات، ويتوقف الريّ من الإيهان والتوحيد، فتنحرف الشهوات والميول إلى طريق الفجور والفتنة والفساد، وينحرف بذلك السعي والعمل والكلمة، وينحرف عطاء الإنسان كله ويفسد. إنه يفسد حتى لا يقبله الله:

«إنها الأعمال بالنية وإنها لكل امريء من عمله مانوى (رواه الشيخان)(١). أما الحداثة فإنها تلغي النية وتمحوها. لقد ألغت معاني الكلمات وأفرغتها، وألغت علم المعاني، وقتلت صاحب النص بدلاً من إلغائه، ثم جاءت الآن لتلغي النية وتقول: « . . . ومن هنا نلمس مدى استطاعة النص على الاستقلال في وجوده . وهذا ما يقضي على مفهوم (نية المؤلف) لأن نية المؤلف قيمة ثانوية لا تقوى على ملاحقة النص إذا ما أراد النص الشرود عنها . . . (٢).

وكان أحرى أن يقول أحدهم إنه لا يستطيع أن يدرك هو بنفسه أثر النية، بدلًا من أن يجعل قيمتها ثانوية، ثم يقول: ولكن الله أعلم.

إن أثر النية في النص الأدبي ليس أثراً مباشراً نلمسه بإحدى حواسنا، إنه أثر نفسي معنوي، يدخل في دقائق التفاعل في داخل الإنسان. ولولا أن أعلمنا الله ورسوله بأثر النية في كل عمل الإنسان ما علمنا أهمية النية في الحياة.

والناقد قد لا يستطيع أن يدخل النية في ميزان نقده. لأن النية مرتبطة بالله سبحانه وتعالى فهو العليم بذات الصدور. ولكن الناقد يستطيع أن يلمس أثر الصدق أو الكذب، الشرف أو الخيانة، الافتراء أو العدل، إلى غير ذلك من الدلالات التي قد يشير إليها النص وارتباطه بالواقع والأحداث. إلا أن أثر النية الهام هو عند صاحب النص، المسئول عن النص، حيث تمتد مسئوليته في الدنيا والأخرة، وحيث تكون النية هي مدار قبول العمل عند الله، حين يكون العمل كذلك مطابقاً لمنهاج الله، فينعكس أثر النية عندئذ، كها أوضعنا سابقاً، على النص الفني وجماله.

⁽۱) البخاري: كتاب الإيهان (۲). باب (٤١). مسلم: كتاب الإمارة (۳۳). باب (٤٥). رقم (۱۹۰۷).

⁽٢) الموقف من الحداثة (ص: ٨٧).

حين يمر الإنسان بتجارب أو معاناة ، أو حين يتلقى زاداً من علم ، فإن هذا كله كها ذكرنا ، يدخل كيانه ليتفاعل فيه مع الفكر والعاطفة في آن واحد بطريقة ربانية يعلمها الله . ولذلك نؤثر أن نسمي هذه الأحداث كلها «تجارب» دون أن نحددها بتجارب شعورية أو فكرية . لأننا نؤمن أن الفكر والعاطفة يعملان معاً ، ولا يكون الفرق بين حالة وأخرى إلا باختلاف نسبة هذا أو ذاك ، أو بانحرافه ، لا بزوال أي منها ، كها ذكرنا قبل قليل .

ولنوضح هذا التفاعل مع الأحداث والتجارب، نشبه الفكر والعاطفة في الإنسان بقطبين، يستقر على كل واحد منها قدر محدد من الشحنات الماثلة لهذا القطب أو ذاك، مع كل تجربة وحدث، وتنمو هذه الشحنات مع نمو التجارب والأحداث والزاد، ويكون من بين هذا الزاد علم باللغة وعلم بالأدب وعلم بهذا وذاك، مما يدرسه الإنسان ويتزود به في مسيرة حياته. وتمر هذه التجارب كلها على مصفاة الإيهان والتوحيد إذا كان الإيهان لم يضطرب أو يتعطل، وإذا كانت الفطرة سليمة لم تنحرف. أما إذا جف الإيهان أو اختل أو انحرفت الفطرة، فإن التجارب تدخل مع ما فيها من أخلاط وشوائب دون تصفية، ثم انحرف الفكر، وتموج مع العاطفة، ليضطرب هذا كله في كيان الإنسان، وليفقد التوازن والتناسق، فتطغى نواح على حساب أخرى، وتجف خصائص وتنمو خصائص، على حكمة لله ماضية وقدر لله غالب عادل لا يظلم.

إن توافر هذه الشحنات النامية على الفكر والعاطفة، يغذي التفاعل بين الفكر والعاطفة وينميه. ويضع الله سبحانه وتعالى في بعض خلقه قدرة متميزة في ناحية من نواحي الحياة. نسمي هذه الطاقة المتميزة والقدرة الخاصة بالموهبة. ولا نستطيع أن نعرف الموهبة بأكثر من أنها حالة غنية من حالات تفاعل الفكر والعاطفة، وهي طاقة من الطاقات الداخلة في كيان الإنسان، وهي نعمة من نعم الله يهبها لمن يشاء من عباده، وابتلاء منه سبحانه وتعالى. وترعى الموهبة التفاعل بين الفكر والعاطفة على قدرين متميزين، وعلى صورة تحفظ هذه الطاقات من أن تتبدد وتضيع. ويجعل الله بحكمته وعلمه مواهب شتى في خلقه فهذه موهبة في العلوم، وهذه موهبة في الشعر، وتلك في القصة، وأخرى في هذا الباب أو ذاك. إنها الموهبة في أي ميدان من ميادين النشاط والعطاء، ترعى التفاعل بين

الباب الثالث الغصل السابع

الفكر والعاطفة وتدفع منهما العطاء.

ربها ينطلق العطاء من الإنسان نتيجة تفاعل عادي بين الفكر والعاطفة. وربها تقع حادثة أو تجربة فتترك شحنة أقوى على العاطفة، أو شحنة أقوى على الفكر، وربها تهز التجربة العاطفة والفكر حتى تدمع العين دون أن تقدم عطاء فنياً. ذلك لأن العطاء الفني ليس نتيجة تجربة واحدة، ولكنه نتيجة تجارب، وليست التجارب هي العامل الوحيد للعطاء، وإنها عامل من العوامل. وهذه التجارب بامتداد معناها تمثل أثر الواقع في عطاء الإنسان، وأثر الماضي كله، وأثر آمال المستقبل.

ولنقرّب الصورة فإننا نمثل التجارب بالشحنات الكهربائية التي تتجمع على هذا القطب وذاك، كما شرحنا أعلاه. والموهبة ترعى التفاعل بين القطبين، وتوفر الظروف المناسبة للتفاعل الغني المتميز، وتوفر نمو الشحنات هنا وهناك، حتى تحين لحظة معينة، تطلق الموهبة عندها الشرارة الكهربائية بين القطبين، فتطلق الومضة الغنية التي تدفع العمل الفني في لحظة الإبداع، نصاً من الشعر أو النثر، أو العلم، أو غير ذلك، حسب نوع الموهبة التي أنعم الله بها على عبده هذا أو ذاك، تنطلق الومضة الغنية من التفاعل الغني بين الفكر والعاطفة عندما تتوافر كافة الظروف الضرورية للانطلاق، ولا تنطلق الومضة إذا غاب عامل من عوامل إطلاقها.

والومضة الغنية التي تنطلق في لحظة الإبداع هذه، تكون في أعظم حالاتها الإنسانية وأعمقها وأغناها إذا كانت منطلقة في رعاية الإيهان والتوحيد، وصدق النية والتوجه إلى الله سبحانه وتعالى. إنها تنطلق وهي تحمل كل عناصر الجهال المؤثر الموحي. إنها تحمل نور الإيهان وإشراقة النية وغنى التجربة وجمال الفكر والعاطفة. إنها تحمل الجهال المتصل بالكون، بالحياة الدنيا وبالأخرة. إنها أعظم لحظات الإنسان.

إن هذه الومضة قد تدفع جولة عبقرية في ميدان الجهاد في سبيل الله، أو عملًا رائعاً مؤثراً في واقع الإنسان في أي ميدان من ميادين نشاطه، أو نصاً فنياً من شعر أو نثر، في جمال أدبي فني متميز.

إن الإيهان والتوحيد حين يروي طاقات الإنسان، وحين يصب ريّه على الطاقات العاملة

لحظة عملها، وحين ينقي التجارب والأحداث، وحين تفتح النية الصادقة نبعه وفيضه، عندئذ يهب الإيهان والنية عمل الإنسان أجمل ألوانه وأزهاها، غنية قوية. إن عمل الإنسان عندئذ خفقة الحياة الطاهرة، ونبضة الروح المؤمنة، وقوة الحركة وزهوة الصورة. والموهبة تدفع هذا العطاء العظيم وتطلق ومضته في رعاية الإيهان والتوحيد(١).

الموهبة لا تموت مادام صاحبها حياً. إنها تكمن حتى تجد الغذاء والريّ لتعمل. إنها تظل مدفونة في صاحبها حتى تنزل معه القبر، إذا لم تجد الفرصة للنمو والتفتح والإزهار. وإن أعظم ما تفقده الأمة مواهبها، حين تدفن المواهب قبل أن تتفتح، وتهيل عليها التراب قبل أن تحرك الطاقة وقبل أن تزهر.

هكذا ينطلق النص الفني، يشترك في إطلاقه وصياغته وأسلوبه وألوانه، وصورته وحركته: الإيهان والتوحيد، النية، الفكر والعاطفة وغيرهما من القوى العاملة في الإنسان عا نجهله، التجارب والأحداث والعلوم، يمد بها الواقع والكون والحياة، الموهبة، كل هذه العوامل تشترك في إطلاق النص الأدبي في لحظة من لحظات الإبداع، على النحو الذي عرضناه، على حكمة لله غالبة وقدر لله ماض. فإليه ترجع الأمور وبيده مقاليد كل شيء.

ومن هذا التصور لا ينحصر الموضوع الفني في باب دون باب. فالموعظة والخطبة باب عظيم من أبواب الأدب الإسلامي مادام يحمل هذه الخصائص الفنية، ويحمل معها الجمال المؤثر. والموضوع السياسي كذلك يمكن أن يكون موضوعاً فنياً. وهكذا سائر الموضوعات التي تمد بها الحياة وميادينها، والكون وآفاقه.

من هنا ندرك الومضة الفنية الغنية في شعراء الدعوة الإسلامية، حسان بن ثابت، عبدالله بن رواحة، كعب بن مالك، جعفر بن أبي طالب، كعب بن زهير بعد أن أسلم، حيث ترتفع الكلمة والتعبير والنص، يرتفع هذا كله غنياً بالإيهان والتوحيد، طاهراً نقياً، يحمل معه تاريخ أمة الإسلام كلها، وجماله وعزته.

 ⁽١) الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته: العناصر الفنية (ص: ٤٢ - ٤٥) الموضوع الفني الأدبي (ص: ٦١ - ٧٧). الإسلام والجمال (ص: ٣٤٣ - ٣٠١).

الباب الثالث الفصل السابع

لا حاجة إذن إلى غسل الكلمة من الماضي وتطهيرها، كما تريد الحداثة، فإن كلمة الإسلام غنية طاهرة بماضيها وحاضرها ومستقبلها، لا تحتاج إلى تطهير.

ومن هنا، وبعد هذا العرض، نستطيع أن نقدم تعريفاً للأدب والفن على الأسس التي قدمناها، لنبين عمق البعد الإنساني في الأدب الإسلامي وامتداد ميدانه.

«الأدب الإسلامي هو ومضة التفاعل بين الفكر والعاطفة في فطرة الإنسان، تمدها الأحداث والتجارب والعلوم، وآفاق الحياة الدنيا والآخرة والكون كله بالزاد والشحنات، حين تطلق الموهبة ومضة التفاعل هذا، وحين يروي الإيهان والتوحيد وصدق النية طاقات الإنسان العاملة في فطرته وكيانه، لتحمل الومضة معها عناصر الجهال الفني، وليشارك الأدب الأمة المسلمة في تحقيق أهدافها الإيهانية الثابتة والمرحلية، وليساهم من خلال ذلك في عهارة الأرض، وبناء حضارة إيهانية طاهرة، وحياة إنسانية نظيفة، وهو يخضع في ذلك كله لمنهاج الله ـ قرآناً وسنة ـ المنهاج الذي جاء لساناً عربياً مبيناً».

والنص الفني مرتبط بصاحبه، لا يمكن إلغاؤه ولا قتله، كها يريد «رولان بارت» وكها يريد الحداثيون. ويمكن أن نحصر العناصر المؤثرة في النص الفني الأدبي بمجموعتين. مجموعة ترتبط بصاحب النص وواقعه وعالمه، وجميع هذه العناصر تزيد من ارتباط النص بصاحبه.

أما المجموعة الأولى فتشمل: الصياغة الفنية وما تحمله من اختيار اللفظة وبناء التعبير وربطه حتى يتكون النص كله. وكذلك الموضوع الفني أو القضية التي يدور حولها النص، ومدى مواءمة الصياغة للموضوع والقضية. ثم الشكل الفني أو الأجناس من شعر أو نثر، قصة ورواية أو ملحمة، وغير ذلك. ثم الأسلوب الفني.

أما المجموعة الثانية فتشمل: الإنسان صاحب النص وما يحمله من فطرة وقدرات ومواهب وعلم، ثم واقعه الممتد امتداد الكون على قدر ما يتصل به الإنسان، وما يحمل من تاريخ يساهم في تكوين زاده وواقعه، ثم العقيدة التي يرتبط بها.

ولقد أخذت معظم المذاهب الأدبية، على ضوء ما عرضناه، عنصراً من هذه العناصر واعتبرته أساس الجهال ومحور النقد وعنصر الفن، فغالت به وارتبطت به، حتى عرفت

الباب الثالث الغطل السابع

به. كالأسلوبية والشكلية والواقعية والإنسانية وغيرها. ففقدت بذلك سمة العدل وسلامة الموازنة والتقدير، مع اختلاف ما تحمل هذه الكلمات عندنا وعندهم.

وكل عنصر من هذه العناصر في المجموعتين يساهم في حالة نجاحه بإضافة جمال فني إلى جمال فني، على النحو الذي عرضناه. ويزيد كذلك من وضوح المسئولية في الأدب، بمسئولية صاحب النص عن نصه الذي دفعه، مسئولية في الدنيا، ومسئولية في الآخرة، وحساب بين يدي الله شديد، حتى يتعذر أبداً فصل النص عن صاحبه كها تطلب الحداثة.

ونظرية الجهال في الإسلام واضحة جلية ، تنبع كلها من الإيهان والتوحيد على النحو الذي عرضناه. فإذا ذهب الإيهان والتوحيد غاب الجهال وطوي: فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله على أنه قال: «إن الله تعالى جميل يحب الجهال» (رواه مسلم)(١).

والجمال ممتد في الكون آيات بينات، في السهاء والأرض، وفي أنفسنا. ولكن المؤمن يرى من الجمال ما لا يراه سواه. والجمال ممتد في الكون كله، في عالم الغيب والمشهد:

والجمال صفة من صفات الجنة ونعمة من نعم الله الكبرى. والجمال في الإنسان نفسه:

الجمال في فطرته وفي نفسه وهي على الإيمان، والجمال في عمل المؤمن وكلمته: صبر جميل، وسراح جميل، وصفح جميل، وهجر جميل. فليس الجمال في الإسلام غيبوبة كما هي عند الحداثيين، ولا هو إلغاءً للإرادة وإغراقاً في التأمل الخالص، كما هو عند شوبنهور، ولكنه في الإسلام جمال الوعي واليقظة، وجمال السعي والجهاد. ولا هو عالم أشباح وأساطير. إنه جمال الحقيقة الصادقة الواعية الأمينة. إنه جمال اتصال الإنسان بالكون والحياة اتصال وعي وإدراك لهذا الحق، وبذلك فهو جمال عبادة حقيقية لله نؤديها كما أمر الله.

⁽١) صحيح مسلم. كتاب الإيهان. باب الكبر وبيانه (حديث: ١٩).

الباب الثالث الغصل المابع

أما الجهال في العمل الفني، فقد سبق أن عرضنا جذوته وينبوعه وعناصره. وذكرنا كيف يتولد، حيث تجتمع العناصر كلها والطاقات كلها. إن ينبوعه الإيهان والتوحيد، ومادته الصدق والشرف، وغذاءه الحق والمروءة، ونهجه الاستقامة والعدل.

ولكن كثيراً من المذاهب الأدبية والفنية حولت الجهال إلى جمال جسد المرأة، كها حولت الحُب إلى لهيب الشهوة. لقد قتلوا جوهر الجهال بالتناقض والاضطراب، والحرب والطغيان، والعدوان والأثرة، حتى قُلبت الموازين واختلطت المعايير. ولقد عرضنا أبياتاً رائعة الجهال لابن الرومي، جاء التحليل البنيوي فقتلها وأذهب جمالها وهبط بها إلى وحول الشهوة الملوّثة. ألم يقل أحدهم: «كل ما هو نافع قبيح»!! فالإيهان يروي العمل ويغذيه، والموهبة هي التي تصوغ التفاعل بين الفكر والعاطفة، وما يحملان من شحنات صافية غنية، والموازنة هي العامل المنظم لعناصر الجهال في العمل الفني.

اديب ناثر أو شاعر يصف روضاً أو زهرة أو لوحة في الحياة، فلا يرى فيها إلا اللون والورق والرائحة، لا يتجاوز ذلك. تظل متعته آية محدودة. وآخر يرى ما رآه الأول، ولكن رأى أيضاً من آيات الله تتجدد أمامه في هذا الكون، ونعمة تستحق الحمد والشكر، فأخبت لخالقه وخشع وأناب، فكان جمالاً ممتداً ومتعة دائمة. وآخر عميت أبصاره وعلتها غشاوة من الفتنة والكفر، فغاب عنه الجال الحق مها حمل من زخرف وزينة.

في القرآن الكريم لكلمة الجهال ظل خاص وجو من الشذا والعطر، ليس لغيرها من الكلهات. كلمة الجهال لا تأتي في منهاج الله إلا مع الإيهان والحق، والصلاح والخير والطهارة.

المظهر الخارجي لمايسميه الناس جمالًا، يسميه القرآن الكريم زُخرفاً وزينة. فإذا عملت الزينة في الخير أصبحت جمالًا، وإن عملت في الشر أصبحت فتنة. الكلمة العامة هي زخرف وزينة ثم تتحول إلى جمال أو إلى فتنة.

وللجهال متعة دائمة يعيش معها المؤمن. وللفتنة لذة عابرة ثم لهيب وحريق وشر. الزواج سكن وجمال ومتعة دائمة. والزنا لذة عابرة وشقاء وأمراض. الجهال والمتعة في الأدب الإسلامي ينهلان من نبع واحد.

الباب الثالث الغطل السابع

الأدب الإسلامي بجماله الحق قوة تساهم في بناء الإنسان وصلاحه وسعادته، يحمله المؤمنون الصادقون، تحمله الأمة المسلمة في الأرض، لتنشر النور والحق على هدى منهاج الله.

الأدب الإسلامي هو أدب الجمال وجمال الأدب. كلمته جمال، تعبيره جمال، ومعناه جمال. وقبل ذلك كله الأدب نفسه جمال. وأنى للأدب أن يكون جميلًا إذا فقد الأديب الجمال في نفسه وعيه، في سعيه وممارسته، في كلمته، في سره وعلانيته.

لابد أن يتوافر الجمال أولاً في الإنسان ذاته، في جوهره وحقيقته، في فطرته. ولذلك خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، خلقه على الفطرة، لتحمل معها كل عناصر الجمال. فإذا فسدت الفطرة وانحرفت، واختل الإيمان واضطرب بما كسبت يدا الإنسان، ارتد الإنسان أسفل سافلين، كما نص القرآن الكريم، وفقد بذلك كل عناصر الجمال في نفسه، ثم في وعيه وسعيه، ثم في كلمته وأدبه. وبذلك يكون للجمال معنى محدد واضح في الإسلام، حددته الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

حتى يتحقق معنى الجهال في ذات الإنسان وداخله ونفسه وفطرته، فلابد أن تتحقق عناصر الإيهان والتوحيد، ونوجزها بها يلى:

- 1 أن يعي الإنسان أن الإيهان والتوحيد هما أخطر قضية في حياته، لا تعلو عليهها قضية أخرى أبداً، وأن الحياة الدنيا هي الفسحة الوحيدة للإنسان لتصحيح مسيرته، ولا رجعة بعد الموت لتصحيح أي انحراف عنهها. وكذلك أن يعي الإنسان أن الإيهان والتوحيد هما القضية الكبرى في الكون كله، عليهها يقوم كل نظام الحياة والكون، وبها تتصل الدنيا بالآخرة.
- ٢ أن يعي حقيقة معنى الألوهية والربوبية كها يعرضها منهاج الله، وأن يعي حقيقة العبودية كذلك، وحقيقة العلاقة بين العبد المخلوق، والله الخالق الذي له الأسهاء الحسنى كلها. ذلك كله كها يعرضه منهاج الله عرضاً كاملًا متناسقاً بيناً.
- ٣ ـ أن يعي حقيقة عهده مع الله ، عهده الذي أخذه الله من بني آدم كلهم في عالم الغيب.
 فها من مخلوق إلا وهو على عهد ثابت مع الله ، نسيه الإنسان أم لم ينسه . وكذلك أن

يعي أنه مسئول عن أن يكون أي عهد يقيمه في الدنيا نابعاً مرتبطاً مع عهده مع الله .

٤ _ أن يكون ولاؤه الأول لله ، ومن ولائه هذا يجب أن ينبع كل ولاء له في الحياة الدنيا.

أن يكون حبه الأكبر لله ولرسوله، كما أمر الله بذلك ورسوله. وبذلك يكون تضرعه
 وخشوعه ولجوؤه إلى الله سبحانه وتعالى.

٦ أن يعيش مع منهاج الله ليظل يرتوي من هذا المنهل الغني الصافي، يروي به فطرته وطاقاته.

بهذه الخصائص الإيهانية يرتبط الإنسان مع ربه وخالقه الله الذي لا إله إلا هو، فيرتبط بذلك مع الكون كله ونظامه، ويتناسق في عبودية خاشعة لله، كما يخشع كل ما في الكون لله، ويرتبط جمال مع جمال، في موكب من الجلال، فيخرج الأدب غنياً يحمل الحق من نفس الأديب ومن الحياة ومن الكون.

ولا يختص الجهال الفني في النص وحده أو الأديب وحده، ولكنه يمتد للأمة المسلمة في الأرض، المنطلقة فيها تحمل رسالة الله إلى الناس كافة، ولتكون خير أمة أخرجت للناس، ولتكون أمة وسطأ، وليكون جنودها وأبناؤها شهداء على الناس، يحملون الكلمة الحلوة الطيبة الغنية للبشرية كلها، يحملون الأمانة في جميع صورها، أمانة الوعي، أمانة السعي، أمانة الكلمة والأدب، ليكون في هذا كله دفقة جمال مع دفقة جمال، من ميدان الجهاد أو ميدان الأدب والكلمة. فتدفع الأمة كلها، عزة الجهال الفني في تاريخ مشرق في حياة البشرية، ليأخذ الأدب الإسلامي بعده العالمي وعمقه الإنساني.

وحتى يتحقق ذلك في واقع الأمة المسلمة وهي تحمل رسالة الله ، فلابد أن تقوم دعوتها على أسس أربعة متهاسكة لا يغني بعضها عن بعض :

أولاً: الدعوة إلى الإيهان والتوحيد كما يعرضها منهاج الله.

ثانياً: المنهاج الرباني _ قرآناً وسنة ، كما جاء لساناً عُربياً مبيناً .

ثالثاً: الواقع من خلال منهاج الله .

رابعاً: ممارسة منهاج الله في الواقع البشري.

عندئذ تستقر أسس الفكر والوعي، وأسس الجهد والسعي، وأسس الأدب وأبوابه،

جمالًا رائعاً في موكب إنساني ماض حتى تقوم الساعة.

أمام الأدب الإسلامي اليوم تحديات كثيرة. الأدب الإسلامي يبحث اليوم عن الساحة التي يتنفس فيها هواءه النقي، ويبحث عن الإعلام الذي يحمل كلمته، وعن الرعاية الحانية التي تحوطه، ليقدم النظرية والنص، ليقدم الشعر والنثر، ليقدم الفكر والعاطفة، وليخوض معركة الأمة متضامناً مع سائر أسلحتها.

إن أول المعركة هي في ذات الأديب صاحب النص والأديب الناقد، حتى يتحرر من جميع العصبيات التي أمره الله أن يتحرر منها، حتى يستطيع أن يعطي وينصح ويجاهد، ويصدق في ذلك كله، بعيداً عن التحاسد والتناجش والفتنة.

على الأدب والأديب أن يتحررا من ضغوط الفكر الأوروبي وأدبه، ومن ضغوط الوثنية اليونانية وآثارها الممتدة في حياة الناس وأدبهم.

على الأدب الإسلامي، بعد ذلك، أن يقدم نظريات جديدة في الأدب والنقد، في النهج والأسلوب، تصوغها الموهبة المؤمنة التي يرعاها المجتمع المؤمن فلا يقتلها. عليه أن يقدم نظريات على الأسس الأربعة التي عرضناها: الإيمان والتوحيد، المنهاج الرباني، الواقع، ممارسة منهاج الله في الواقع.

الإسلام غني بثروته. إنه نبع غني ثر، يغني البشرية كلها إذا حملته المواهب المؤمنة في الأرض، لتدفع إلى الناس أصدق النظريات والمناهج.

الحداثة قطعت الماضي، وقتلت الحاضر، وأظلمت المستقبل. الأدب الإسلامي يصل الماضي ويطلق الحاضر ويضيء المستقبل.

مسئولية الأدب الإسلامي مسئولية إنسانية، تحتاج إلى عزائم وإيهان وعلم ومواهب.

وأقدم مع نهاية هذا البحث قصيدة مهرجان القصيد نموذجاً للأدب الإسلامي كما أتصوره وكما عرضته في هذه الدراسة.

والحمد لله رب العالمين



الأدب الإسلامي

«مَهْرَجَانَ القَصيد» غَنَّ قَصيْدي فالمَعَاني انْتَقَيْتُها مِنْ جنَانِ والقَوَافِي كَأَنَّها عَبَقُ الرَّوْ ض وَنَفْحُ الوُّرُودِ بَيْنَ الوُّرُودِ

بَيْنَ زُهْرِ المُنَى وحُلُو النَّشِيْدِ والهَوَى صُغْتُه مَآثِرَ صيد

هَاهَنا نَفْحَة مِنَ الْأَمَلِ الحُدْ وَلَقَاءُ يَمُوْجُ بِالنُّورِ يَجْلُو إِيْهِ ﴿ لَكُنُو ا فَكُمْ ضَمَمْتِ نَديًّا ﴿ مِنْ شُيُوخِ وَمِنْ شَبابِ نَجِيْدِ يًا حَنانَ الهَوَى وصَفْوَ ودادٍ زَيِّني دَارَكِ الغَنِيَّةَ بالشَّوْ ق، بمَجْدٍ بمَلحَمَات الجُدُودِ

و وَنَيْضُ من خَيره الْممدُودِ مَكرُمَاتِ البَيَان دَفْقَ الجُود غَرِّدي مِنْ قَصِيدِك المَعْهُودِ

كُمْ دَعَوْتُ القُصِيدَ مِن دَمْعَة الذُّلْ لَى مَكَانٍ بَعيدِ كُمْ تَلَفَّتُ في دُرُوبِ هَوَانِ وَبِقَايَا قَوَافِل مَزَّقَتُها زَحَمَتُها عَلَى الدُّرُوبِ زَوَايا أَفْلَتَتْ مِنْ يَدَيُّ زُهْرُ القوَافي

وَحَوَالَي أَلْفُ خَطْوِ شريدِ عَضَّةُ الرِّيحِ والتطامُ النَّجُودِ وَرَمَتُها في غَيْهَبِ وسُدُودِ وَنَأَى اللَّحْنُ في بطونِ البيدِ

وَالمَعَاني تَنَاثَرَتْ في فَضَاء كِبْرِياءُ القَصِيدِ يَشْمُسُ عَنْ ذُلْ عِزْةُ فِيه، إِنَّهُ أَدَبُ الإِسْ

يَا إِبَاءَ القَصِيدِ يَرْفَعُهُ الصَدْ لَا يَسِفُ الهَوَى وَلاَ يَهْبِطُ الحسْ شَرَفُ القَوْلِ مِنْ هُدَى الحقْ أَدَبُ يَرْتَوِي البَيَانُ لَدَيه رَفَّ بالطَّيْبِ عُودُهُ فَتَمنَى يَنْشُرَ الجَوْهَرَ الكَرِيْمَ عَلَى الدَّهْ يَنْشُرَ الجَوْهَرَ الكَرِيْمَ عَلَى الدَّهْ فَأَتَى الشَّاعِرُ المُدِلُ عَلَيْهِ فَتَمنَى الدَّهْ فَأَتَى الشَّاعِرُ المُدِلُ عَلَيْهِ فَتَمنَى النَّاعِرُ المُدِلُ عَلَيْهِ فَتَمنَى النَّاعِرُ المُدِلُ عَلَيْهِ فَتَمنَى النَّاعِرُ المُدِلُ عَلَيْهِ فَتَمَنَّ الفَواني فَتَمنَى الغَواني

هُوَ رَفُّ النَّدَى عَلَى الوَرَق اليَا هُوَ خَفْقُ الأوْتَارِ بالنَّغَم الحَا هَوَ زَهْوُ الصِّبَا التَّقِيِّ وَشَوْقُ هُوَ في الكَوْنِ آيَةٌ حَوَّم المَجْ

يَا حَنَانَ القَصيدِ، يَا لَمْسَةَ الإسْ يَارِحَابَ الأَمَان يَمْسَحُ ذُلًا يَاحِمىً يَفْزَعُ الضَّعِيفُ إليْهِ يَاحِمىً الفَقِيرِ في مَنْهَجِ الحقْ ياغَنَاءَ الفَقِيرِ في مَنْهَجِ الحقْ

واخْتَفَتْ خَلْفَ أَنْقِهِ المسْدُودِ لَ وَيُنْأَى عَنِ الهَوَى والجُحودِ لَامٍ غَرْسُ الإيمانِ، رَيُّ العُهودِ

قُ فَيَرْقَى إلى مَطَافِ خُلُودِ سُ وَلاَ ينحني لعَضَ قُيودِ تِ وسِحْرُ البَيَانِ بالتَوْحيدِ مِنْ حَديث، مِنَ الكتاب المَجيدِ كُلُّ رَوْضٍ نَدَاوَةً مِنْ عُودِ كُلُّ رَوْضٍ نَدَاوَةً مِنْ عُودِ سِ غَنِيًا باللَّوْلُو المنْضُودِ صَاغَهُ مِنْ أَسَاوِرٍ وَعُقُودِ حِلْيَةً حَوْلَ مِعْصَمٍ أَوْجِيدِ

بِسِ يَهْتَزُّ في رَبِيعٍ جَدِيدِ ني عَلَى بَهْجَةٍ وَفَرْحَةٍ عِيدِ مَنْ عَفافٍ وَزِيْنَةٌ في بُرُودِ مَدْ عَلَيْهَا فَعَادَتْ رَوائِعاً مِنْ نشيْدِ

للام سَلْوَى الحَزين مَأْوى الطَّريدِ عَنْ جُفُونٍ وَدَمْعَةً عَنْ خُدُودِ فَإِذَا فيه قُوَّةً مِنْ أَسُودِ فَإِذَا فيه قُوَّةً مِنْ أَسُودِ فَي وَرْبِهِ الأمين الرَّشيدِ فَي وَرْبِهِ الأمين الرَّشيدِ

يالَنُعْمَى الإِنْسَانِ يَحْمِلُ مِنْهُ

رَفْرَفَ الشَّوْقُ، فانْتَقَى أَدَبُ الإس وَهَبَ الحُبُّ عِنْدَه الآيَةَ الكُبْ فَهُسوَ الله لا إله سِواهُ رَجِّعي يَادُنا جَلاَلَ هَوَانا أنا عَبْدُ لله مَا أعظَمَ الحُبَّ يَا أَهازِيجُ يَا نَشيدَ اللَّيَالي أنا بالحبّ نَشْوَةً في فَم الدَّهُ

يَا عَطَاءَ الإِسْلَامِ يَا نَفْحَةَ الإِيهِ أَدُبُ شَعَ في اللّيالي مَعَ العَزْ كُمْ جَلاهُ عَلَى المَيادين فُرْسَا فانْهَضِي يَارَوَاتْعَ الشّعْرِ هذي أَنْتِ في ذِرْوَةِ البّيَانِ عَطَاءً

يَادِيَارَ الْإِسْلَامِ جُنَّتْ رُبَاهَا أَطْلَقي دُونَهُ الْبَرَاكِينَ، صُبِّي وَاعصِفي غَضْبَةَ الْأَعَاصِير، وارْمي لَسْتُ بِالشَّاعِرِ المُدِلِّ إذا لَمْ وَإذا مَا انْطَوى عَلَى الغِمد سَيْفُ

مِشْعَلًا شَقَّ مِنْ لَيَالٍ سُوْدٍ

للام مِنْهُ قُمْرِيَّةَ التَغْرِيدِ

حرى وأُغْنَى قُدْسِيَّةَ التَرْدِيد

هِيَ أَعْلَى هَوَّى وَأَحْلى نَشِيدِ
واسْجُدي وانْعَمي بهذا السُّجودِ

حب وَأُغْنَاهُ باليقين الشَّديد

رَجِّعي اللحْنَ أَو أعيدي قَصِيدي

حر وَلْحنُ مِنَ الهَوَى المَنْشُودِ

حَمَانَ يَادُرُّةَ الْعَطَاءِ الْفَرِيدِ م زَكَا عِطْرُهُ دَماً مِنْ شهيدِ نُ وَغَنَّتُهُ وَثْبَةً مِنْ صِيدِ سَاحَةً زَغْردي لَهَا وَأَعيدي زَاخِرُ بالهُدَى وأَبْحُرُ جُودِ

بَیْنَ عَادٍ مَرَوِّعِ وَحَسُودِ حِمماً، زَلْزلیِ القَوَاعِدَ، مِیْدیِ فَوْقَهُ مِنْ قَنابلِ وحَدیدِ یَكُ شِعْریِ قَذَائِفاً مِنْ وَبُودِ أَو خَلاَ السَّاحِ مِن هَوَی صِندیدِ أَو خَلاَ السَّاحِ مِن هَوَی صِندیدِ

سَوفَ يَمْضي عَلَى الطّرِيقِ قَصِيدِي

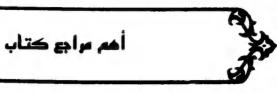
يا أديب الإسلام أيْنَ السَّرَايا أَيْفَ السَّرَايا أَيْفَظَتْهَا صَوَاعِقٌ مِنْ نِدَاءٍ دَفَعَتْها إلى النِّزَال أَهَازِيْ وَجَلْتُهَا عَلَى بِطَاحِ «فِلَسْطِيْ وَجَلْتُهَا عَلَى بِطَاحِ «فِلَسْطِيْ وَعَلَى «كَابُلِ»، وَزَمْزَمَتِ الأَرْ

أَدَّبُ التَّائِهِينَ لَيْلُ وَخَمْرُ حِينَ يَغْفُو القَصِيدُ في خَدَرِ السُّكُ أَدَّبُ ذَلَّ في الفُجُورُ وَنامَتْ يَتَوَارَوْنَ خَلْفَ سِحْرِ شِعَارٍ يَتَوَارَوْنَ خَلْفَ سِحْرِ شِعَارٍ سَمَّ مَا شِئْت مِنْ مِثَالٍ فَهَذَا سَوْفَ يَفْنَى مَعَ الزّمَانِ وَيَبْقَى سَوفَ يَفْنَى مَعَ الزّمَانِ وَيَبْقَى

كالنَّدَى رَفَّ في رَبِيعٍ جَدِيد

نَزَعَتْ عن مَضَاجِع وَمُهُودِ خَاطِفَاتٌ بَقيَّةً مِنْ كُبُودِ خَاطِفَاتٌ بَقيَّةً مِنْ كُبُودِ حَجُ فَمَاجَتْ عَلَى لهيب النَّشيدِ مِنَ « دَويًا في يَوْمِهَا المَشْهُودِ ضُ لَهِيْباً وَأَرْعَدَتْ بالجُنُودِ

بَيْنَ كَأْسٍ مُحطَّمٍ أَوْ غيدِ حِ لَخَصْرٍ مُهَفَّهَفٍ وَنُهُودِ بَيْنَ أَحْضَانِهِ جُفُونُ العَبيدِ كاذبٍ أَوْ زَخَارِفٍ ووُعُودِ أَدَبُ الضَّائعِ الشَقيِّ الجَحُودِ أَدَبُ الحَقِّ شُعْلَةً في الوُجُودِ



تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها

١ - القرآن الكريم:

- ابن كثير - الحافظ عهاد الدين أبوالفداء إسهاعيل بن كثير - تفسير القرآن العظيم - الطبعة 1808 هـ - 1907 م - دار المعرفة - بيروت .

٢ - الأحاديث النبوية:

- أبو عبدالله محمد بن إسهاعيل البخاري صحيح البخاري الطبعة ١٩٧٩م «المكتبة الإسلامية» استانبول تركيا.
- أبوالحسن مسلم بن حجاج بن مسلم القشيري صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي الطبعة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م رئاسة البحوث الرياض.
- أبوعبدالله محمد بن عيسى الترمذي الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي دار إحياء التراث العربي بعروت .
- أبوداود سليهان بن الأشعث السجستاني سنن أبي داود إعداد وتعليق: عزت عبيد الدّعاس وعادل السيد الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م دار الحديث حمص سوريا.
- أحمد بن حنبل الشيباني الفتح الرباني ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل مع شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني ترتيب وتأليف أحمد عبدالرحمن البنا دار الشهاب القاهرة.

- محمد ناصر الدين الألباني - صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) - الطبعة الثالثة - ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م - المكتب الإسلامي - بيروت .

٣ ـ الكتب الفكرية:

- كيللي، م. كومالزون ـ المادية التاريخية ـ ترجمة أحمد داود ـ تدقيق د. بدر الدين السباعي ـ الطبعة ١٩٨٣م ـ دار الجاهر ـ دمشق.
- ف. كونستانتينوف وعشرة آخرون من أساتذة الجامعات السوفيتية ـ الماديّة الديالكتيكية (الجدلية) ـ ترجمة فؤاد مرعي وزميلاه ـ تدقيق عدنان جاموس ـ دار الجماهير ـ دمشق.
- محمد البهي (دكتوز) الفكر الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ـ الطبعة التاسعة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م ـ مكتبة وهبه ـ القاهرة.
- محمد قطب مذاهب فكرية معاصرة الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م دار الشروق بروت القاهرة.
- ميخائيل غورباتشوف البيروسترويكا والتفكير الجديد لبلادنا والعالم أجمع الطبعة الرابعة ١٩٨٨م ترجمة د. محمد أحمد شومان وثلاثة زملاء دار الفارابي بيروت.

٤ - النقد الأدى:

- أبوعثمان عمرو بن الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ الطبعة ١٩٦٨م ـ دار الفكر للجميع.
- إحسان عباس (دكتور) تاريخ النقد الأدبي عند العربي الطبعة الرابعة ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م دار الثقافة ببروت .
- عبدالرحمن رأفت باشا (دكتور) نحو مذهب إسلامي في النقد الطبعة ١٤٠٥هـ عبدالرحمن رأفت باشا (دكتور) نحو مذهب إسلامية .
- عبدالباسط بدر (دكتور) مقدِّمة لنظرية الأدب الإسلامي الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ عبدالباسط بدر المنارة جدة السعودية .
- عدنان على رضا النحوي (دكتور) الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م - دار النحوي للنشر والتوزيع - الرياض - السعودية .

- . محمد غنيمي هلال (دكتور) ـ النقد الأدبي الحديث ـ الطبعة ١٩٧٣م ـ دار الثقافة ودار العودة ـ بيروت .
- محمد مصطفى هدّارة (دكتور) دراسات في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق الطبعة 19۸٩ م الدار الأندلسية للأوفست.

٥ - الحداثة من خلال النظرة الإيهانية:

- . أحمد فرح عقيلان ـ بين الأصالة والحداثة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ نادي الطائف الأدبي ـ السعودية .
- عدنان على رضا النحوي (دكتور) الحداثة في منظور إيهاني الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ عدنان على رضا النحوي الرياض.
- عوض بن محمد القرني ـ الحداثة في ميزان الإسلام ـ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ـ دار هَجَر ـ القاهرة .

٦ ـ الحداثة من مصادرها:

- أدونيس (علي أحمد سعيد ـ دكتور) ـ مقدمة للشعر العربي ـ الطبعة الرابعة ـ ١٩٨٣م ـ دار العودة ـ بيروت .
- عبدالله محمد الغذامي (دكتور) ـ الخطيئة والتكفير ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م ـ النادي الأدبي الثقافي ـ جدة ـ السعودية .
- عبدالله محمد الغذامي (دكتور) الموقف من الحداثة ومسائل أخرى ـ الطبعة الأولى ـ الدول ـ ١٤٠٧هـ ـ ١٤٠٧م ـ مطابع دار الميلاد ـ جدة .
- ـ عابد خزندار ـ حديث الحداثة ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٠م ـ المكتب المصري الحديث ـ القاهرة.
- كمال أبوديب (دكتور) ـ جدلية الخفاء والتجلي، دراسات بنيوية في الشعر ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٤م ـ دار العلم للملايين ـ بيروت .
- ـ مالكولــم بسرادبــري وجيمــس ماكفرلن وتسعة آخرون من أساتذة الجامعات ـ الحداثة (١٨٩٠ -١٩٣٠م)ــ الطبعة ١٩٧٨م ـ دار المأمون للترجمة والنشر .

٧ ـ الدواوين الشعرية:

- أبوبكر السقاف وخسة عشر كاتباً آخرون عبدالعزيز المقالح ، إضاءات نقدية الطبعة الأولى ١٩٧٨م دار العودة بروت .
- شقير وعكشه للطباعة والنشر والتوزيع عمان الشعر في جرش، مهرجان للثقافة والفنون الخامس لسنة ١٩٨٦م الطبعة ١٩٨٨م.
- _ صلاح عبدالصبور _ ديوان أقول لكم _ الطبعة الخامسة ١٩٨٢ _ دار الشروق _ القاهرة .
- _ محمود درويش _ ديوان محمود درويش _ الطبعة الثالثة ١٩٨٩م _ دار العودة _ بيروت.
- _ نازك الملائكة _ ديوان نازك الملائكة _ المجلد الثاني _ الطبعة ١٩٧٩م _ دار العودة _ بروت .

٨ - المراجع باللغة الإنجليزية:

- Anthony Giddens The Consequences of Modernity stanford University Press stanford - California - 1990
- Henry Sussman Afterimages of Modernity structure and indifference in twentieth century literature. The Johns Hopkins University Press. Baltimore and London 1990
- John F. Rundell Origins of Modernity, the origins of Modern Social theory from Kant to Hegel to Marx Polity Press Cambridge 1989.
- -Louis Menand Discovering Modernism, T.S. Eliot and his Context Oxford University Press New York Oxford 1987.

٩ - الدوريات:

- _ الحرس الوطني _ العدد (٨٦) _ ربيع الأخر ١٤١٠هـ ـ نوفمبر ١٩٨٩م _ السنة العاشرة.
- فصول (مجلة النقد الأدبي) الحداثة في اللغة والأدب الجزء الأول المجلد الرابع العدد الثالث إبريل مايو يونية ١٩٨٤م الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة.
- فصول (مجلة النقد الأدبي) الحداثة في اللغة والأدب الجزء الثاني المجلد الرابع العدد الرابع العدد الرابع يوليو أغسطس سبتمبر ١٩٨٤م الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة.
 - _ القافلة _ المجلد (٣٧) _ العدد (٩) رمضان ١٤٠٩هـ _ مايو ١٩٨٩م.



تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها

فهرس كتاب

الصفحا	الموضوع
6	الإهداء
v	الافتتاح
٩	مقدمة الطبعة الثانية
11	مقدمة الطبعة الأولى
10	الافتتاح والتمهيد
	الباب الأول
	أسس التقويم ونهجه
	والمصطلح والدلالة
Y1	الفصل الأول: أسس التقويم ونهجه
Yo	الفصل الثاني: الحداثة بين المصطلح والدلالة
Y7	١ ـ الاضطراب والتناقض في المصطلح وترجمته
Y4	٢ ـ اضطراب دلالة المصطلح وامتداده
£Y	الفصل الثالث: جذور الحداثة في تاريخ الإنسان
	الباب الثاني
	الحداثة بين النظرية والتطبيق
oo	الفصل الأول: ولادة الحداثة ونشأتها.
۰۸	الفصل الثاني: مع الحداثة في ميادينها المختلفة

۰۸	١ _ الحداثة في الفكر والعلوم الإنسانية							
**!	٧ ـ الحداثة والعلوم التطبيقية							
78	٣ ـ الحداثة في الفنون والأدب							
V1	٤ _ الحداثة في السياسة والاقتصاد							
٧٦	ه ـ الحداثة في الفكر والأخلاق							
۸٠	الفصل الثالث: الحداثة بين المادية الرأسمالية والمادية الماركسية							
A&	الفصل الرابع: أثر الحداثة في الواقع الإسلامي							
الباب الثالث								
موقف الأدب الإسلامي من الحداثة								
41	غهيد							
لامي والحداثة ٩٣	الفصل الأول: التصور للكون والحياة والإنسان بين الأدب الإس							
1.7	الفصل الثاني: مصادر المعرفة بين الأدب الإسلامي والحداثة							
'سلامي	الفصل الثالث: النمو والتطور والتجديد بين الإسلام والأدب الإ							
118	وبين الحداثة ومذاهبها							
177	الفصل الرابع: نهج الإيهان في النمو والتطور والتغيير							
1 TV	١ ـ الفطرة الثابتة في الإنسان							
174	٧ ـ السنن الربانية الثابتة في الكون والحياة							
144	٣ ـ التفكر والتدبر							
140	٤ ـ السعي المنهجي الدائب للإنسان المؤمن							
1 T V	٥ ـ قواعد الإيهان والتوحيد تصوغ المهارسة الإيهانية							
1	٦ ـ تعارف الشعوب، واتصال الأجيال، وبناء الأمة							
يمي والحداثة ١٤٧	الفصل الخامس: الماضي، التراث، الأسطورة بين الأدب الإسلا							
174	الفصل السادس: اللغة بين الأدب الإسلامي والحداثة							
187	الفصا السابع: الحال الفني وولادة النصّ الأدبي وانطلاقته							

144	 	 	 	 	 	 القصيد	بدة مهرجان	قصي
							جع	
Y•V	 	 	 	 	 	 	رس	الفهر
Y1.	 	 	 	 	 	 	، المؤلف	کتب

كتب للمؤلف

- دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية _ الطبعة السادسة.
 - الشورى وممارستها الإيهانية ـ الطبعة الثالثة.
 - الشورى لا الديمقراطية ـ الطبعة الرابعة.
 - لقاء المؤمنين ـ الجزء الأول ـ الطبعة الرابعة.
 - لقاء المؤمنين ـ الجزء الثاني ـ الطبعة الرابعة.
 - منهج المؤمن بين العلم والتطبيق ـ الطبعة الثالثة.
 - التوحيد وواقعنا المعاصر الطبعة الثانية.
 - العهد والبيعة وواقعنا المعاصر ـ الطبعة الثالثة.
- النبج والمارسة الإيمانية في الدعوة الإسلامية ـ الطبعة الرابعة.
 - النيّة في الإسلام وبعدها الإنساني ـ الطبعة الأولى.
 - الولاء بين منهاج الله والواقع ـ الطبعة الثانية.
 - الحوافز الإيهانية بين المبادرة والالتزام الطبعة الثانية.
 - نهج الدعوة وخطة التربية والبناء ـ الطبعة الأولى.
 - منهج لقاء المؤمنين ـ الطبعة الأولى.
- «خطة الداعية The Caller's Plan » (باللغة الإنجليزية) ـ الطبعة الأولى.
 - لقاء المؤمنين ـ الجزء الأول ـ (مترجم إلى اللغة التركية).
 - أضواء على طريق النجاة ـ الطبعة الأولى.
 - الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته ـ الطبعة الثانية.
 - الحداثة في منظور إيهاني ـ الطبعة الثالثة.
 - تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها _ الطبعة الثانية.

- ديوان الأرض المباركة ـ الطبعة السادسة.
- ديوان موكب النور ـ الطبعة الرابعة.
- ديوان جراح على الدرب ـ الطبعة الثالثة.
 ديوان مهرجان القصيد ـ الطبعة الأولى.
- ملحمة الغرباء ـ الطبعة الثالثة .
- ملحمة القسطنطينية (فتحان) الطبعة الثانية.
 - ملحمة الجهاد الأفغاني ـ الطبعة الثالثة.
- ملحمة فلسطين ـ الطبعة الخامسة.
 ملحمة الأقصى ـ الطبعة الثانية.
- ملحمة الإسلام في الهند ـ الطبعة الأولى .
- ملحمة البوسنة والهرسك _ الجريمة الكبرى _ الطبعة الثانية .
 - على أبواب القدس ـ الطبعة الثانية .
 - فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع الطبعة الرابعة.
 - الصحوة الإسلامية إلى أين؟ ـ الطبعة الثالثة.

->

الأولى.

- فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع (مترجم باللغة التركية).
- عبد الله عزام، أحداث ومواقف _ الطبعة الأولى.
- دراسة انتشار الموجات الإلكتر ومغناطيسية المتوسطة (باللغة الإنجليزية) ـ الطبعة

.

cel



دار النحوي للنشر والتوزيع هاتف وفاكس ٤٠١٠٢٥٧ ص.ب ١٨٩١ ـ الرياض ١١٤٤١ المملكة العربية السعودية

ردمك ١٩٦٠ - ١٩٨٢ - ١٩٦٠